مؤلف الكتاب الذى تصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعًا
لجريدة نيويورك تايمز
"How Starbucks Saved My Life"

مايكل جيتس جيل

كيف تنقذ حياتك

١٥ درسًا عن كيفية إيجاد الأمل
فى أماكن غير متوقعة



مؤلف الكتاب الأكثر مبيعا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز *How Starbucks Saved My Life* الذى يشارك فى دروس محفزة فى إيجاد السعادة الحقيقية فى أى سن وأى مرحلة من الحياة.

فى مذكراتـه التى تحمل اسم *How Starbucks Saved My Life*، شـارك مايكل جيتس جيـل قصة بدئه لحياته مـرة أخرى فى الخمسينيات من عمره. وحين كان يسافر فـى أنحاء البلاد يتحدث عن كتابه الأول، وجد أن أجزاء محـددة من قصته تجد صدى لـدى القراء. وكانت ردود الأفعـال التى تلقاهـا مدهشة حتى أن بعض الأشخاص شكروه بقول: "مايك، لقد أنقذتنى قصة حياتك فعلا".

وفـى هذا الكتاب، يركـز مايكل حكمته فـى خمسة عشر درسا هادفا حول النجاة من تقلبات الدهر فى أية مرحلة عمرية. ويتضمن ذلك:

- **اقفـز ... مسـتعيناً بالإيمـان** ــ حـين دنـت كريستال، مديـرة ستاربكس الشابـة، من مايكل وهـو يختبئ خلف حقيبـة أوراقـه فى المقهـى الـذى تديره وعرضـت عليه وظيفـة، أجـاب قائلا: "نعـم!" دون تفكـير. وكانت هذه الكلمة الصغيرة مفتاحًا لتغيير حياته تماما.

- **انظر...باحـترام لـكل فـرد تراه**- نظـرا لكونه صبيًّا ينشأ فى مدينة نيويـورك، قيل لـ مايك: "تجنب التواصل البصـرى". ولكـن، تجربة مايـك فـى ستاربكس فتحت عينيـه على احتمالية أن كل فـرد تلتقى به ــ بغض النظر عـن مـدى اختلافه الخارجـى عنك ــ مـن المحتمل أن ينهض بحياتك.

كيف تنقذ حياتك



كيف تنقذ حياتك

١٥ درسًا عن كيفية إيجاد الأمل في أماكن غير متوقعة

مايكل جيتس جيل





للتعرف على فروعنا في

المملكة العربية السعودية - قطر - الكويت - الإمارات العربية المتحدة

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت www.jarirbookstore.com

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: jbpublications@jarirbookstore.com

الطبعة الأولى ٢٠١١

المملكة العربية السعودية ص.ب. ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧١ - تليفون ٤٦٢٦٠٠٠ ١ ٩٦٦+ - فاكس ٤٦٥٦٣٦٣ ١ ٩٦٦+

HOW TO SAVE YOUR OWN LIFE

15 Lessons on Finding Hope in Unexpected places

MICHAEL GATES GILL





يتعهد الناشر بنشر أعمال ذات جودة ونزاهة.

وبهذه الروح، نفخر بعرض هذا الكتاب لقرائنا؛

ومع ذلك، فإن القصة، والتجارب،

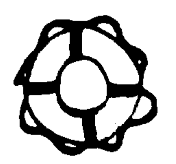
والكلمات تخص القارئ وحده.

إهداء إلى أليسون لاركين - تلك الصديقة الحقيقية والكاتبة العظيمة.

المحتويات



المقدمة



نِعم خفية

عندما تم فصلى من وظيفتى ثم اكتشفت بعدها أننى مصاب بورم خبيث فى المخ، ظننت أن حياتى قد انتهت.

وكنت محقا فى ذلك.

فحينئذ كانت حياتى القديمة قد انتهت.

ولكنى بدأت حياة جديدة تماما أفضل من الأولى.

ما لم أكن أتوقعه هو أنه كان بمقدورى أن أخلق حياة جديدة سوف تجعلنى أكثر سعادة من أى وقت مضى. وبالرغم من أنه ما من أحد سيختار طواعية أن يتعرض للمآسى على المستوى الشخصى أو الوظيفى، إلا أن تلك التجارب الصادمة قد تكون نعمًا خفية.

فى بعض الأحيان، حين تقع أكثر الأمور التى نخشاها، قد تفاجئنا الخسارة وتمنحنا الفرصة للعثور على مستوى جديد تماما من السعادة.

ذلك لأن ما يحدث الفارق هو ما تجلبه أنت للحياة وليس ما تجلبه لك الحياة.

سوف تجد فى الصفحات التالية دروسًا من واقع الحياة ستساعدك على التغلب على المآسى الحتمية التى قد تصيبك فى عالمنا هذا، والتى كثيرا

ما تحدث حين لا تتوقعها، كما ستساعدك هذه الدروس على خلق حياة تحبها.

وباتباع هذه الدروس الخمسة عشر ستكون قادرا على أن تجعل الأوقات العصيبة أفضل أوقات حياتك.

لقد تعلمت هذه الدروس بصعوبة؛ فلم أكن أخطط لتعلم أى منها عن طيب نفس. إلا أن الحياة قد جذبتنى من تلابيبى وألقتنى من مكانى المميز فى قمة المؤسسات الأمريكية. ولولا طردى لما استطعت تعلم هذا الدرس.

لقد كنت الابن المفضل لأب مشهور، هو "برندان جيل" الذى كان يعمل فى مجلة نيويوركر، وكان ذلك قبل أن يصبح الإنترنت بمثل هذا الانتشار وقبل أن يصبح التليفزيون أداة تعمل ٢٤ ساعة لنقل الأخبار والدراما. ففى عصر والدى كانت المادة المطبوعة وسيطًا مهيمنًا، وكذلك كانت مجلته تعتبر أعظم مصدر أدبى للرؤى المعاصرة والكتابة المتميزة فى أمريكا، فقد كان الناس يتطلعون كل أسبوع لقصة جديدة بقلم "جيه. دى. سالينجر" أو يتابعون قصة واقعية جديدة بقلم "ترومان كابوتيه" باستمتاع غريب. أو يضحكون من رسومات "جيمس ثاربر" الجنونية وفكاهته العبقرية.

وقد أحضر والدى العديد من هؤلاء الكتاب والفنانين إلى المنزل للعب معى فى قصرنا الذى يضم ٢٥ غرفة. فكان "إى. بى. وايت" مؤلف قصص *Charotte's Web* و *Stuart Little*، ينحنى ليخبرنى بأنه دائما ما كان يقول لنفسه: "يا له من شىء مؤسف أن يكبر المرء". بينما كان "تشارلز آدامز"، الذى كانت أفلام الرسوم المتحركة الخاصة به تعد بمثابة إلهام لسلسلة *The Addams Family* التليفزيونية، يقف فى أحد الأركان مرتديا خوذة من العصور الوسطى لكى يدفعنى إلى الضحك.

وفى مرحلة لاحقة من حياتى، كان "إيرنست هيمنجواى" يتحدانى أن أجرى أمام الثيران فى بامبلونا (وكنت أنجو بشق النفس من هذا العرض).

وقد ذهبت إلى حفلات خيالية بصحبة "جاكى أوناسيس" وآخرين من مشاهير العالم حين كان يبدو أن بمقدور هؤلاء الأشخاص الأذكياء الساحرين تحقيق أى شىء.

لقد تلقيت تعليمى فى جامعة ييل، لمجرد أن أجيالًا من عائلتى قد تلقت تعليمها هناك.

وبعد تخرجى فى جامعة ييل، قام رجل متخرج فى جامعة ييل ويملك أضخم وكالة إعلانية فى العالم بمنحى وظيفة.

وعلى مدار السنين فى وكالة (جيه والتر ثومبسون) كنت أحصل على العلاوات والترقيات من أشخاص يبدون مثلى تماما وكانوا من نفس خلفيتى.

وكنا ننظر إلى بعضنا البعض ونتعجب قائلين: "إنك لشخص رائع!"

فيرد الآخر قائلا: "لا، بل إنك أنت الرائع!".

لقد كان حب الذات وتهنئة النفس سمتين متغلغلتين فى الوسط الذى كنا نعتبره بمثابة ناد يقتصر على النخبة التى استطاعت أن تتلاعب بالعامة بمهارة.

والحقيقة المؤسفة هى أننى كنت أظن فى ذلك الحين أننى أستحق كل ما كنت أحصل عليه وأن كل ذلك يرجع إلى موهبتى النادرة وهى أنه قد تصادف أن أحيا فوق قمة الحلم الأمريكى.

لقد كنت جزءًا من الأشخاص الذين لم يكن باديًا أنهم سيحققون نجاحًا مثل الذى حققته.

وكنت أقول لأبنائى: "لمَ لا يجتهدون أكثر فى العمل؟"

"لم لا يحصلون على تعليم جيد؟"

ووراء اعتراضى على الأشخاص الآخرين الذين ينحدرون من أعراق أو طبقات أو خلفيات مختلفة كان يقبع انتقاد صامت، فأقول فى نفسى: "لم لا يستطيع هؤلاء أن يكونوا أكثر شبها بى؟".

لقد نطق "ريكس هاريسون" الذى لعب دور الأستاذ المتغطرس فى مسرحية *My Fair Lady* (سيدتى الجميلة)، بكلمات مماثلة حين قال شاكيا: "لم لا تستطيع المرأة أن تكون أكثر شبها بالرجل؟"

لقد ولد "ريكس" ليؤدى دور رجل يجسد الشعور بالاستعلاء.

فحين كان يؤدى دور البطولة فى عروض برودواى المسرحية الناجحة، أخبر "ريكس" والدى أنه يرغب فى الانطلاق لقضاء عطلة نهاية أسبوع هادئة فى الريف. فعرض عليه والدى على الفور الإقامة بمنزلنا الصيفى.

وقال له والدى محذرا: "ولكنه منزل بسيط إلى حد ما".

فقال "ريكس"، الذى كان يخطط لقضاء عطلة نهاية أسبوع هادئة فى أواخر شهر أغسطس: "إن هذا بالضبط ما أحتاج إليه".

وحين اقترب موعد العطلة، اتصل ريكس بوالدى، وقال له:

"برندان، إننى مسرور بقبول عرضك. إن احتياجاتى بسيطة جدًّا، فكل ما أحتاج إليه ثلاثة أشياء: سائق متمرس يقلنى إلى مكان المنزل ويقود لى السيارة أثناء وجودى هناك، ثم يعيدنى إلى المدينة، وأحتاج بالطبع إلى طاه، وإلى صندوق من المشروبات الفاخرة؛ فأنا مولع بالمشروبات، هذا فقط كل ما أحتاج إليه عزيزى "برندان"، وسأكون فى قمة سعادتى".

وفى الواقع، وكما تبين بعد ذلك، فقد كان "ريكس" بحاجة إلى أشياء أخرى غير هذه المطالب؛ فقد كان بحاجة لجهاز تليفزيون لمشاهدة مباريات التنس، وكان بحاجة إلى أن تبقى زوجته السادسة الجميلة،

"مارسيا" التى حضرت لقضاء العطلة معه، رهن إشارته، بل وأن يكون الجميع رهنا لإشارة من يده.

بعبارة أخرى، كان "ريكس" يريد أن يدور العالم فى فلكه وأن يقوم كل سكانه على خدمة كل أمنياته.

وقد كنا جميعا على استعداد لتزويد "ريكس" بكل ما يرغب فيه، حيث إنه يكون شخصا رائعا حين تلبى كل احتياجاته على نحو كامل.

لقد كانت هناك القليل من المشاهد الاستثنائية حين كانت "مارسيا" تتأخر فى إعداد قدح من الشاى الساخن، أو حينما تصبح صورة التليفزيون غير واضحة عند تسديد نقطة فى المباراة، فكان "ريكس" ينفجر بالغضب وكأنه عاصفة صيفية مفاجئة شديدة القوة.

ولكن بعد ذلك، حين يتم إحضار الشاى ويعمل التليفزيون بشكل جيد، يعود مرة أخرى إلى حالته المزاجية الساحرة.

كان من الممكن أن تصبح الحياة رائعة لو حصل "ريكس" على كل ما يريد، وكان كل ما يريده هو أن يعامله الآخرون وكأنه ملك.

لقد كنت أشبه "ريكس" إلى حد كبير (وهو فى الواقع اسم لاتينى يعنى "ملك").

لقد كنت أتوقع من العالم أن يعطينى كل شىء... ثم ظننت أننى قد قمت بكل واجبى حين شكرت العالم بأدب على تفهمه لاحتياجاتى. كل ما كنت أرغب فيه هو أن يعاملنى من حولى وكأننى ملك، وقد أكدت لى أمى ذلك الأمر، فحين ولدت طلبت أمى تصميم كرسى أديرونداك صغير وأن يحفر عليه بحروف من الذهب: "الملك جاتسى". فكنت أجلس عليه حتى السنة الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمرى. لقد قضيت سنوات تكوينى الأولى فى التعود على تلك الإطلالة الملكية، وقد كانت بمثابة تاج على رأسى.

حين كبرت كنت أجد أنه من السهل أن أكون مهذبا حين تلبى رغباتى. فحين كنت طفلا توافرت لى صالة ألعاب لألعب فيها وكذلك بيانو ستينواى ضخم لأعزف عليه، ثم قلدت والدى والتحقت بجامعة ييل ثم دلفت إلى المجتمع السرى القوى الخطير، كما آلت إلىّ ثروة من جدى مكنتنى من السفر ورؤية العالم، كما حصلت على وظيفتى بفضل علاقاتى مع أشخاص من جامعة ييل، وحيث إننى كنت أملك كل شىء، فلم أكن على استعداد لخسارة أى شىء.

ولهذا السبب كنت كالمصعوق بينما أرى حلمى الأمريكى يتحول إلى أسوأ كابوس وأنا فى الثالثة والخمسين من عمرى.

لقد تمت دعوتى على الإفطار ثم فُصلت.

خلال سنوات عملى فى وظيفتى، كنت أصنف نفسى على أننى مخرج مبدع ونائب رئيس تنفيذى لشركة جيه. والتر ثومبسون. لم يوجه إلىَّ أى نقد لسوء أدائى يوما ما، ولكننى أدركت فى وقت متأخر جدًّا أننى ارتكبت خطأ مهنيًّا لا يغتفر، ألا وهو أننى أصبحت رجلًا عجوزًا يعمل فى مجال الدعاية والإعلان. لقد تحطمت بعد أن انتزع منى سبب حياتى، ألا وهو شعورى بذاتى.

لقد انفجرت فى البكاء حينما سمعت تلك الأخبار المخيفة.

ومع ذلك، لم أخبر أى شخص بما كنت أشعر به. فالشكوى من سوء المعاملة فى الشركات الأمريكية تشبه خيانة العهد فى المافيا - فعاقبة ذلك القضاء على حياتك المهنية على الفور - ولن يتم تعيينك مرة أخرى.

لذا لم أكن أشكو من أننى قد فصلت من عملى، بل تظاهرت أمام عائلتى وأصدقائى بأننى سعيد لأن الفرصة قد سنحت لى كى أشق طريقى بمفردى.

إننى فقط لم أستطع أن أعترف حتى لنفسى بأننى كنت أحمق حين أسلمت مصيرى لشركة. لقد ائتمنتهم على حياتى بشكل ما ، فقد كنت أعمل لساعات طويلة، وكنت أسافر لحضور اجتماعات دون سابق إنذار. وكنت أفتقد حكايات أبنائى الأعزاء وفرص قضاء وقت الفراغ مع عائلتى. وكنت أكد حتى أقوم بعملى كما ينبغى كى أرضى عملائى ورؤسائى فى العمل، ولقد تعلمت الدرس القاسى، فكونى مخلصا لهم على مدار ستة وعشرين عاما ، وذهابى إلى كل مكان طلبوا منى الذهاب إليه، وقيامى بكل ما طلبوا منى القيام به، لم يكن يعنى أن يكونوا هم مخلصين لى. فالمكاسب كانت أهم من الأشخاص.

وبعدما تم "تسريحى" من العمل، حاولت إدارة شركة استشارية مستقلة؛ ولكننى سرعان ما اكتشفت ذلك الصمت المخيف الذى يأتيك من الجانب الآخر على الهاتف عندما تكون قد بلغت سنًّا معينة وتحاول أن تقنع الآخرين بنفسك باعتبارك شخصًا ذا أفكار إعلانية جديدة رائعة، وبازدياد شعورى بعدم الثقة فى الذات، بحثت عن توكيد الذات خارج عائلتى، مما أدى بى إلى خيانة زوجتى ثم الطلاق. لقد أدركت أننى خنت ثقة زوجتى وأبنائى الأحباء، على الرغم من أننى طالما ظننت أننى رب عائلة عظيم.

لم يكن بمقدورى أن أستوعب ما يحدث لى، ولكننى كنت أشعر بالعجز عن القيام بأى شىء غير الذى أعرف كيفية القيام به، وفى شكل مريض من أشكال إنكار الواقع، كنت أرتدى حلتى البروكس براذرز كل يوم وأتصرف كما لو أننى رجل ذو شأن كبير فى مجال الدعاية والإعلان. فى حين أننى فى الواقع كنت أزداد بؤسا وسوءا يوما بعد يوم.

كنت أعلم أننى أفشل ولكننى لم أكن أعرف كيف أغير ذلك.

وأخيرا، وأنا في الثالثة والستين ذهبت لإجراء فحص طبى روتينى فاكتشفت أننى مصاب بورم العصب السمعى، لم يكن ورمًا سرطانيًا ولكنه كان من الممكن أن يصبح ورمًا خبيثًا فى المخ، ولم يكن لدىَّ فى ذلك الوقت تأمين صحى - حيث إننى تركت عقدى مع شركة التأمين ينتهى - لذا وافق طبيبى على تأجيل العملية الجراحية.

وبينما كنت أشعر بالندم الشديد على ما ارتكبته من أخطاء وأعيش وسط غمامة من اليأس، ذهبت فى زيارة إلى الحى الذى قضيت فيه سنوات عمرى الأولى كابن محظوظ. كنت أشعر بأن حياتى قد انتهت، وكنت بحاجة ماسة إلى ذكرى دافئة من مكانى المفضل فى هذا الكون حيث أقمت فى صغرى.

ذلك الحى كان مملكتى. فحتى رجال الشرطة كانوا يحيوننى إذا ما رأونى فى الشارع ويعطوننى شارة أرتديها للحظات قليلة.

أما فى تلك الزيارة فكان يبدو كما لو أننى أصبحت غير مرئى.

ولاحظت وقتها أن هناك مقهى ستاربكس يقع عند ملتقى شارعين. فتوجهت إليه لأتناول ما ظننت أنه سيكون آخر قدح لى من القهوة باللبن فى حياتى... مثلما يفعل الرجل المحكوم عليه بالإعدام عندما يقدم لنفسه آخر وجبة.

وفى الداخل، كانت هناك امرأة أمريكية من أصول أفريقية - كانت مديرة المحل - وكانت تأمل فى تعيين أى شخص فى ذلك اليوم. فعرضت علىَّ وظيفة، فوافقت دون تحمس.

لقد كان ذلك بمثابة فرصة ستغير حياتى بعدة أشكال.

ولحسن الحظ، كنت قادرا على تسجيل هذا التحول يوما بيوم. فلقد اقترحت على ابنتى "آنى" حينما كنت أمر بتلك الأوقات العصيبة أن أحتفظ بمفكرة كوسيلة تساعد على استقرار الحياة. وكنت أكتب جملة

أو جملتين قبل أن أذهب إلى الفراش فى الليل، وبعد مرور عام على عملى فـى ستاربكس أعدت قراءة المفكرة، وقرأت وصفى لمدى اليأس والاكتئاب اللذين كنت عليهما فى البداية، ثم مدى السعادة التى أصبحت عليها بعد مـرور عام من العمل هنـاك؛ فحينئذ كنت أكثر سعـادة مما كنت فى أى وقت آخر من حياتى.

لقـد كان هذا الأمر بمثابة صدمة كبـيرة بالنسبة لى. لم كنت سعيدا فـى ذلك الحين وأنا أعمل فى وظيفة يرى الكثيرون أنها مهينة؛ حيث أعد القهـوة للآخرين، أكثر من سعادتى حين كنت أشغل منصبًا رفيعًا أتحكم بمقتضاه فى الآخرين فى شركة جيه. والتر ثومبسون؟

ربمـا تمدنا تلك الجملة الأخيرة بمفتاح مهم، فنظرا لأننى كنت أعمل فى إعداد القهوة للآخرين فى ستاربكس، كنت أركز اهتمامى على خدمة الأشخاص على النحو الذى يريدون، وذلك بدلا من قضاء اليوم فى إقناع الآخرين بالقيام بالأشياء التى أريدهم أن يقوموا بها.

لقد تعلمت أثناء الفترة التدريبية فى ستاربكس أن هناك إجابة واحدة على أى طلب للزبائن: ألا وهو الموافقة بحماس.

لقـد أصبحت أرى أن هناك نوعًا مـن السرور فى خدمة الآخرين وهو ما كان من المستحيل أن تراه وأنت تحاول التحكم فى الآخرين.

كمـا كان ذلـك التواضع الذى طـرأ علىَّ مصدرا آخـر لسعادتى. كما توصلـت إلى إدراك أننــى لم أكـن سيـد الكون ولكننى مجـرد جسيم من الطاقة فى هذا الكون الآخذ فى الاتساع.

إن حياتــى الآن أصبحت مختلفة كثيرا عن حياتى سابقا. حيث ينبغى علــىَّ أن أصـل مبكـرًا حتى أفتـح المحل فـى الخامسة صباحـا، ولكننى أستطيـع الانصـراف وقـت الظهيرة بعدمـا أنهـى ورديتى. كنـت أعمل باجتهاد لإعداد القهوة، والتخلص من القمامة، والقيام بالمئات من المهام

الأخـرى المهمة برغم صغرها والتى تتيح للزبائن فرصة قضاء وقت ممتع فى المحل.

ثم يصبح باقى اليوم ملكى.

أذكر أنه ذات مرة فى حياتى السابقة أثناء عملى فى مجال الدعاية والإعلان حين اتصل بى رئيسى فى العمل فى عيد رأس السنة – وكان أطفالى قد بدأوا للتـو فى إخراج هداياهم من لفافاتها – وأخبرنى أنهم يريدوننى لحالة طارئة، حيـث كان علينا تصوير إعلان فورا لإطلاقه مع دورى كرة القدم.

فتركت أبنائى الصغار دون تفكير.

هكذا كانت أولوياتى فى حالة من الفوضى.

لم أكـن أتوقـف أبدا عن التفكير فـى الإعلانات وسياسـات الشركة، وكنـت أعمـل ١٢ ساعة على مدار اليوم وأسافر فـى كل عام مئات الآلاف مـن الأميـال. لم يكن لدىَّ الكثير من الوقت لأبنائـى أو أصدقائى أو حتى لحياتى الشخصية.

واليوم، عندما أنصرف من المحل، تكون لدىَّ حياتى الشخصية.

ففـى الأسبـوع الماضى بعدمـا انتهت ورديتـى فى ستاربكس التقيت بابنتـى "آنى" لتناول الغداء معا. إن هذا يبدو لى الآن أمرا جنونيا، ولكن حتـى أكـون صريحا، لو كان هـذا الموقف فى حياتى السابقـة أثناء عملى فـى الدعاية والإعلان، لكنت قـررت أننى مشغول جدا وليس بمقدورى أن أخصص وقتا حتى لتناول الغداء مع ابنتى.

فكونى مخرجًا مبتكرًا، كنت أقضى العديد من الساعات فى التعامل مع ما كنا نطلق عليه "حالات الطوارئ". فأن يكون أحد العملاء غير راض عن إعـلان. كان هذا يعد بمثابة حالة طارئة، وقد يقرر مخرج موهوب أن يقلب مكتبه من الإحباط، معرضا رسومات اللقطات التى تم بيعها للعميل للخطر،

حينئـذ كنت أهرع عبر البهو لتهدئة الأوضـاع والاطمئنان على أن رسومات اللقطـات لا تـزال سليمة – حتى لـو كان المخرج يشعـر بالضيق. كان الأمر يشبه كما لو أننى طبيب تلقى استدعاءً إلى حجرة الطوارئ، إلا أننى لم أكن أنقذ حياة أى أحد – بل كنت أرضى ذاتى المغرورة وأبيع الإعلانات.

وبينما أنظر للوراء، علىَّ أن أعترف أننى كنت مهووسا بوظيفتى، فقد كنت أؤمن وأدعم فكرة أن كل شىء يحدث هو مسألة حياة أو موت.

لا يمكننى أن أصدق اليوم ذلك العدد الهائل من الساعات التى قضيتها فى الاجتماعات. فالأمـر يشبه إلى حد كبير ما يتم تصويره فى الحلقات التليفزيونية *Mad Men* (رجال مجانين)، فقد كنا جميعا رجالاً مجانين حتـى نولى وظائفنـا وليس عائلاتنا كل هذا الاهتمـام. وكان أول ما نقوم بـه هو الدخول إلى الاجتماعات، ممسكين فـى أيدينا بالقهوة والسجائر، وكنـا نختم اليـوم فى مكان كنا نطلـق عليه "الاجتماع"، وهـو الكافيتريا الخاصـة بالشركة والتـى توجد أعلى مبنى جراى بار الـذى يقع فيه مقر الشركة.

وكانت كل اجتماعاتنا تعد حيوية، وكانت التقارير تُكتب وتوزع. وكذلك كانـت الاجتماعات تعتبر بمثابـة جزء مهم من حياتنـا إلى درجة أنه فى حالة عدم حضور الاجتماع أو – ما هو أسوأ – عدم دعوتك إلى حضوره، تشعر بالقلق من أنك قد تكون فى طريقك إلى الفصل من العمل.

أمـا اليـوم فليس لدينـا مثل تلـك الاجتماعـات الخرقاء فـى مقهى ستاربكس الخاص بـى. فنحن مشغولون جدا بخدمـة الآخرين حتى أننا ليس لدينا وقت للتحدث مع أنفسنا.

وهكذا أصبح لدىَّ مزيد من الوقت الذى أقضيه مع أبنائى.

وقـد سافرت مؤخـرا إلى العاصمة واشنطن لأقضـى يومين مع ابنتى "لورا" التى كان لديها أيضا حفل عيد ميلاد.

كما أخذت عطلة نهاية أسبوع لأسافر إلى بوسطن حتى أكون مع ابنى "تشارلز" فى عيد ميلاده.

بعبارة أخرى، أصبح الآن لدىَّ وقت لعائلتى وأصبحت أدرك قيمة الوقت الثمينة، ولم أعد أعتبر أعياد ميلاد أبنائى بمثابة التزامات تم حشرها فى الأيام المكدسة بالأعمال، ولكن مناسبات سعيدة علينا أن نستمتع بها.

تنبع سعادتى فى مقهى ستاربكس من أن الوظيفة مؤقتة الدوام التى منحها لى وفرت لى حياة رائعة "كاملة الدوام".

فيما سبق، كانت حياتى مليئة بمشاكل الإعلانات. وحتى عند تواجدى بالمنزل كنت أفكر فى سياسات الشركة والاجتماع القادم، اجتماعات العمل الجديدة، والاجتماعات التى تعقد لمناقشة اجتماعات سابقة أو اجتماعات مهمة قادمة.

وكان العديد من اجتماعاتنا يدور حول كيفية الوصول إلى "مجموعتنا المستهدفة"، وهذه المجموعة عادة ما تكون من الشباب الأثرياء الذين يتحصلون على دخول كبيرة والذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، فإذا ما استطعنا أن ندفعهم إلى شراء السيارات والفيتامينات وأنواع معجون الأسنان التى نعلن عنها، فسيقلدهم الكثيرون.

وكنا نقضى ساعات عديدة فى التحليل الديمغرافى والتحليل الشخصى للمجتمع، وتعلمنا أن نحكم على الأشخاص من ملبسهم وليس من شخصياتهم.

وبمساعدة "كريستال"، أول مديرة لى فى ستاربكس، تعلمت أن تلك الأحكام السطحية لم تعد لازمة أو مؤيدة أو حتى مسموحًا بها.

وحتى الآن، لا أزال أتذكر ذلك اليوم الذى تعلمت فيه أهمية عدم الحكم على الأشخاص من مظهرهم فقط.

ففى أحد الأيام، دلـف إلى المحل رجل متشرد، وكنت قد انتهيت لتوى مـن تنظيـف دورة المياه، وكنـت أشعر بفخر لم أعهده فـى نفسى من قبل لمقدرتى علـى أن أجعلها تلمع من شدة النظافة، واعترضت طريق الرجل الـذى كان بمقـدورى أن أرى أنه متوجه مباشـرة إلى دورة المياه ولا ينوى مطلقًا تناول قدح من القهوة باللبن الرائعة التى نقدمها.

فأخبرته قائلا: "إن دورة المياه متعطلة".

فعـاد الرجل أدراجـه دون أن ينبس ببنت شفة، فقـد كان معتادا على مثـل هذا الرفضـ، ومدينة نيويورك لا تحتوى علـى الكثير من المراحيض العامة، علاوة على أن الأشخاص المشردين يحاولون فى كثير من الأحيان استخدام مراحيض الكافيتريات والمطاعم إلا أنهم يفشلون فى ذلك.

لم يفاجـأ الرجل. وتنفست الصعداء لأن دورة المياه التى نظفتها ظلت غير مدنسة.

إلا أننـى رأيـت "كريستـال" تتجه نحـوى وعلى وجهها تبـدو أمارات الضيق.

فقالـت لى: "لا تفعل ذلك مرة أخرى. فكمـا أعاملك باحترام، عليك أنت أيضا أن تحترم الآخرين، فكل من يدخل إلى المقهى هو ضيف مرحب به. ومن حق أى شخص أن يستخدم المرافق الخاصة بنا. لقد كان آخر ما ينتظره ذلك السيد اليوم أن تعامله بعدم احترام".

لقـد ساعدتنـى "كريستال" على رؤية الحقيقـة الجذرية وهى أنه لم يكن من الممكـن أن أستحق احترامها لو أننى لم أحترم الآخرين، كما أنه كان علـىَّ أن أتعلـم احترام الآخريـن ليس لمظهرهـم أو لمنصبهم، ولكن لأنهم بشر. فكل إنسان يستحق الاحترام بغض النظر عن ظروفه.

واليوم، بمساعدة شركائى فى كل وردية، أصبح بإمكانى إدراك أن كل فرد يستحق الاحترام.

وأحـد أسباب سعادتى فـى الوقت الحالى كذلك هـو أننى وجدت فى حيـاة الخدمة البسيطة والعيش دون أشياء تشغلنى حياة جديدة كاملة لم أكن أتخيلها من قبل.

إن القيـام بإعداد كوب مـن القهوة الجيدة أمر أكـثر إرضاء وإمتاعا بالنسبـة لى من الجلوس فى اجتماع، محـاولا اكتشاف كيفية التأثير على شخص ما لشراء شىء ما ربما أنه لا يحتاج إليه.

ولا يمكننـى أن أخـبرك كـم أن مشاركـة شخص ما فـى الضحك أو إخباره بقصة فى المقهى أكثر مرحا من محاولة إقناع عميل بشراء حملة إعلانية بقيمة عدة ملايين من الدولارات.

إننـى أكـثر سعـادة إلى حد كبـير وأنا أرتـدى مئزر المطبـخ الأخضر وأتحرك بسرعة لخدمة الآخرين، منى عندما كنت أرتدى حلتى البروكس بـراذرز وأظـل حبيسًا فى اجتمـاع آخر لمناقشة مـا إذا كان أحد مسئولى شركـة فورد للسيارات رأى أن إعـلان سيارة الموستنج الذى صورناه يغلب عليه "الطابع الغربى".

إن مساعـدة الأشخاص - زملائى وزبائنى - حتى فى أبسط الأمور. فـى الاستمتاع بكل يوم يرفـع المعنويات بدرجة أكبر كثيرا من القلق بشأن رضا وسعادة رؤساء مجلس الإدارة ذوى الدخول الضخمة.

بعـد مرور سنة على عملى فـى ستاربكس، كلما أعـاود قراءة المفكرة التـى اقترحت علىَّ ابنتى "آنى" الاحتفاظ بها، أندهش من مدى السعادة التى أصبح عليها ما إن ألقى خلفى تلك المقاييس الظاهرية للنجاح.

حينما كنت فى خضم الأوقات العصيبة، كنت أبحث عن كتب تساعدنى ولكنـى لم أجـد. فأنا أحب القـراءة ومطالعـة الكتب للإلهـام وتحصيل المعلومـات، ولكـن معظم الكتب المتاحـة فى متاجر بيع الكتـب والمكتبات كانـت تدور حـول كيفية صناعة ثروة فى وول ستريـت أو كيف تكون ثروة

عقاريـة. لم أستطع العثـور على كتاب واحد يتحدث عن كيفية التحول من الثراء إلى الفقر فى أمريكا، ومع ذلك تجد حياة أكثر إرضاء.

لم يكـن هناك كتاب يتحدث عن الكيفية التـى يمكنك العثور بها على معنى جديد للسعادة دون أن تكون هناك مقومات المكانة الرفيعة.

لـذا فكـرت فـى أن الأشخاص الذين يمـرون بأوقـات عصيبة سوف يحبون سماع قصتى.

لـذا فقـد كتبتها بالكامـل ووضعتها تحت عنـوان *How Starbucks Saved My Life*.

وقد اعتلى الكتاب لائحة جريدة نيويورك تايمز لأفضل الكتب مبيعا.

وكم أرغب فى أن أتصور أن كتابى قد اشتهر لأنه يحوى ذلك الأسلوب النـثرى المتألق الذى تميز به "إف. سكـوت فيتزجيرالد" أو تلك المشاهد الحية للحياة المعاصرة والمصورة بالموهبة والفطنة التى عرفت بهما "جين أوسـتن"، ولكـن علـىَّ أن أقر بأنه قد نجـح لأنه عزف على وتـر مؤثر فى حيـاة الأشخاص الذين يصارعون التحديات الجديدة كل يوم. لقد كانت قصتى هى ما يحتاجون إلى سماعه، وقد ساعدتهم على المضى قدما.

وأثنـاء الجولات التى قمت بها لمعرفـة آراء القراء فى الكتاب، سنحت لى الفرصـة للتحدث مع الآلاف مـن الأشخاص، وعرفت منهم أن قصتى ساعـدت العديـد مـن الأشخاص الذيـن فصلوا مـن أعمالهـم أو فقدوا منازلهـم أو حتى هـؤلاء الذين اكتشفوا أنهم مصابـون بأمراض خطيرة وليس لديهم تأمين صحى.

علـى الرغم من أن الكتاب يدور حول التعثر والخسارة فى الحياة، إلا أنـه يزف الأنباء السعيـدة وهى أن هناك حياة جديدة – بل وحياة أفضل – بعـد خسارة معايير النجاح الظاهرية. حيث أرى أن الأشخاص الذين أتحـدث معهم يشعـرون بالاطمئنان والتحفـز بعد سمـاع قصتى المثيرة

للدهشة التى تحكى عن متعة العثور على حياتى الجديدة البسيطة. لقد استغرق منى ذلك نحو خمسة وستين عاما، وكان علىَّ أن أتعلم أصعب الدروس، ولكنى استطعت فى النهاية أن أنقذ حياتى، ولم أكن فى يوم ما أكثر سعادة أو رضا أو انشغالا، وما أتمناه هو ألا يضطر الأشخاص إلى الوقوع فى نفس أخطائى قبل أن يتعلموا كيف يعيشون حياتهم كما ينبغى.

لذلك وضعت من أجلك هذا الكتاب الذى بين يديك، فلو كان هناك شخص مثلى يستطيع العثور على سبيل لإنقاذ حياته، فمن المؤكد أن الآخرين يستطيعون ذلك.

ولذلك اخترت له هذا العنوان.

سوف تقرأ فى الصفحات القليلة التالية دروسًا وأمثلة حقيقية للإجراءات التى يمكنك اتخاذها كى تعيش حياة أفضل وأكثر إشباعًا بدءًا من اليوم.

لقد وجدت أن معرفة الآخرين بقصتى تقدم لهم العون، وآمل أن تساعدك أنت أيضا تلك الدروس الجديدة فى الحياة التى ضمَّنتها هذا الكتاب.

كيف تنقذ حياتك

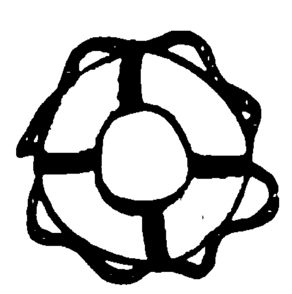


الدرس ١

استمع... إلى الذين عانوا
ثم نجوا بأنفسهم

"المشكلة المقسومة بين اثنين هى مشكلة نصف محلولة".

_ مثل إنجليزى_



منذ بضعة أيام كنت فى متجر بقالة أقف فى الصف لدفع الحساب، فإذا برجل يتجه نحوى، وكانت تبدو عليه أمارات الضيق ويرتجف من القلق.

وقال لى: "لقد قرأت كتابك. إننى أعرفك، فلقد شاهدتك فى التليفزيون".

فأومأت له برأسى. لقد كنا فى المتجر المحلى وكان ذلك الرجل جارى، لذلك ابتسمت له، ليس فقط لأبين له أننى كنت مرحبا بوجوده ولكن كذلك لأجعله يهدأ.

لم يكن الرجل يرتجف فعليًّا وحسب، بل كان أشعث الشعر، وبدا كأنه لم يحلق منذ أيام طويلة. قال الرجل: "إننى فى حاجة إلى التحدث معك، فأنا على شفا النهاية، وقد سمعتك تتحدث أنك كنت تتصور فى وقت ما أنك اقتربت من نهايتك".

قلت له: "نعم، بالفعل. ولكن كيف يمكننى مساعدتك؟". قلت له ذلك بينما كان الطابور يتحرك إلى الأمام.

فقال وقد تحولت ملامـح وجهه إلى تكشيرة كبيرة: "في الواقع، ليس بمقـدور أحد مساعدتى". كانت ملامحه تعكـس غضبا شديدا – غضبًا موجهًا إلى العالم بقدر ما هو موجه إلىّ.

فقلت متلعثما: "ماذا حدث؟"؛ وكنت آمل أن أجعله يستمر فى الحديث بينما أحتضن حقيبة البقالة التى كان يحملها ناظرا تجاه باب الخروج.

وكان على وشك الانصراف، ولكنه استدار وعاد أدراجه.

شعرت بأنه شعر بالإحراج لمجرد تواجده فى مكان عام يطلب مساعدة أى أحـد، إلا أن غريزته كانت قوية حينمـا تعرف علىّ، باعتبارى شخصًا نجح خلال أوقات عصيبة.

وبرغم تحدثه معى، فقد أحسست بأنه يشعر بأنه طلب المساعدة على نحو غير إرادى.

ولكـن بينما كان ينظر حوله بعينيه الحمراويـن، تيقنت أنه كان يأمل فى أن يهرب وينسى أمر هذا اللقاء نهائيًّا.

ولكنه مال مقتربا منى أكثر، وكأنه سيفضى إلىَّ بسر.

قـال الرجل: "لقـد عملت مثلك لسنـوات طويلة، ولكننـى كنت أملك شركة خاصة بى. لقد بنيتها بنفسى".

هنالـك سمعـت نـبرة فخر فـى صوته. لقد حقـق ذلك الرجـل شيئا بالمقارنـة بـى؛ فكل ما فعلته أنـا هو الحصول على وظيفـة رفيعة المستوى من خلال علاقاتى، فأحد أصدقائى من أخوية (سكول أند بونز) قدم لى وظيفة فى أكبر وكالة إعلانات فى العالم. لقد انطلقت فى حياتى العملية معولا على عائلتى، وإرثى، ووضعى الاجتماعى.

وكان باديـا أن نـبرة ذلك الجار تشير ضمنيـا إلى أننى خلال حياتى العمليـة كمدير تنفيذى كبير بشركة دعايـة وإعلانات لم أكن سوى راكب مسـترخ فـى قطار كبير. كان لديـه كل الحق فى ذلك، ولعلـه أصاب كبد

الحقيقة فى ظنه؛ فقيامك بتأسيس شركة بنفسك يتطلب اعتزازًا بالنفس وشجاعة لا يتطلبهما مجرد العمل لدى شركة.

قال الرجل مسترسلا فى الحديث، بينما شابت صوته نبرة شكوى مزعجة: "ولكن مؤخرا، تلك البنوك الجشعة...".

ثم لم يكمل الجملة.

كان الطابور يتحرك إلى الأمام، فخطوت خطوة إلى الأمام فتبعنى هذه المرة.

قال الرجل: "لقد تم الاحتيال علىّ، والشركة التى بنيتها على مدار سنوات عمرى...".

ولم يستطع أن ينطق بالكلمات.

وأخيرًا قال: "لقد أفلست. وانتهت الشركة".

وبدأت الدموع تغرق عينيه.

كنت أحس بما يعانيه من ألم. فحين تم فصلى من عملى، خرجت إلى الشارع منتحبا. إننى أعرف كم هو شىء مخيف أن تشعر بأن حياتك المهنية مهددة - خاصة لو كانت حياتك المهنية هى محور حياتك، كما كانت الحال معى فيما سبق. ونظرا لأننى قد خضت بنفسى تجربة فقدان الوظيفة الصادمة، كان بمقدورى أن أتعاطف مع موقفه. فيما مضى، كان من الممكن أن أقول فى هذا الموقف: "إنه خطؤه".

ولكن الآن أصبحت لدىَّ رؤية حقيقية أكثر تواضعا للحياة، ففى كثير من الأحيان، قد تشبه الحياة حادث سيارة، حيث تصدمك سيارة يقودها سائق ثمل، فالخطأ هنا ليس خطأك، ولكن كل ما فى الأمر أنه تصادف أن تكون متواجدا فى المكان الخطأ فى الوقت الخطأ. أعتقد أنه من الأفضل لنا جميعًا أن نتذكر الحكمة القديمة: "إنما تحملنا أقدامنا إلى حيث يشاء الله".

لذلك أنصت إلى صديقى الجديد وأنا متعاطف معه بشدة، فقد مررت فى حياتى بمثل ما يمر به هو الآن تقريبا.

"إننى أملك منزلا كبيرا يقع أعلى التل". قالها وهو يلوح بقوة شديدة لدرجة أن يده اصطدمت بامرأة عابرة، فقفز الرجل متقهقرا إلى الخلف.

قال لها، وهو فى شدة الضيق لأن يده اصطدمت بها: "آسف جدا". كان بمقدورى أن أشعر بأن وراء هذا التوتر كان يقبع رجل طيب، إلا أنه فى ذلك الوقت كان قد بلغ مرحلة فقد معها القدرة على السيطرة على نفسه، فقد كانت حياته فوضوية، وكان شعره أشعث، وبدا عليه أنه غير قادر على التحكم فى أطرافه.

قال مستأنفا حديثه: "إننى على وشك فقدان منزلى".

فخرجت من الطابور، وأخذته إلى ركن هادئ قريب من قسم الإنتاج.

قال الرجل: "ماذا سأفعل؟"، ولم يكن يبدو حينئذ أنه يسألنى بقدر ما كان يسأل نفسه بتلك التمتمة المتألمة التى بدت من وراء أنفاسه.

ثم استرسل قائلا: "إن أبنائى يحبون هذا المنزل، فهو المنزل الوحيد الذى عرفوه. إذا خسرت منزلى وغادرنا هذا المكان...". كان يرى المستقبل مرعبا بالنسبة له.

ثم قال بصوت مرتفع جدا: " لقد انتهى كل شىء بالنسبة لى"؛ ثم قال بنبرة أكثر حزنا وهدوءا: "وكذلك بالنسبة لهم". كنت أستمع إليه بانتباه، محاولا استرجاع نفس ذلك الإحساس الذى أعرف أننى شعرت به منذ سنوات طويلة مضت؛ لقد مرت أكثر من عشر سنوات على فقدانى لوظيفتى.

استرسل الرجل قائلا: "إن ابنى جورج يبلغ من العمر ١١ عاما، وتبلغ ابنتى "أليس" خمس سنوات فقط. لن يسامحانى على ذلك أبدا".

فقلت له: "لقد قمت بإهداء كتابى لأبنائى لعقولهم المتفهمة".

كان يحملق فى الفراغ، وكان واضحا أنه لا ينصت لى.

ففى تلك اللحظة، لم يكن مهتما بما فعلته أو ما لم أفعله.

ثـم قال وهو يستعد للانصراف: "إننـى أفكر فى إنهاء الأمر برمته". هنالك أدار ظهره لينصرف.

فقلـت له فـى إلحاح: "اسمـع، لا أعتقد أن أطفالك سـوف يلقون بالا لكونـك مفلسـا، ولكنهـم بالتأكيـد يريـدون أن يكـون والدهـم متواجدا معهم".

ولكنه حينئذ كان يتجه إلى باب الخروج، فصحت طالبا منه التراجع، قائلا: "ألا تظن أن أبناءك سيفتقدونك؟".

لم أكن لأدعه يذهب وهو فى هذه الحال.

تذكـرت فى هـذا الموقف أننـى - فى موقف رهيب فيمـا مضى - لم أستطـع أن أفعل شيئا لأوقف رجـلاً كان أيضا يرتجف من القلق وكان من الواضح أنه على حافة النهاية.

فقـد كنت أعمـل لوقت متأخر فى إعداد عرضـ تقديمى كبير لشركة فـورد. كنت وقتها فى أوائل الثلاثينـات وكنت مرشحا لتوى لمنصب مدير التصميم. كنت أعرف أننى سوف أخضع للاختبار. لذا كنت أرغب فى أن أكـون مستعدا. وفى ذلـك الوقت كانت "فورد" ترغب فى القيام بما كانوا يطلقون عليه: "إغراق السوق بالسيارات".

وكنـت أعمـل باجتهاد لضمـان الانتهاء من كل الإعلانـات فى الوقت الذى دلف فيه "بوب نورث" إلى مكتبى.

وكنت أعرف أن "بوب" يعانى من مشكلة.

كان بـوب وكيل حسابات؛ وكان ذكيا جدا إلا أنه خجول، فقد كان يجد صعوبـة فى التعبـير عن رأيه. وكانـت "فورد" تحب الرجـال المتفاخرين

الأشـداء، وقد رأيـت بنفسى ممثل شركـة فورد يهينه فـى الاجتماعات. ولكننـى - أنـا أيضا - كنت أرى أن "بوب" كبـير جدا على الوظيفة التى يعمـل فيهـا، فقد كان فـى الأربعين من عمره، كمـا أن الشيب كان قد بدأ يغـزو شعره الأشقر. كنت أعتقد أن "بوب" ينبغى أن يكون مدير حسابات - ويكـون لقبه الوظيفـى نائب رئيس لشئـون إدارة الحسابات على الأقل - وليسـ موظفًـا تنفيذيًـا بسيطًا، أو واحـدًا من هـؤلاء الكثيرين الذين يتزاحمون للعيش على صفقات فورد الضخمة.

لقـد فوجئـت برؤيته فى وقـت متأخر مـن الليل فى الشركـة، ونظرا لأن الأشخاصـ العباقـرة لا ينفقـون الكثـير مـن الوقت فـى الحديث مع التنفيذيين، فلم أرحب بهذا التطفل. لقد كنت مشغولا جدا بإعداد عرض تقديمى جيد، مما كان يصيبنى بالقلق الشديد، لذا لم أكن أرغب فى أية مقاطعات، وخاصة من موظف تنفيذى.

قال "بوب": "مايك، هلا استأذنتك فى دقيقة من وقتك؟".

نظـرت إلى أعلى وأنـا أشعر بالإرهـاق والإجهـاد الشديدين، فرأيت أمامـى شخصًا هيئته تفيضـ بالقلق، لقد شعـرت وكأن قلقه هذا مرض لم أكـن أرغب فى التقاطه، فقد يكون خوفه وضعفه مرضين معديين - أو على الأقل تشتيتًا كبيرًا لى - وكان لا يزال أمامى الكثير من العمل.

فقلت له: "فى الواقع، لا، ليس لدىَّ وقت"، وهو رد أعتبره اليوم فظاظة شنيعة؛ ثم استطردت قائلا: "ولكن، ماذا لديك؟".

اتخـذ "بوب" خطـوة مترددة أو خطوتـين تجاه مكتبـى. كان يبدو أن همـوم العالم كلها قـد اجتمعت على كاهليه فتقوسا. لقـد كان طوله ست أقـدام وبوصتـين، فشركـة فورد كانت تحـب الموظفـين التنفيذيين طوال القامـة. ولكن "بوب" كان نحيفا جدا. والآن هو محنى الظهر، تكاد كتفاه تسقطان على صدره النحيف.

قال "بوب" بصوت خافت ومرتعش: "إنني فقط أرغب في أن أطرح عليك بضع أفكار".

فسألته قائلا: "بأى شأن؟".

فقال: "إن لدىَّ فكرة بشأن إستراتيجية جديدة لسيارات الموستنج".

فقلت بقوة، وقد تصاعد غضبى واتخذت موقفا دفاعيا، وتأهبت للتصدى بقوة لأى تطفل من قبل موظفين تنفيذيين من هذا القبيل، قلت: "بوب، ليس لدىَّ وقت لهذا!".

لقد صممت حملة كاملة استنادا إلى إستراتيجية قدمها لى "بوب" وفريق الإدارة قبل أسابيع، وقد صممت مع فريقى الكثير من الإعلانات لهذه الإستراتيجية، ولم أكن أرغب فى تغيير أى شىء قبل أيام من العرض التقديمى الرئيسى.

قال "بوب" ويداه ترتعشان وهو يحاول الإمساك بمجموعة من أوراق الإستراتيجيات بإحكام: "حسنا، لقد اعتقدت فقط أننا يمكن أن نفكر معًا ونصل إلى شىء مختلف".

لقد أدركت وأنا أعود بذاكرتى إلى تلكم الليلة الحزينة أن "بوب" كان فقط يحاول العثور على إنسان آخر يتحدث معه. لقد كان بحاجة إلى استراحة من توتره وقلقه. لقد أدركت الآن أنه كان يستخدم هذه الإستراتيجية الجديدة كمبرر لمحاولة قضاء بعض الوقت معى لأنه كان يعتقد أننى قد أكون متعاطفا معه – ليس فقط لأنه كان موظفا تنفيذيا ولكن لأنه كان إنسانًا يعانى.

لقد كان "بوب" مخطئًا فى فكرته عنى تلك الليلة.

فلم يكن فى قلبى مكان للتعاطف تلك الليلة.

أنا أعرف أن "بوب" لم يكن محظوظا إلى حد كبير فى شركة فورد؛ ومتيقن تماما أن باقى أعضاء فريقه قد نبذوا أفكاره وحين أصابه الإحباط التام أتى لى باعتبارى شابًا متفتحًا ومبدعًا.

إلا أن طلبه بشأن "التفكير" فى تلك الليلة كان آخر شىء كنت أود القيام به.

فقلت له وأنا لا أبذل جهدا فى محاولة إخفاء سخطى: "هل هناك شىء مختلف؟ إن لدينا عرضًا تقديميًّا يوم الاثنين، ونحن فى ليلة يوم الخميس، هل أنت مجنون؟!". وبعد ذلك، عدت إلى مكتبى آملا أن يغادر "بوب" غرفة مكتبى.

قال "بوب" وهو لا يزال راغبا فى التحدث: "أنا أعرف؛ ولكن كل ما فى الأمر أننى أفكر فى أننا نستطيع أن نقدم سيارة الموستنج كسيارة اقتصادية بدلا من كونها مجرد سيارة رياضية".

فصرخت فيه من هول مفاجأتى من مجرد تفكيره فى مثل هذا الانحراف المهول عما خططنا له، فقلت له بالحرف: "بوب، أنت مجنون. الموستنج مرحة، بينما السيارات الاقتصادية مملة".

فيئس منى "بوب" وتراجع إلى الردهة.

ونظرا لكونى مجهدا، امتعضت من تطفله علىَّ بدلا من أن أنظر إليه على أنه بشر كان يشعر - لأى سبب كان - بالألم.

وفى ذلك السبت كنت أعمل فى مكتبى مع فريق الإبداع (وكنت فى تلك الأيام أعمل فى معظم عطلات الأسبوع) عندما حضر المدير إلى طابق إدارة الإبداع، ولم يكن ذلك معتادًا، حيث إنه كان يفضل أن يبقى فى مكتبه وأن يرسل لنا لنحضر إليه.

قال المدير: "مايك، اجمع فريقك، فسوف نلتقى معا فى حجرة المؤتمرات الخاصة بإدارة التصميمات المبتكرة".

فاعتقد لوهلة أنه سيكون هناك تغيير فى موعد العرض التقديمى الخاص بشركة فورد.

فقلت له، وأنا لا أزال قلقا إلى درجة أننى لم أستطع العودة إلى العمل مرة أخرى: "ماذا هناك؟". وكان باقى أفراد الفريق واقفين، ولم يكن أى منهم راغبا فى الجلوس بينما لا يزال أمامنا كل تلك النماذج التى علينا تصميمها والإعلانات التى علينا إعدادها قبل يوم الاثنين.

فقال المدير: "إننى فقط أرغب فى أن أخبركم لأنكم جميعا عملتم مع ذلك الشخص الذى سأتحدث عنه: لقد انتحر بوب نورث الليلة الماضية".

فتمتمت بحماقة: "ماذا؟".

وكان علىَّ حينها أن أجلس.

فتساءل أحدهم قائلا: "لماذا؟".

فقال المدير: "إن زوجته تقول: إن حالته النفسية لم تكن بخير لشهور".

فقلت: "حالته النفسية؟".

فقال المدير فى هدوء: "لقد قالت زوجته: إنه كان متوترًا. إنها قصة مأساوية حقا".

ثم استطرد مديرى وقد اشتدت نبرته قائلا: "ولكننى فقط لا أعرف ما الذى تعنيه زوجته بكلمة متوتر".

ثم نظر حوله فى أرجاء الغرفة.

ثم قال وقد بدا غضبه: "إننا جميعا مضغوطون ومتوترون، ولكننا لن ننتحر وقبل أيام من أحد أهم العروض التقديمية": ثم أنهى كلامه قائلا: "سوف نعرف المزيد لاحقًا. والآن لنعد إلى العمل!"

وهذا بالضبط ما حدث. ولم أزعج نفسى أبدا فى محاولة اكتشاف المزيد مما حدث لـ"بوب".

والآن، وأنـا أنظـر إلى تلك الأحداث، يمكننـي أن أرى أننى لم أكن إلا شخصًـا آخر ممن لم يقدموا لـ"بوب" مـا كان يريد من أجل العدول عن الانتحار. لقد كنت عرضة لضغوط كبيرة ولم أكن قادرا على رؤية ما وراء ذاتى الأنانية كى أمد يد المساعدة لشخص كان يحتاج إلى المساعدة.

وتذكرت في تلك اللحظة شخصًا استمع لى حينما كنت فى حاجة إلى من يستمع إلىَّ.

لقد كان "كيفن باكلى" صديقا لى منذ تلك الأيام الرائعة التى قضيتها فى جامعة ييل، وأتذكر حينما كنت أفتح زجاجة شراب ضخمة وأنا متلهف للشرب منها أن حدث وسقطت الزجاجة الضخمة على قدم "كيفن".

وكان "كيفن" يقطن بنفس مبنى سكن الطلاب الذى كنت أقطن فيه. وقد مـررت على حجرته متأخرا فى اليوم التالى لذلك الحادث فقد كنت أستيقظ متأخرا فى ييل- ورأيت قدمه مضمدة ومرفوعة فوق فراشه.

فقلت له: "كيفن؟".

فقال: "نعم، جيتس".

فقلت: "هل أنا من تسبب فى ذلك؟".

فقال: "نعم، لقد كسرت إصبع قدمى".

فدلفت إلى الحجرة. وقلت: "أنا آسف".

فقال: "لا عليك. إن مكوثى هنا سيضطرنى إلى الانتهاء من عملى".

لقد أنجز "كيفن" عمله. وعلى عكسى تماما، فقد عمل جاهدا للنجاح فـى ييل؛ وعلى عكسى تماما، لم يكن غنيا؛ وعلى عكسى تماما، لم يتعامل مع ييل على أنها فرصة لعيش حياة صاخبة.

وبالإضافة إلى عمله الأكاديمى، اجتهد "كيفن" أيضا وأصبح مراسلا ثم مدير تحرير فى وقت لاحق فى صحيفة ييل ديلى نيوز، والتى كانت أحد أكثر الوظائف صعوبة وإرهاقًا فى الحرم الجامعى.

وبعد الجامعة اتجه "كيفن" على الفور إلى أعلى المناصب فى مهنته، فقد أصبح مسئول مكتب النيوزويك فى فيتنام خلال فترة عصر نجوم المراسلين مثل "ديفيد هالبرستام".

وبعد ذلك، عمل أيضا فى لندن ونيويورك كمراسل ومحرر، وقد منح زمالة نيمان فى هارفارد، وهى أعظم تكريم فى مجال الصحافة.

وقد ظللنا أنا و"كيفن" أصدقاء حتى بعد أن أنهينا سنوات الدراسة فى الجامعة. وعندما كنت أمر بذلك الوقت العصيب من حياتى، تصادف أن اتصل بى "كيفن" فقط ليسألنى عن حالى، واتفقنا حينها على تناول الغداء معا.

وأخبرنى "كيفن" أنه يكتب ويدرِّس فى جامعة كولومبيا.

وكنت محرجا حينها من أن أخبر "كيفن" عن مدى الانحدار الذى وصلت إليه حالى بعد فترة الشباب الذهبية التى عشتها أيام الجامعة. ولكن نظرا لاهتمامه الذى شعرت به، قررت أن أثق فيه وأن أخبره بالحقيقة، وهى أننى قد أفلست تماما، وأجاهد من أجل العثور على وظيفة، وأننى تورطت فى خيانة زوجية ثم طلاق واكتشفت مؤخرا أننى أعانى من ورم فى المخ.

لقد كان "كيفن" يعرفنى حينما كنت طالبًا جامعيًّا ثريًّا ومسرفًا، أنعم الله عليه بحياة سعيدة بدت كأنها ستستمر للأبد.

بينما كنت أسرد عليه معاناتى، فاض وجهه بالتعاطف.

لقد استمع لى لساعات بينما كنت أخبره بحقيقة كل ما مررت به.

وبعد الغداء، عانقنى "كيفن" ووعدنى بالاستمرار فى التواصل معى ومحاولة مساعدتى، وإننى أعرف أنه صادق فيما قال.

فى بعض الأحيان يمكنك أن تشعر بأن الشخص الذى أمامك يهتم بك بحق من مجرد استماعه لك، وأنا كنت أعرف أن "كيفن" كان مهتما

بى بحق. فقد ظل مخلصا لصداقتنا التى ولدت فى تلك المرحلة الطائشة منذ سنوات طويلة.

لقد أدركت حقيقة مهمة، ألا وهى أنه على الرغم من كل ما حدث وغير حياتى، فإن "كيفن" ظل صديقى. ومجرد الحصول على فرصة لإخباره - أو إخبار أى شخص - بحقيقة ما كنت أمر به كان بمثابة نجدة بالنسبة لى.

لقد حاولت أن أخبر صديقًا قديمًا آخر من بيل بحالتى البائسة وشعورى بالفشل؛ فتناولنا مشروبين فى النادى الخاص به؛ ثم تركنى على الرصيف ملوحا لى بيده فى سرعة. وانتابنى حينها شعور قوى بأنه لا يرغب فى سماع أى شىء عنى مرة أخرى.

بالنسبة لذلك "الصديق" القديم كان الأمر يبدو وكأن فشلى على المستوى المالى والشخصى من الممكن أن يكون معديا، أو كأنه نوع من المرض الاجتماعى.

وفى الواقع، كان هذا هو الشعور الذى شعرت به، لذا لم ألمه. فاحتفظت بسر فشلى لنفسى وأخبرت نفسى أن أفضل شىء هو أن أظهر للدنيا كلها وجهًا شجاعًا حتى أمام أصدقائى القدامى.

ولكن "كيفن" كان مختلفا، حيث إنه لم يختف بعد أن فتحت له قلبى وأخبرته بمعاناتى.

لقد ساعدنى "كيفن" من خلال البحث لى عن وظيفة فى مجال الدعاية والإعلان. لقد قام باتصالات مع أشخاص يعرفهم فى مجال النشر لمحاولة تقديمى لهم، ولكن جهوده باءت بالفشل. ومرة أخرى، أعتقد أننى لم أكن الشخص الذى يرغب أحد فى تعيينه لتصميم حملة إعلانات العلكة الفقاعية الجديدة.

ولكن "كيفن" حاول، ومجـرد جهده هذا جعلنى أشعر بالامتنان. لقد كان يتصـل بـى على الأقل مرة فـى الأسبوع ليسأل عنـى، وكان يكتب لى رسائل بريد إلكترونى يختمها بعبارة "مع خالص حبى".

لقـد أظهـر "كيفن" بالقول والفعـل أنه لن يتخلى عنـى على الرغم من التغير الكبير فى ظروفى. لقد استمع لى، ومجرد سماعه لى بصبر وتعاطف شديدين، ساعدنى على اجتياز فترة كنت قد فقدت فيها ثقتى.

لقد أقسمت فى تلك اللحظة فى محل البقالة أننى سأكون مثل "كيفن" ولـن أدع شخصًـا آخر - يرتعـد أيضا من القلق وهو فـى حاجة واضحة لشخص يستمع إلى مشاكله - ينصرف دون أن أمد له يد العون.

ولم أكـن أنـوى أن أكون مشغولا جدا - أو مهذبـا جدا - فلا أساعد ذلـك الشخص فى محل البقالة، فصحت فيـه مرة أخرى ليتذكر أبناءه. فصرخت فيه لدى انسحابه قائلا: "ألن يفتقدك أبناؤك؟".

فتوقف.

كان بإمكانـى أن أرى أنه يفكر مـرة أخرى فى هذه الفكرة ربما للمرة الأولى، واستدار ليواجهنى.

وقال: "نعم، أعتقد أن أبنائى سوف يفتقدوننى، فهم يشعرون بالضيق حينما أتغيب عنهم يومين فى رحلة عمل".

فقلـت لـه: "إن أحد الأخطاء التـى ارتكبتها هـى أننـى لم أتحدث إلى أبنائى عندما أفسدت حياتى".

فقـال: "قـل لى، ما الذى يمكننـى أن أخبرهم به؟ هل أقـول لهم: إن والدهم قد دمر حياته وأن عليهم ترك البيت الذى نشأوا فيه؟".

فقلت له موضحا: "إن ما اكتشفته هو أن أبنائى كانوا أكثر حكمة فيما يتعلـق بأمور الحياة منى. كما أنهم قدروا مصارحتى لهم بما فعلت. كيف هى علاقتك بزوجتك؟".

فقـال: "إن زوجتـى رائعة. إنها تقول لى: إن كل شىء سيصبح على ما يرام وإنها تحبنى وكل هذا الهراء".

قلت متعجبًا "هراء؟".

فقال: "إن "دوريس" غير مدركة للأمر. لقد أخبرتها بأننا قد أفلسنا وأن علينا ترك المنزل والبدء من جديد من الصفر"، وهنا رمقنى بنظرة سريعة واستطرد قائلا: "ولكنها قالت لى: إنها تحبنى، وإننا سنجتاز هذا الأمر. إنها ليست واقعية على الإطلاق".

فقلـت لـه وأنا مدرك أننى قد قلـت أكثر من الـلازم: "انظر، قبل أن تقوم بأى شىء خطير جدا، عد أولا إلى المنزل وتحدث مع أبنائك".

فقال: "ولكنهم مجرد أطفال".

فقلت: "وهذه هى النقطة المهمة".

"حسنـا" لقد ألقـى إلىّ بهذه الكلمـة تقريبا وهو ينظـر لى من خلف ظهره. لم يكن رجلا سعيدا وهو يغادر محل البقالة فى ذلك اليوم.

وبعـد عـدة أيام من لقائنا فى محـل البقالة، دلـف الرجل إلى مقهى ستاربكـس حيث أعمل فـى إعداد القهوة للسنـوات الخمس الأخيرة، ولم يطلب الرجل مشروبًا؛ فقد كان آتيا للقائى.

وكنت أنا وقتها مشغولا فى إخراج القمامة، فاستوقفنى عندما خرجت مـن المقهى، ولم أستطع التعرف عليه تقريبا، فقد كان ذقنه حليقًا وشعره مصففا.

قال لى وهو يعانقنى بلطف على الرغم من أننى كنت أحمل حقيبة مليئة بطحين البن الرطب: "شكرا!". اندهشت قليلا وهو يطوقنى بذراعه.

وقال: "متأسف! لقد أردت فقط أن أمر بك وأراك قبل أن أرحل. إننى مضطـر إلى الذهاب إلى برونكسفيل. لم يعد بإمكانى تسديد مبلغ الرهن العقارى الخاص بمنزلى، ولكننى لن أترك الحياة أو أترك أسرتى!".

فقلت له: "حسنا".

قال: "لقد كان رد فعل أبنائى رائعا، كما توقعت أنت بالضبط. إنهم يعتبرون الأمر برمته - الانتقال وكل شىء - مغامرة رائعة".

وهز رأسه مبتسما.

إن كل من قرأ كتابى يأتى إلىّ ليرانى ويستمتع بقدح القهوة باللبن، ويحكى لى قصته، ولقد استمعت أيضا لكثيرين من خلال البريد والبريد الإلكترونى والهاتف.

لقد اندهشت من مدى تأثير قصة حياتى على الكثير من الأشخاص من جميع أنحاء العالم.

لقد أخبرنى الكثير من الأشخاص أنهم تحفزوا بسبب قصتى وكيف أننى أثبت بطلان ما يسمى بالحلم الأمريكى، فلقد انحدرت من قمة الثراء إلى قاع الفقر "على نحو مفجع" فقط لأكتشف أننى أكثر سعادة من أى وقت مضى من حياتى، مما فاجأنى بشدة.

لقد ساعدت قصتى هؤلاء الأشخاص على أن يعثروا على حياة يحبون أن يحيوها.

وفى اليوم التالى، أتتنى امرأة تبلغ الثامنة والعشرين من العمر فى المقهى، وبادرتنى قائلة: "لقد حفزنى كتابك بشدة إلى درجة أننى استقلت من وظيفة مملة بشكل قاتل، وبت الآن أقوم بشىء أحبه".

وقد أوضحت لى أنها حازت على وظيفة فى بنك استثمارى، وذلك عقب تخرجها مباشرة. وكانت تلك الوظيفة تدر عليها مالا وفيرا، إلا أنها لا تتيح فرصة للتطور. ولقد وجدت أنها أكثر سعادة ورضاء فى عملها فى مؤسسة غير ربحية متخصصة فى تعليم أطفال المدينة.

إننى أشعر بالامتنان والفخر لأن قصة حياتى - المليئة بالصراعات المؤلمة - قد حفزت أشخاصًا آخرين مثل هذه المرأة لإنقاذ حياتهم.

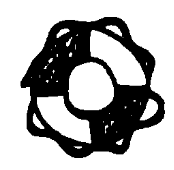
إن بإمكانك معرفة الكثير عن نفسك من خلال الاستماع إلى صراعات شخص آخر. وفى أغلب الأحيان، تجعلك الأخطاء التى وقع فيها شخص آخر والدروس التى تعلَّمها نتيجة لذلك تتجنب الوقوع فى نفس الأخطاء، كما تجعلك تستوعب دروس الحياة النقدية المستفادة وتستخدمها لتدلك على السبيل لتحيا حياة أفضل.

عندما كنت مديرا تنفيذيا متغطرسا صغيرا فى السن - معتقدا أننى مضاد للمشكلات - لم يكن بمقدورى أن أستمع إلى مشكلات الآخرين بجدية على الإطلاق. وظللت على ذلك الحال إلى أن وقعت فى مشكلة أكبر مما كان بإمكانى تخيله. وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف مدى أهمية الاستماع إلى الآخرين. خذ وقتك فى الاستماع إلى مشكلات الآخرين وإدراك ما مروا به.

مثلما استمعت إلى رفيقى فى محل البقالة، استمع ذلك الرفيق إلى مشكلاتى من خلال قراءة كتابى واستطاع أن يطلب منى المساعدة.

وتلك المرأة التى تصغرنى بسنوات عديدة، قرأت كتابى واستوعبت الدروس المستفادة من قصة أخطائى. لقد كانت على استعداد لإدراك تجارب شخص آخر، وأتاحت لتلك التجارب توجيه آرائها الخاصة. لقد ساعدتها على تغيير حياتها الشخصية دون أن تدرك هى ذلك.

وبهذه الطريقة تعلمت هذه المرأة الشابة درسا من دروس الحياة لم أتعلمه أنا إلا فى العقد السادس من عمرى.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

فى الولايات المتحدة الأمريكية، كثيرا ما تجيب تلقائيًا عن سؤال: "كيف حالك؟" بـ"بخير!".

ولكن هذه ليست الحقيقة دائما، خاصة فى هذه الأوقات المليئة بالتحديات.

يمكنك أن تتعلم أن تكون أكثر انفتاحا واستعدادا لتتحدث إلى شخص آخر حينما تشعر بالألم، فذلك الشخص الآخر سوف يشارك تجربة يمكنها أن تساعدك على اجتياز حتى أصعب المآسى.

حين تتحدث عن مأساتك مع شخص آخر، فإنها تصبح أقل إيلاما وتصير سبيلا للشعور بعاطفة جديدة أكثر عمقا والتى يمكن أن تؤدى بدورها إلى طريقة أفضل للعيش.

من خلال مشاركة مشكلاتك مع أشخاص آخرين واجهوا صعوبات حقيقية ونجوا منها، سوف تكون قادرا على التقدم بطريقة أكثر إيجابية. ومن خلال استغراق الوقت – ببساطة – فى الاستماع إلى مشكلات الآخرين، فسوف تخفف من هموم شخص آخر.

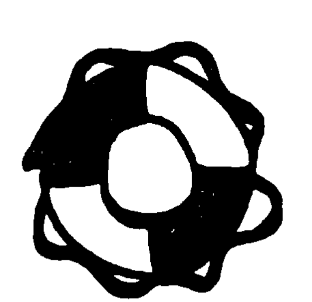


الدرس ٢

استمع... إلى صوت قلبك
لتجد السعادة الحقيقية

"الآن، سأنهض وأذهب، أذهب إلى إنيسفرى،...
وسأنعم ببعض السكينة هناك،... ودائما
ليلا ونهارا سأسمع صوت البحيرة مختلطا بالأصوات الخافتة
التى تأتى من الشاطئ: وبينما أقف على الطريق الأسفلتى، أو على الرصيف الرمادى، أسمع هذه الأصوات صادرة من أعمق أعماق قلبى."

– *"وليام باتلر بيتس"* ، من قصيدة *The lake Isle of Innesfree*.



كنت قد تجاوزت الستين من عمرى قبل أن أعرف معنى أن أجد السكينة داخل قلبى. فى وقت متأخر من إحدى الليالى، بعد أن أغلقت مقهى ستاربكس الذى أعمل فيه والذى يقع فى الجانب الغربى العلوى من مانهاتن، سرت عبر السكون النادر للمدينة النائمة.

نظرت إلى السماء المليئة بالنجوم والتى بدا أنها تلمع ببريق خاص. وكانت هذه الليلة ليلة شتاء باردة، فتوقفت تماما على نحو مفاجئ قبل أن أهرول للحاق بمترو الأنفاق، ولمست قلبى. وفى هذه اللحظة فقط اكتشفت مدى السعادة التى أشعر بها.

ونظرا لاحتمال عدم لحاقى بالقطار العائد إلى برونكسفيل، كان علىَّ أن أتحرك. لقد كنت مندهشا بشدة. هل من الممكن فعلا أن أكون سعيدا

جـدا، بعدما انتهيت لتوى من تنظيف الأرضيـة بعد يوم عمل فى "وظيفة متواضعة" المستوى حيث أقوم بإعداد القهوة للآخرين؟

لقـد كنت أظن أننى من الممكن أن أكـون سعيدا فقط إذا كنت جالسا على مكتب فخم ويقوم الآخرون على خدمتى.

لقـد كنـت - ذات يوم - أحيا حياة كان مـن الطبيعى فيها أن أقضى إجـازات خياليـة وأمتلك منزلا صيفيـا وأسطول سيارات صغـيرًا خاصًا بعائلتى.

كيف يمكن لهذه الحياة الجديدة، الحياة التى أقوم فيها بأعمال يدوية، حيث أقدم القهوة للآخرين، أن تجعلنى أشعر بأى شىء إلا الإحباط؟

عدت مرة أخرى إلى نفس المكان، ولمست قلبى مرة أخرى وأدركت هذا الأمـر؛ لقد كانت هذه الحقيقة مؤكـدة؛ إننى الآن أسعد حالا من أى وقت مضى. لقد نشأت فى وسط ثرى متباين: عائلة ثرية ذات علاقات متعددة وأصدقـاء ذوى نفوذ لهم آمال عظيمة. عـلاوة على ذلك، قمت بتصميم الكثـير من الإعلانـات الصاخبة لشركات كبيرة - بـدءا من فورد وحتى كوداك - مدعما اعتقادًا دائمًا فى مقاييس النجاح الظاهرية: السيارات الفارهـة والمنـازل الكبـيرة. لقد أسهمـت فى تعريف معنـى "البحث عن السعـادة" فى أمريكا على أنه سباق عدوانى للحصول على المزيد والمزيد مـن الأشياء الثمينـة رفيعة المستوى. لقد كنت أعتقـد أن هذه الحياة هى الحياة الصحيحة إلى أن تم فصلى من العمل.

وخلال رحلة طموحى وإنفاقى للثروة لم أتوقف يوما لأستمع إلى صوت قلبى.

كان فـى الشركة بنيويورك سجل حضور، فكنت أحب أن أكون أول من يسجـل اسمه قبل السابعة صباحا. وفـى بعض الأحيان، كان "لو فاليبو"، وهـو رجل كان يعمل فـى الإدارة الماليـة، يسبقنى، وهو الأمـر الذى كنت

أبغضه، وكنت أحب المغادرة بعد السابعة فى الليل، فكنت واحدًا من آخر من يغادرون الشركة من الموظفين الفنيين، وكنت أحب العمل فى عطلات الأسبوع، فحين لا يتصل العملاء، يمكنك إنجاز كم كبير من العمل. لقد كانت حياتى كلها فى مكتبى، وتركت كل شىء آخر وراء ظهرى، ولم أفكر أبدا فى الاستماع إلى قلبى لأرى ما إذا كان كل هذا الكفاح يشعرنى بالسعادة أم لا.

والآن أخبرنى قلبى أننى لم أكن فى حاجة إلى كل تلك الزخارف الدنيوية للنجاح.

فلم أكن فى حاجة إلى أن أحيا فى منزل مثل ذلك القصر ذى الخمس والعشرين حجرة الذى نشأت فيه.

لقد كنت أفكر فى ذلك، بينما يسرع بى القطار فى طريق العودة إلى شقتى الجديدة فى برونكسفيل، وفكرت فى كل من يحيون مثل هذه الحيوات المختلفة وسط العديد من الظروف المختلفة وأنا أرنو بناظرى خارج نافذة القطار.

فى حياتى السابقة، عندما كنت أستقل هذا القطار، كنت أدفن رأسى وسط صحيفة، وكنت أقرأ الأخبار اضطراريا، وكأن مواكبتى لآخر الأحداث كانت مسألة حياة أو موت، وكنت أشترى صحيفتين أو ثلاثًا كل صباح منها نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، وفى المساء، كنت أشترى صحيفة نيويورك بوست وربما مجلة إخبارية. لقد أصبحت – دون أن أدرك – مستهلكًا عاطفيا وعقليا فى الأخبار، رغم أن كل تلك الأمور لم تكن تعنينى، كما أننى لم أكن لأؤثر شيئًا على أى منها.

كانت أخبار الحروب والشائعات عن الحروب تضايقنى، ولكنها تتركنى عاجزا عن القيام بأى شىء حيالها. كان أول ما أقوم به فى الصباح هو أن أملأ رأسى بكل الأخبار السلبية من كل أنحاء العالم، وكانت نفس تلك

المعلومات المسمومة هى آخر ما يدخل إلى مخى فى نهاية اليوم، فكان رأسى يدور من القلق.

والآن، فى هذا المساء، وبدلا من التهام آخر الأخبار، تركت قلبى يتمدد ويتسع بينما يتحرك القطار مارا بكل تلكم الحيوات المختلفة التى يحياها أشخاص فى تلك المنازل المختلفة.

وكان المنزل الذى أتوجه إليه فى تلك الليلة هو أصغر منزل عشت فيه فى حياتى. فلقد نشأت فى منازل كبيرة. ولطالما كنت أعتقد أننى فى حاجة إلى تلك المساحة لأحيا سعيدا. ولكننى الآن، كنت عائدًا إلى المنزل، ووجهى تعلوه ابتسامة، فيا لها من راحة!

لقد ناضلت بكد طوال سنوات حياتى للحفاظ على تلك المنازل الكبيرة وشراء المزيد من الأشياء لملء تلك المنازل بها. وفى تلك الليلة شعرت بأننى متحرر من ذلك العبء.

وعبر الممر الذى يفصل بين مقاعد القطار رأيت رجلاً كنت أعرفه، ويدعى "جيرمى تومبكينز"، وكان يعمل محاميًا فى شركة كبيرة. لقد كنا ندرس فى جامعة ييل فى نفس الوقت تقريبا. لم نكن صديقين حميمين، ولكن كان كلانا يومئ للآخر تحية عبر الممرات فى الحرم الجامعى، وقد سمعت من الزملاء الآخرين أن "جيرمى" أصبح متخصصًا قانونيا فى إنقاذ الشركات الكبرى من دفع الضرائب. إذن، فقد استطاع هزيمة ذلك القول الشائع الذى يقول: إنه لا شىء مؤكد إلا الموت والضرائب. ومع ذلك، لم يكن باديا عليه أنه يستطيع هزيمة الموت حتى بعقليته القانونية العبقرية.

فكرت قليلا وأنا أشعر بالتعاطف وبعض القلق أنه كان يبدو عجوزا ومرهقا جدا فى تلك الليلة. لقد كانت كتفاه منحنيتين، وكانت هناك خصلات من الشعر الأبيض على حلته المخططة.

وكان وجهه شاحبا جدا لا لون له. وكان شعره – أو ما تبقى منه – أبيض. لقد كان "جيرمى" فى خريف حياته، ولعله كان قد تحصل فى ذلك اليوم على آلاف من الدولارات كأتعاب. ولكن، هل يلتفت إلى فصول حياته وهو يشعر بالبهجة؟

ورأيته يضبط نظارته على أنفه الرفيع بينما يطلع على صفحات صحيفة فاينانشيال تايمز الوردية المميزة.

وكنت أعرف أنه عائد إلى منزله الكبير. كان باستطاعتى أن أراه فى مخيلتى يسير خارج المحطة، فانخلع قلبى لحاله. كان بإمكانى أن أرى نفسى السابقة فى "جيرمى" تلك النفس التى كانت تأخذ كل ما أقدمه على أنه أمر مسلم به. لم أشعر تجاهه بالحسد، وخمنت أن "جيرمى" – على الأرجح – يعتقد أنه يشعر بالسعادة بشكل نسبى فى الحياة التى يعيشها، وأنا متيقن من أنه كان يريد أن يعتقد أنه قد حقق الكثير. وتذكرت أن والده كان محاميا فى شركة كبيرة أيضا، لذا فإن "جيرمى" كان يسير على نفس الدرب المعهود.

لقد مرت سنوات طويلة منذ أن رأيت "جيرمى"، إلا أننى أعرف أنه إذا ما كتب إلى مجلة *بيل ألومنى ماجازين*، فإنه لن يكتب عن منزله الكبير أو عن عمله الذى يدمنه، ولكنه سيتحدث عن حفيده الجديد، أو عن فرصة للقاء صديق قديم.

بعبارة أخرى، من المحتمل أن "جيرمى" قد عاش معظم سنوات حياته وفقا لما يمليه عليه عقله، ولكنه سيتحدث عن الأشياء المهمة بالنسبة له حقا من قلبه. وفى واقع الأمر، لقد أدركت فى وقت متأخر من حياتى أن القلب لا يهتم بالمبلغ الذى حصلت عليه مقابل عدد ساعات عملك أو بالمبلغ الذى دفعته مقابل منزلك.

كما أن القلب لا يدعك تكذب فيما يتعلق بالأمور التى تهمك فى هذه الحياة، فإذا كان "جيرمى" صادقا حين يحسب اللحظات السعيدة

فـى حياتـه. فإنـه سيتذكر الأوقـات الخاصة التـى كان يتحـدث فيها إلى الأشخاص الذيـن يحبهم. ولا يهـم إذا مـا كان ذلك فى جلسـة بمعسكر وسط الغابة، أو فى لقـاء عابر بمدينة نيويورك. ستظـل لحظات السعادة المشتركـة تلك عالقة فى ذاكرته لفترة أطول مـن كل نجاحاته المادية التى حققها.

إننى على علم بذلك.

حيث إن هذا ما حدث لى.

فعندمـا نسيت اهتمامى الشديد بالنجاح اكتشفت حياة جديدة تماما باتباع ما يمليه علىَّ قلبى.

لا يمكـن أن تغفـل عـن الأشياء التـى تهمك فى الحيـاة إذا كنت على اتصال بقلبك.

لقـد كنـت أعرف أن "جيرمـى" ليس بالشخص الشريـر أو السيئ، ولكننـى تلك الليلـة اعتقدت أن حياتـه مليئة بالكثير مـن العمل - مثلما كانت حياتى يومًا ما - وهى أعمال لن يتذكرها هو أو أى شخص آخر.

إن كل حضـارة تحتـاج إلى أشخاص مثـل "جيرمـى"، محامـين ومصرفيـين ومتخصصين فى الدعاية والإعلان، كمـا كنت أنا؛ ولكن أن تعيش حياتـك عازلا عقلك عن قلبـك تماما لن يكون جيـدا بالنسبة لأى شخص على الإطلاق.

وفجـأة تذكرت عـام ١٩٩٠ وكلمات رجل دين فى دار العبادة. لم يكن مـن السهل تقبل خطب "جوزيـف ستريت" حيث كان يحلـل كل كلمة فى الكتـب السماوية بأسلوب عقلانى جدا إلى درجة تسلـب معها بعضًا من سحرها وكذلك الكثير من المشاعر المرتبطة بها. كان الأمر يشبه محاولة تثبيت الفراشات حتى لا تطير.

لقد تحدث إلىّ عن الأشخاص المحتضرين.

قال لى "جوزيف": "لقد كان الأمر صادما بالنسبة لى فى البداية. فهؤلاء العجائز الذين بنوا ثروات ضخمة فى وول ستريت، واستهلكوا مشاعرهم وطاقتهم فى الكفاح من أجل الدولارات، فى النهاية يرغبون فى التحدث إلى شخص يحبونه؛ ربما زوجاتهم. لقد كانت آخر كلمات نطقها أحد الرجال حول فتاة رآها مرة فى الأوبرا ولكنه لم يستطع أن ينساها. بينما تحدث آخرون عن أبنائهم وأحفادهم. إن جميعهم يتحدثون عن الأشخاص الذين يبادلونهم الحب. لم أسمع أحدهم يذكر كلمة واحدة عن عمله".

فسألته قائلا: "ولم؟".

لقد كان "جوزيف" مفكرا وعالما بحق أكثر منه رجل دين. وكما هى حال كل من هم من هذا النوع، فقد فكر طويلا فى هذا السؤال قبل أن يقول:

"أعتقد أنه عندما يدنو هؤلاء من نهاياتهم فإنهم يرون بوضوح – ربما للمرة الأولى – أكثر ما يهم فى هذه الحياة".

فسألته قائلا: "وما أكثر ما يهم فى الحياة؟"، حيث أردت أن أسمع منه ذلك مرة أخرى.

"إنه الحب". هكذا قالها على الرغم من شعوره بالحرج من الكلمة.

فى الوقت الذى كنت أتحدث فيه مع "جوزيف"، كنت أشعر بالحرج من أن أتحدث عن الحب أو عن الاستماع إلى القلب باعتباره المرشد الأكثر تأكيدا للعثور على السعادة. لم أسمع كلماته – جديا – ولم أصدق فى ذلك الوقت أنها تنطبق علىَّ.

واليوم أصبحت أدرك تماما السبب الذى من أجله قال أحد الصالحين، حينما سئل عن أكثر الوصايا أهمية: "أحب جارك كما تحب نفسك، وأحب ربك بكل قلبك وروحك".

والآن أحاول أن أحب جارى بقدر استطاعتى. فبشكل بسيط أقوم بذلك فى كل مرة أقوم فيها بتقديم القهوة إلى شخص ما أو أبتسم فيها فى وجه شخص فى الشارع.

لقد وجدت أن الحب ليس موردا طبيعيا محدودا مثل الغاز والبترول. ولكن، فى الواقع، كلما فتحت قلبك أكثر، بدا أن قلبك ممتلئ بالحب بقدر أكبر.

أنا أحب ربى جدا وأحمده باستمرار على كل الهبات التى أنعم علىّ بها.

وكل صباح، أبدأ يومى بترديد هذه الحكمة القديمة: "هذا اليوم نعمة من الله، ولهذا فهو يستحق أن تسعد فيه *وأن تبتهج*".

بالنسبة لى، فإن هذا الأمر يمثل دليلا آخر على أننا خلقنا من أجل إيجاد حياة يمكننا أن نحبها وأن نستشعر السرور الحقيقى ونحن نحياها.

لم يعد الحب يعنى بالنسبة لى مجرد "الوقوع فى الحب".

ولكن دعونى أسرع وأوضح أننى لا أحقر بأى شكل من الأشكال مسألة الوقوع فى الحب.

فلولا وقوع أبى وأمى فى حب بعضهما البعض لما جئت أنا إلى هذه الدنيا.

حين رأى أبى أمى لأول مرة بينما كان يزور زميله فى الريف، قال: "سوف أتزوج هذه المرأة".

لقد كان ذلك حبًّا من النظرة الأولى، ولم أكن لأولد لولا اتباع أبى لقلبه بهذه الثقة. فى الواقع، كان جداى يحبان بعضهما البعض أيضا. فقد وقعت جدتى فى حب جدى عندما أمسك بلجام حصانها الذى انطلق مسرعًا بعد أن أخافه القطار. وفى وقت لاحق قالت لى جدتى: "لقد أنقذ

فرانـك حياتى". وقال جـدى: "على العكس، إن مادلين هـى التى أنقذت حياتـى". لقد وقعا فى حب أحدهما الآخر من اللقاء الأول وأنجبا الطفل الـذى كان سببا فى مجيئى إلى هذه الدنيا. لـذا فأنا ممتن جدا لأن هذه الأمور حدثت فى حياتى.

لكننـى أشعـر بالضيق من أنه فيمـا يبدو أن كل أغنيـة وفيلم يتحدث عـن "الوقوع فى الحب" ولكن ما من أغنية أو فيلم فى الواقع يتحدث عن الوقوع فى حب الحياة التى نحياها.

نعم، يمكنك أن تقع فى غرام الحياة التى تحياها.

ففى وقت متأخر جدا مـن حياتى وقعت فى غرام الحياة التى خلقتها لنفسـى الآن. أعتقـد أننا فـى بعض الأحيـان تخطر علـى عقولنا صورة ضبابيـة للحياة التى يمكننا أن نقع فى حبهـا فى سن مبكرة جدا. والمهم هنـا هـو أن نتناغم مع هذه الحيـاة، وأن نكون واعين بمـا يجعلنا - وفقا لأفئدتنا - سعداء بحق.

أذكر أننى عندما كنت فى العاشرة من عمرى وقعت فى حب الكلمات؛ حيث كان كل من القراءة والكتابة والتحدث بمثابة عشق بالنسبة لى.

وكان السيـد "فارلى"، مدرسى فـى السنة السادسـة، يشجعنى على قراءة قصصى بصوت مرتفـع، وكانت إحدى الشخصيات التى ابتكرتها شخصية أرنب كان دائما ما يقع فى المشكلات فى المدرسة.

وأتذكـر بوضـوح كم كان مرحـا أن أقف وأقـرأ أمام الفصـل وأسمع ضحكات زملائى فى الفصل ترتفع من حولى.

والآن، وأنـا فـى الثامنـة والستين من عمـرى، أجد أننـى أقوم بنفس الشىء، وأحب نفس نمط الحياة: الكتابة والتحدث وحتى الغناء.

يقول الشاعر "والاس ستيفنس": "كلمات العالم هى حياة العالم".

وقد ذكر فى كل الأديان السماوية أن بداية الدنيا كانت كلمة.

لقد وقعت فى حب حياة تتدفق منها الكلمات.

ولربما كان هذا هو السبب وراء بقائى طويلا فى العمل فى مجال الدعاية والإعلان، فقد كان ذلك نوعًا من استخدام الكلمات، ولكن يمكننى فى الواقع أن أقول: إننى لم أكن أحب ما أقوم به. فالتلاعب بالكلمات للتأثير كان مختلفا تماما عن استخدامها للتعليم أو حتى للإمتاع. لقد كنت أحب المال، ولكننى لم أكن أشعر بالحماس الشديد تجاه العمل الفعلى فى مجال التلاعب بالكلمات لدفع الأشخاص إلى شراء أشياء لم يكونوا – على الأرجح – فى حاجة إليها.

ولكننى أهدرت ٢٦ سنة فى القيام بشىء لم أكن أحبه بحق.

وأتمنى من أى شخص يقرأ هذا الكتاب أن يتوقف الآن لو وجد أنه يضيع عمره فى وظيفة لا يحبها بحق وأن يقول: "كفى!".

إذا لم تكن تحب ما تقوم به، فلا تهدر حياتك بالاستمرار فى القيام به!

كيف تعثر على حياة تحبها؟

اتبع قلبك.

فحين اتبعت قلبى، خلقت لنفسى حياة جديدة كاملة أحبها.

ولا أعنى بذلك أنه من السهل عليك أن تتبع قلبك.

عندما تكون صغيرا، يكون هناك الكثير من الأصوات، بدءا من الوالدين وحتى الأصدقاء ذوى النوايا الحسنة، التى تخبرك بأن ما تحب القيام به ليس بالشىء "العملى". وفى وقت لاحق من حياتك ستظل تلك الأصوات فى أذنك تملأ عقلك بكل الأسباب التى تضطرك إلى البقاء فى وظيفة تبغضها بدلا من القيام بوظيفة تحبها بحق.

ويا له من مصير محزن.

لى صديق يدعى "ديك راينبلوم"، هذا الرجل شعر بالملل من العمل فى مجال الدعاية والإعلان فتوجه للدراسة فى كلية الحقوق ثم عمل

كمحـــام متخصص فى قضايا الطلاق، وقد حدث أن التقيت به مصادفة بعد بضع سنوات.

سألته قائلا: "كيف حالك؟".

فقال: "إننى فى حال سيئة للغاية".

فسألته قائلا: "ما الذى تعنيه، هل أنت مريض؟".

فرد قائلا: "لا، لست أشكو من مرض عضوى، ولكننى مللت من العمل فى هذه المهنة. لقد اتضح لى أن العمل كمحام متخصص فى قضايا الطلاق أسوأ من العمل فى مجال الدعايا والإعلان!". فضحكنا، ولكننى أدركت أن "ديك" لم يكن مازحا. لقد توقف عن القيام بشىء كان يبغضه ليجد مهنة أخرى يبغضها أكثر.

واستطرد "ديك" قائلا: "فكل يوم، يكون الجميع مستشيطين غضبا، على الأقل عندما كنت أعمل فى الدعاية والإعلان كان بإمكاننا ادعاء السعادة".

فضحك كل منا مرة أخرى. لقد كنا ندعى السعادة لأنفسنا وللمستهلكين الذين طالما تصورناهم يضحكون بسعادة وهم جالسون حول منضدة المطبخ فى منازلهم أو وهم يقومون بغسل سيارة فورد الخاصة بهم.

فسألته قائلا: "إذن، فما الذى تنوى القيام به؟".

فقال "ديك" وهو يهز رأسه مشمئزا من نفسه: "لا شىء، فدخلى من هذا العمل جيد جدا. ولهذا لا يمكننى تركه. لقد أسست شركة خاصة. أراك بعد عشرين عاما فى براغ!".

ثم استدار "ديك" ليلحق بالقطار. لطالما تحدثنا معًا عن الذهاب إلى براغ معا فى يوم ما، فلقد سمع كل منا أن براغ هى إحدى أفضل مدن أوروبا.

لا يـزال "ديك" – على الأرجـح – يعمل فى وظيفة يبغضها. لقد علق فـى مصيدة المال، تلك المصيدة التى يعتقد المـرء أنه لا يستطيع الخروج منها، ولكن الأمر غاية فى السهولة.

إذا كنـت ستحيـا عشرين حيـاة، فلربما أن واحدة فقـط تكفى لجمع الذهب، ثم يمكنك أن تنفق ما جمعته فى بقية الحيوات.

وهذا هو كل ما فى الأمر: إنك لا تملك سوى الحياة التى تحياها.

لا تـدع رأسـك يقـودك إلى طريـق "عقلانى" يدمر روحـك ويجعلك تستيقظ مثلى بعدما تقوم بشىء لا تحبه لمدة ستة وعشرين عاما.

طـوال تلك السنـوات لم أكن مندمجـا عاطفيا فى حياتـى؛ لقد كنت راكبا على قطار حياتى، ولم أكن أنا من يقود.

فـى تلك الليلـة صعدت الدرج المـؤدى إلى شقتـى البسيطة الصغيرة حامـلا بين ضلوعـى إحساسا جديـدا بالسكينة. لقد أحببـت العودة إلى هـذا المكان البسيط. لقـد كانت طاولة الطعام عبـارة عن طاولة رحلات بلاستيكيـة بيضاء، ثمنهـا ٥٣ دولارا. وكان على المنضدة كتاب أعطته لى ابنتـى "إليزابيـث" (وأناديها بـ"بيـث"). ويحمل ذلـك الكتاب عنوان *A New Earth* لمؤلفه "إيكهارد توللى"، والذى لم يكن لدىَّ وقت لأقرأه فى حياتـى السابقـة. وبجانب فراشى، كانت هناك مفكرتـى الأمينة؛ فأنا لا أزال أحـاول كتابة جملة أو جملتين كل ليلة. كان هناك كذلك بعض الكتب الدينية.

وفى المطبخ، يوجد إبريق القهوة وغلاية مياه.

وفـى كل صبـاح، أستقبل يومى بقدح كبير مـن القهوة، وبعد الظهيرة أعد لنفسى فنجانًا من الشاى الثقيل.

حـين نظرت فى أرجاء هذا المكان البسيـط، أدركت وأنا مندهش قدر السعادة التى أشعر بها فى هذا المكان الصغير البسيط.

إنه يضم كل شىء أحتاج إليه.

وتوجهت إلى النافذة؛ وفى الخارج كان بإمكانى أن أرى شجرة صنوبر ضخمة كانت فروعها القاتمة تصل إلى عنان السماء الأكثر قتامة.

إننى اعتبر شقتى هذه منزلاً فى شجرة؛ فأنا أحب أن أكون قريبا من قمم الأشجار، وكذلك أن أكون جزءا من السماء.

لقد أخبرنى قلبى فى تلك الليلة وفى كل لحظة من كل يوم أننى لا أحتاج إلى وسائل الراحة المادية الضخمة تلك التى كنت يوما أظن أننى لا أستطيع العيش بدونها، ولم يكن ذلك قاصرا على الزخارف المادية، ولكن على الآداب الاجتماعية كذلك. ويا له من عبء ثقيل ذلك الذى رُفع عن كاهلى بعدما أصبحت غير مضطر للقلق بشأن التوقعات الاجتماعية عالية المستوى.

منذ يومين تلقيت دعوة لحضور حفل خيالى فى مدينة نيويورك يحضره الكثير من مشاهير المجتمع. توجهت إلى صندوق القمامة البلاستيكى الأبيض الذى يوجد فى المطبخ (الذى اشتريته مقابل ٧،٥٠ دولارات)، وألقيت الدعوة بداخله برفق، ثم ابتسمت.

فى حين أننى لا أكن لهؤلاء الأشخاص سوى الاحترام وكنت أنوى أن أرد على دعوتهم لى بالرفض المهذب، حيث إن لدىَّ خططًا أخرى - فقد شعرت براحة كبيرة لأننى قررت ألا أذهب إلى مثل هذا الحفل الساحر الكبير!

لقد أدركت أن هناك حياة جديدة يمكن أن تزدهر عندما تضع بعض الحدود الاجتماعية.

وكذلك أريد أن أضيف أننى لا أزال أشعر بحب كبير تجاه جميع أصدقائى القدامى، فكل ما فى الأمر هو أننى فى هذه المرحلة من حياتى، إذا كنت سأقضى وقتًا مع أى شخص، فأفضل أن يكون ذلك الشخص هو

أحد أبنائى. فأصدقائى القدامى لم يعودوا داعمين أو ملازمين بالنسبة لى كما كانوا من قبل.

إنهم لم يتغيروا، ولكنى أنا الذى تغيرت، فلم يعد باستطاعتى تحمل الحديث حول الأيام الرائعة التى ولت.

اللعنة على الأيام التى ولت!

فبدلا من الدخول فى حديث تافه حول حالة الصناديق التعاونية فى حسابات التقاعد الفردية الخاصة بنا، عزمت على أن أستمع إلى سيمفونية وأن أترك صور اليوم تتدفق عبر عقلى.

منذ أن تركت حياتى السابقة، تعلمت أن السعادة الحقيقية بالنسبة لى تتمثل فى التجارب اليومية الصغيرة، وليس فى تواجدى داخل حشد من الأشخاص. لقد أمدتنى الأشياء التى لم يكن لدىَّ وقت قبل ذلك لملاحظتها أو الشعور بها والأشياء التى لم أهتم بها بشكل كاف فجأة - أمدتنى - بمجموعة كبيرة من التجارب القيمة التى لن يكون بمقدورى إدراكها، حتى لو أصبحت أكثر الرجال ثراء ونجاحا فى العالم. لقد كنت أندهش حين أكتشف النفائس فى أكثر الأشياء ضآلة، وفى بعض الأحيان، فى أكثر التجارب اعتيادية. وحين تتوقف لتقدر هذه الأشياء حق قدرها، تصبح تلك الأشياء والتجارب البسيطة هى الأكثر روعة. وفى اليوم التالى أعددت قائمة ببضع الأماكن التى وجدت فيها بهجة غير متوقعة:

- فى الرضا المفاجئ الذى أحس به عندما أجتهد فى تنظيف دورة المياه وجعل الحمام لامعا وكأنه سيارة جديدة.
- فى الأغنية التى تلتقطها أذناى فتجعلنى أتغنى بها بصوت مرتفع وأنا سائر.
- فى شمس أول أبريل الدافئة التى أراها فجأة بعدما أكون قد أمضيت شهورًا عديدة معتادا على أيام الشتاء الضبابية الباردة.

- فى متعة الذهاب إلى الفراش بعد ظهيرة يوم ممطر ومعى كتاب جيد.
- فى المتعة العميقة التى أشعر بها عند قضاء وقت مع أبنائى – نتناول غداء خفيفا فى المدينة أو نتمشى طويلا فى الريف – حيث أراقبهم وأتعجب وهم يبنون حيواتهم الرائعة.
- فى الشعور بالامتنان عند التمشى لدى بزوغ أول خيوط ضوء الفجر.
- فى القيام بمشاركة ابتسامة أو مزحة مع الآخرين وأنا أقدم لهم أقداح القهوة اللذيذة.
- فى السير إلى المنزل فى ضوء الغسق الأزرق الخافت فى الصيف وأرى القمر بازغا فى السماء.

ربما أكون قد تجاهلت فى حياتى السابقة العديد من الأحداث اليومية هذه باعتبارها تافهة جدا لألاحظها، أو أغفلتها فى خضم قلقى الشديد بشأن الاستمرار فيما كنت أعتقد أنه النجاح.

ولكننى أدرك الآن أننى خلال عجلتى تلك نسيت جوهر الحياة الذى يوجد – بالنسبة لى – فى أبسط الأشياء.

لقد اكتشفت فى وقت متأخر جدا من حياتى أن الثقة فى قلبك هى السبيل الأعظم – والوحيد – للسعادة الحقيقية.

إن الاستماع إلى ما يهمك حقا (وتقبل ما يمكنك التحكم فيه وما لا يمكنك التحكم فيه) هو ما يحدث الفارق.

فأنا لا يمكننى أن أملك أى تأثير على ارتفاع أو انخفاض مؤشرات البورصة أو سوق العقارات. وأدرك أننى لا أستطيع التحكم التام فيما إذا كان ورم المخ الذى أعانى منه سيزيد أم لا أو ما إذا كان عملى فى تقديم القهوة سيكون آمنا غدا أم لا فى ظل الأحوال الاقتصادية غير المستقرة هذه.

إننـــى، ببساطة وبتواضع، جزء آخر من هذا الكون الغامض، العجيب، دائم التغير.

وفى حين أننى لا أستطيع التحكم فى كل تلك القوى الخارجية العظمى، يمكننـــى أن أتحكم فيما يؤثر فىَّ بعمـق، ويمكننى أن أستمع إلى قلبى وأن أستجيب لاحتياجاته.

يمكننـــى أن أعى المقاييس العامة للنجـاح وتقبل الصدمات الخارجية للحيـاة دون *أن أعتقـد وأدعـم رؤى الآخريـن السلبيـة المتخوفـة مـن العالم.*

إن حياتى ملك لى وحدى.. أشعر بها وأحبها كيفما أشاء.

إن التواصـل مع القلب بدلا من محاولة اتباع ما يمليه عليك عقلك هو الدليل الحقيقى إلى الحياة السعيدة.

ذات يـوم، حين كنـت أجتهد فى عملى فى الدعايـة والإعلان، شعرت بالإهانـة جـراء خطبة ألقاها أحد رجال الدين فـى دار العبادة. لقد كان عنـوان تلك الخطبـة هو "عدم التفكير فى الغد". أخـذ الرجل يلقى على مسامعنا أقوالاً من أحد الكتب الدينية، يقول:

لم تفكر فى الملبس؟ فكر فى زهور الزنبق فى الحقول، كيف تنمو؛ إنها لا تكدح، ولا تغزل، حتى أمجد ملوك العصور الماضية لم يكن يكتسى بمثل تلـك الزهور. إذا كان الله قد كسا هذه الزهـور بهذا الشكل، فماذا تظن أنه سيفعل من أجلك، أيها الإنسان ضعيف الإيمان!

وفى اليوم التالى، على بالرغم من انشغالى الشديد فى تصميم ثمانى حملات إعلانية جديدة، اتصلت برجل الدين وأخبرته بقوة بأننى منزعج من الخطبة التى ألقاها بالأمس.

فقلـت له وأنـا مغتاظ: "إن لدىَّ زوجة وأبناء علـىَّ أن أكسوهم، وليس بوسعى ألا أفكر فى الغد".

فقال لى الرجل مصغيا إلى نبرة صوتى المتوترة الغاضبة: "اهدأ يا مايكل. إن هذه الفكرة هى واحدة من أكثر الأفكار الدينية التى يصعب على الأمريكيين ذوى الطموحات الكبيرة فهمها".

"نعم، لأنها فكرة غير منطقية".

كان اهتمامى بالحديث قد بدأ ينصرف

فسألنى قائلا: "إذن، ماذا لو تخطينا الاستعارة ونظرنا إلى ما يمكن أن يفعله الله من أجل عباده؟".

فقلت له بنفور وأنا أنظر فى ساعة يدى: "حسنا". كان لدىَّ اجتماع مع فريق التصميم الفنى الخاص بى بعد خمس دقائق.

وفى غضون دقائق سوف يتوافدون على مكتبى.

ولم أكن حينها راغبا فى أن يسترقوا سمعى وأنا أتحدث فى أمور دينية، فهذا الأمر لن يرسخ فيهم جذور الثقة.

قال الرجل: "هل تعرف الجزء الذى ألقيته على مسامعكم: 'لا تفكر فى الغد؟' هل تعرف ماذا يعقب ذلك؟".

فقلت: "لا".

فقال: "بعد سطر تقريبا تقول الفقرة: 'عليك بالثقة فى الله والإيمان به وسترى أن الله يغدق عليك من نعمه'".

فأجبت قائلا وكنت قد أصبحت وقحا: "إذن؟".

لقد كان لدىَّ الكثير من العمل.

وكنت رجلا مشغولا.

وكانت دار العبادة بالنسبة لى شيئًا هامشيًّا - ولم تكن أهم شىء - فى حياتى.

فقال رجل الدين: "خذ هذه النصيحة: 'عليك بالثقة فى الله والإيمان به وسترى أن الله يغدق عليك من نعمه". وهذا لا يعنى أن عليك إهمال

شراء الملابس لأبنائك ولكنه يعنى أنك يجب أن تتأكد من أنك تركز قليلا على العبادة وألا تمنح كل ثانية من حياتك للمال".

"حسنا. أعتقد أننى فهمت".

أنهى الرجل المحادثة

ثم وضعت السماعة

ولكن فى ذلك الوقت لم أكن قد فهمت حقا.

لقد كنت أكثر تركيزا على دورى كما رسمته لنفسى: صانع للمال. أريد المزيد من المال لأشترى المزيد من الملابس غالية الثمن لأبنائى ولنفسى.

الآن فقط أدرك ما كان يحاول رجل الدين أن يخبرنى به.

إننا جميعا نحتاج إلى الأشياء المادية مثل الملابس، ولكن لا ينبغى أن يحتل شراء الملابس كل شبر من خواطرنا وعقولنا وأرواحنا. فمثل هذه الملابس الضرورية لا ينبغى أن تكون المعيار الذى نقيس به سعادتنا.

هذا على الأقل ما قد توصلت إليه اليوم.

أعتقد أن ما كان يقصده رجل الدين حينئذ هو أن هذه الاهتمامات المادية تلعب دائما دورا فى حياتنا، إلا أنها لا ينبغى أن تهيمن على حياتنا أو تتحكم فى مشاعرنا.

فلا يجب علينا أن نحيا ونعمل باجتهاد فقط من أجل شراء "الملابس" باهظة الثمن.

يقول "رالف والدو إيمرسون": "يُعرف الرجل مما يشغل تفكيره طوال اليوم".

لقد كنت أملأ عقلى بالدعاية الإعلانية التافهة، وكنت مشغولا بابتكار إعلانـات يعتبرهـا الأشخاص بلا قيمة. لم يكن لـدىَّ الوقت أو حتى الميل إلى استشارة قلبى.

والآن أعتقد أن اتباع قلوبنا هو السبيل الوحيد للعثور على السعادة.

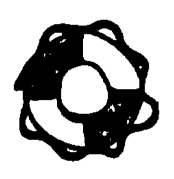
اجعـل قلبك يوجهـك إلى الكيفية التى تملأ بهـا يومك... مثلما توجه الرياح أشرعة المركب.

لقـد توقفت اليـوم عدة مرات فى سكـون، ولمست قلبـى، ونظرت إلى السماء.

إننى أحب أن أراجع قلبى مرارا وتكرارا للتأكد من أننى سعيد.

إن قلبى هو جهاز تحديد المواقع لعالمى الخاص بى.

إنه لا يفشل أبدا فى توجيهى.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

إننـى أعتقـد أن هنـاك طريقًـا فريـدًا للسعادة قـد منح لكل منـا، طريقًا خاصًا بكل شخص، كل ما علينا القيام به هو أن نستمع إلى قلوبنا.

توقف الآن.

ضع يدك على قلبك أينما كنت، سواء كنت فى المنزل أو على متن طائرة أو فى القطار.

دع العالم الضوضائى يتلاشى قليلا.

اسأل قلبك بلطف: "هل أنا سعيد؟".

فسيجيب عنك قلبك، وسيكون ذلك هو بداية حديث يمكنه أن ينقذ حياتك.

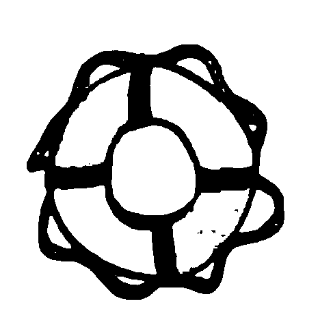
سوف يساعدك قلبك على بناء حياة تمنحك سعادة لم تتخيل يوما ما أن تشعر بها.

الدرس ٣

اقفز... مستعينا بالإيمان

"هناك تيار فى نهر الرجال، إذا ما ركبوه وقت الفيضان،
قادهم إلى الحظ السعيد".

ـــ *وليام شكسبير*



جلست محشورًا فى مقعد صغير داخل طائرة مكتملة العدد. كنت أنا والمرأة التى تجلس بجانبى قد اتفقنا فى صمت على أن نتجنب الحديث. كان هذا الاتفاق نوعًا من الصفقات التى تتم فى صمت، فقد كان كلانا متعبا.

سحبت قبعتى على عينى وكنت قادرا على أن أنام معظم وقت الرحلة.

وكان يبدو أنها تقوم بشىء ما على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها.

وحين هبطت الطائرة فى نيويورك، انطلق صوت الطيار قائلا: "يقولون بأن المطار مكتظ. ويقدرون أن علينا الانتظار حوالى خمس وأربعين دقيقة قبل أن نتمكن من الوصول إلى البوابة الخاصة بنا. متأسف، ليس هناك ما يمكننى القيام به".

فنظر أحدنا إلى الآخر

وقررنا أن نتكلم.

فقلت: "ليس الأمر بالمعضلة. فنحن على الأقل لسنا عالقين فى الهواء".

فقالـت موافقة: "حقا. فأن تكون عالقـا وأنت على الأرض ليس بأسوأ المشكلات التى تتعرض لها أثناء الطيران".

فضحك كلانا.

ثـم قالت: "فى بعض الأحيان، يكـون عدم وجود مشـكلات هو أسوأ مشكلة".

أثارت هذه الجملة اهتمامى

فقلت لها: "ما الذى تعنينه؟".

فقالـت: "أنا طبيبـة نفسية أمارس عملى فى منطقـة بيفرلى هيلز. وكثـير مـن مرضاى شبـاب، وهذا جزء مـن تخصصى، وهـو تخصص يتعامـل مع تحديات التقدم فى السن، ولكـن ممارستى أنا تتعامل مع كل تحديات مرحلة النضوج".

فسألتها قائلا: "وما هذه المشكلات؟".

قالـت: "حسنا، بالنسبـة للكثير من مرضاى الشبـاب عدم وجود أية مشكلات فى حياتهم هى أكبر مشكلاتهم".

فقلـت لها: "لا أفهـم"، ولم أقصد بذلك أن أكـون وقحا ولكننى كنت أتحدث بصراحة.

فقالت: "إن الأمر بسيـط. فالكثير من المرضى أبناء أشهر المخرجين السينمائيين. فآباؤهم من ذوى الطموح الشديد وهم أناس صعاب المراس. ولكنهم يحمون أبناءهـم بشكل زائد. دعنى أضرب لك مثلا: هناك رجل ولنطلـق عليه "جو شينك"، وقد نشـأ فى كوينز. بل فى الجزء الفقير من كوينز. كما أن أبويه يعملان، لذا كان عليه أن يذهب إلى المدرسة بمفرده. وعنـد وصوله إلى الخامسة من عمـره أو العاشرة على الأكثر، كان "جو" يعرف كيف ينجو بنفسه فى أخطر الشوارع. كما يمكنه استقلال الحافلات والتجول حول المدينـة وإدارة أخطر المواقف. هل أدركت الفكرة؟ ثم يأتى

إلى هوليـوود، ليصنع ثروة تفوق ما كان يتخيله، ويرغب فى التأكد من أن أبنـاءه لن يضطروا يوما إلى المرور بالأوقات العسيرة التى مر هو بها. لذا يأتى بسائق ليقلهم إلى المدرسة؛ ولا يخرجون أبدا دون بطاقة الائتمان أو الملابس الفخمة ولا يتواجدون فى محيطات غير آمنة".

فقلت لها: "فهمت". وكنت قد فهمت فعلا.

فاستمرت قائلة: "نعم، قد لا يبدو ذلك سيئًا للغاية ولكن النتيجة هى أن جو قد أفزع أبناءه، أو إلى حد ما أخاف أبناءه من العالم الخارجى".

وبينمـا كانت تتحـدث وكانت الطائرة تقترب على مهـل تجاه البوابة، أدركت أن هذا ما حدث لى.

لقـد مُنحت الكثير جدا وحاول أهلـى حمايتى بشكل مفرط إلى درجة أننى لم أستطع القيام بشىء وأنا أرى حياتى تنهار أمامى.

لم أستطع أبدا أن أخرج من الصندوق الذى وضعت نفسى داخله، ولم أقفز دون تفكير بشىء من الجنون المتولد عن اليأس.

لقـد كنـت أتقدم للأمـام لسنوات آملا فـى أننى لـو ارتديت حلتى ماركـة بروك براذرز وخرجـت حاملا حقيبة أوراقـى وهاتفى المحمول كمـا لو أننى ما زلت مديرا تنفيذيـا كبيرا فى مجال الدعاية والإعلان، فربما بطريقة مـا تتاح لى فرصة أخرى فى قمة إحدى كبرى الشركات العالمية.

لم أستطـع أن أواجـه حقيقـة أن حياتى المهنيـة السابقة قد ولت بغير رجعة.

لقـد كنت سلبيا بشـكل غريب فـى مواجهة تلك التحديـات البشعة. وكنت أعـرف أننى ينبغى علىَّ أن أتغير. ولكننى لا أتغير أبدا. كانت عادة القيام بكل ما هو مألوف – حتى لو كان يعنى الفشل – أقوى من أى جهد لبذل طاقة إضافية من أجل العثور على طريق جديد.

يتحدث "روبرت فروست" في قصيدته Briches عن تجربة مميزة:

... الحياة تشبه كثيرا الغابة غير المطروقة
حيث تلسع وجهك وتدغدغه خيوط العنكبوت
التى تتهتك فوقه، وتدمع إحدى عينيك
عندما تصطدم بغصين صغير وهى مفتوحة

كان هذا هو ما كنت أشعر به حين جعلت نفسى أستيقظ كل يوم دون أن أتمكن من التوصل إلى كيفية لتغيير الاحتمالات لتكون فى صالحى.

لقد ضللت طريقى فى الغابة دون أن أدرى كيف أجد مخرجا؛ كنت أسقط. وكلما سرت أبعد، بدا لى أننى أعود إلى الخلف.

كان الأمر يبدو لى وكأن أحداث حياتى تسير بالتصوير البطىء. وكان يأسى يرهقنى، وكانت قدماى تتحركان وكأنهما عالقتان فى الرمال المتحركة، كنت أغوص فيها دون أن أعرف كيف أخرج. لقد كنت خائفا من التحرك بسرعة أو المقاومة باجتهاد خشية الغرق.

الآن وأنا أعود بتفكيرى إلى الوراء إلى سلوكى السلبى الغريب عند مواجهة تلك الأزمة الشخصية والمهنية. أعتقد أن ذلك الأمر يتعلق بتجربتى المبكرة حين كنت معرضا باستمرار إلى مضايقات الآخرين وأنا طفل صغير.

حين كنت فى الخامسة من عمرى، انتقلنا إلى برونكسفيل، ونظرا إلى أننى كنت جديدا على الحى، جذبت انتباه طفل متنمر، كان يهاجمنى كل يوم بينما أسلك طريقى إلى المدرسة.

كان يضربنى ويدفعنى إلى الأرض، ويدفع وجهى فى الجليد البارد حتى لا أستطيع التنفس، وكنت أظل ساكنا بقدر استطاعتى، فقد ظننت

أننـى إذا مـا ظللـت سـاكنـا ولم أفعـل شيئـًا، فـإن الألم سيتوقف – فى النهاية – على الرغم من أن كل ثانية كانت تمر كأنها ساعة.

وبعـد بضـع دقائق مخيفـة من التعذيـب كان يدعنى، فكنـت أنهض، وأمسـح دموعـى، وأعدل ملابسـى، وألتقط كتبى – التـى يغطيها حينئذ الثلج – وأذهب إلى المدرسة.

ولم أكـن أخبر أحدًا بهذه اللقاءات اليومية المرعبة مع الطفل المتنمر. كنت أشعر بالحرج؛ فقد كنت أظن أنه خطئى.

فيمـا بعـد كنـت أتعامـل مـع الأشخاص المتنمريـن فـى العمـل بنفس الطريقة.

فكنت، إذا ما صـرخ أحد العملاء من شركة فورد فى أثناء الاجتماع، أظـل هادئا وساكنا، وأحـاول أن أدع العاصفة تمـر، وكان ذلك ينجح فى كثير من الأحيان، ولكن على حساب كبت مشاعرى الحقيقية.

أشعر الآن بأن عادتى القديمة فى التعامل مع العدائية وكبت مشاعرى الحقيقيـة قـد صعّبت علىَّ إدراك مـا ينبغى علىَّ القيـام به حين تحل بى أزمة شخصية.

كان جيدا أن أكون سلبيا حين يكون كل شىء على ما يرام.

وحـين سـاءت الأمور وتم فصلى مـن العمل واضطـررت إلى أن أكون وحـدى وأن أحـاول إعادة بنـاء نفسى، وجـدت أننى عالـق فى نموذجى السلبى القديم نفسه – خائف من التغير وحتى من الشكوى.

وحين ظهـرت فى البرنامج التليفزيونى الـذى يقدمه "دونى دويتش" للتحـدث عـن كتابـى *How Starbucks Saved My Life*، لخص "دويتشـ" كل كفاحاتـى بهذا السطر المميز: "أنـت لم تعرف ما عليك أن تفعل لأنك مُنحت كل شىء طوال حياتك".

لقد كان على حق. فنظرًا إلى أننى قد مُنحت كل شىء، لم أعرف كيف أحصل على أهم الأشياء بالنسبة لى.

وعندما أفكر فى ذلك الأمر، أجد أن هذه الحالة ليست قاصرة علىَّ. فالعديد من أصدقائى الذين نشأوا فى أوساط ثرية قد عاشوا حياة غير هادفة نسبيا فقط لأنهم لم يكونوا يوما ما مجبرين على الخروج إلى الحياة لاقتناص أفضل شىء بالنسبة لهم.

أتذكر "هانسون ويثريدج"، الذى كان من عائلة قديمة من إقليم نيو إينجلاند، والذى كان والده متزوجا من وريثة لثورة نفطية كبيرة. وكانت أول مرة رأيته فيها فى الشارع فى نيو هافن. فى تلك الأيام - فى الستينيات من القرن العشرين - كانت نيو هافن مدينة فقيرة إلى حد ما. ومع ذلك كان "هانسون" متألقا آنذاك، فقد كان يرتدى سترة زرقاء ساطعة من الكاشمير وكان يقف إلى جانب سيارة بورش فضية براقة. لقد كان شابا يبدو أنه حصل على كل شىء يرغب فيه. ولكن بينما كان يحصل على كل شىء، فإنه لم يكن مجبرا أبدا على أن يتمعن فيما يرغب فيه قلبه بحق ويقفز ليحصل عليه.

لم أنس أبدا صورته وهو يقف إلى جانب سيارته فى نيو هافن.

فى النهاية، جرب "هانسون" التقاط الصور، وفى وقت ما من حياته، قرر أن يعمل كمصور محترف. وذات مرة، أتى "هانسون" لى، وكان يعرف أننى باعتبارى مدير تصميم فنى، يمكننى تكليف المصورين لمهام مختلفة، وقد سمع أيضا أننى فى ذلك الوقت كنت أعمل مع المصور الشهير "ريتشارد أفيدون" فى حملة إعلانية لمؤسسة كريستيان ديور، وقد لاقت الحملة استحسانا كبيرا لدى المشاهدين.

لقد كنت سعيدا برؤية "هانسون" على الرغم من أن علامات التقدم فى السن قد بدت عليه بصورة سيئة. كان يبدو وهو

فـى الثلاثينات من عمره وكأنه فى الخمسينات. لقد سقط معظم شعره، وظهـرت الكثـير مـن التجاعيـد فى وجهـه (وأعتقـد أن هـذا يرجع إلى التدخـين الشره)، مما حوله من شـاب وسيم إلى شخص ذى وجه عجوز قبل أوانه.

لقـد أخذ يدخـن دون توقف طوال جلوسه فى مكتبـى. ثم أخرج بضع صـور كان قـد التقطهـا، لم أستطـع أن أحدد مـا إذا كانت تلـك الصور جيـدة أم لا، لذا رتبت له موعدا مع المديـر الفنى الخاص بحساب شركة فورد.

فى ذلـك الحين كانت شركة فورد تفكر بإطلاق حملة إعلانية بعرض صـور رائعة لسياراتهـا فى أكثر الأماكن شهرة فـى أمريكا: ميدان تايمز سكويـر، كوبرى جولـدن جيت، ومـا إلى ذلك، وفكرت أنه قـد يتم تعيين "هانسون" للمساعدة.

وقد رأى "جيرى لينكينس"، أحد أفضل المديرين الفنيين فى الشركة، مجموعة مختارة مـن الصور التى أحضرها "هانسون"، وأخبرنى قائلا: "إن مستواه ليسـ سيئا. لقد أخبرته أن يلتقط بعض الصور لأشهر معالم نيويورك ثم يعود إلىّ".

مرت الأسابيع ولم يعد "هانسون".

شخص آخر غيره، لا يعتمد على مثل هذه الثروة الشخصية الضخمة، كان فى اليوم التالى سيلتقط الصور، ثم سيعود بعد بضعة أيام على الأقل بملـف كامل مـن الصور. كان من الممكن أن تكون هـذه هى أعظم فرصة لـ"هانسـون"، ولكنه لم يكن من ذلك النمط. لقد حصل - إلى حد ما - علـى الكثير جدا، مثله فى ذلك مثلـى، إلى درجة أنه لم يعرف حقا كيفية التصرف حين أتيحت له فرصة جديدة.

قد تكون كثرة المال أمرا خطيرا ومزعجا تماما مثل ندرته.

ولهذه الأسباب - وهى عادتى المتأصلة للتصرف بسلبية أمام الأشخاص المتنمريـن، وافتقارى إلى ذكاء الشارع الذى يملـى علىَّ كيفية التصرف حين أرى الواقع - كان من الصعب جدا علىَّ أن أتقدم إلى الأمام.

لقد كنت عالقا ولا أعرف ما الذى علىَّ القيام به.

وكمـا ذكـرت سابقا فى هـذا الكتاب، عندمـا شعرت بـأن حياتى قد انتهـت، عدت إلى الحى القديم الذى نشـأت فيه. محاولا استرجاع بعض مـن المشاعر الإيجابية التى كانت تراودنى باعتبارى ابنًا مفضلاً. لم تكن الشمسـ ساطعة فى ذلك اليوم، وكنت أشعـر بالمزيد من الإحباط حينما تذكرت مدى سقوطى من بدايتى المبكرة على قمة الحلم الأمريكى.

ولكننـى لاحظت وجود مقهـى ستاربكس ساطع الإضـاءة فى جو يوم قـاتم مـن شهر مارسـ. ونظـرا إلى أننى أحـب القهوة، قـررت أن أدخل لتنـاول القهـوة باللـبن. وبالمصادفة البحتـة دخلـت إلى ستاربكس الذى كان يستضيـف "مؤتمرا للتوظيف" حيث يأتى المديـرون من جميع أنحاء نيويورك لتعيين موظفين فى متاجرهم.

أخذت قدح القهوة باللبن الخاص بى، وتصادف أن جلست إلى جانب امرأة شابة أمريكية من أصول أفريقية، وكانت مديرة وتحتاج إلى تعيين شخص ما. كانـت المرأة تدعى "كريستال"، وقد عرفت لاحقـا أنها لم تنشأ وسط أى من الامتيـازات التـى كنت أعتبرها أنا من المسلمات. لقـد ولدت فى أسرة فقيرة فقـرا مدقعا. وقـد ماتت أمها إثـر تناول جرعة زائدة مـن المخدرات وكانت "كريستـال" حينها فى الخامسة عشرة من عمرهـا. وبعدها، أرسلت لتعيش مـع خالة لها لم تكن تحبها. لقد شقـت "كريستال" طريقها وسط بيئة صعبة وعرفت كيف تنجح فى العالم الواقعى بشكل لم أتصوره أبدا.

استدارت "كريستال" تجاهى.

وقالت: "هل ترغب فى الحصول على وظيفة؟".

فأجبت قائلا دون تفكير: "نعم!".

فى تلك اللحظة، كانت تلك الكلمة الصغيرة فى هذا المكان الكبير هى مفتاح تغيير حياتى كلها. لقد وصلت حياتى إلى حالة من الهبوط المستمر، ولم أكن لأخرج أبدا من الصندوق الذى كنت أعيش فيه إن لم أقفز تجاه عرضها "اللاعقلانى" هذا.

إن القفز إلى الأمام بثقة بدلا من الانكماش فى خوف كان ضروريا لتغيير حياتى.

لم أتخيل أبدا فى حياتى أننى سأكون تواقا إلى أن استبدل بحلتى ماركة بروكس براثرز مئزرًا أخضر، مقدما القهوة للآخرين.

إذا فكرت براذرز ثوان بطريقة "عقلانية"، كنت قد رفضت عرض "كريستال".

ولكننى لم أفكر فى الإجابة بعقلى، وإنما أجبت بالحقيقة، من قلبى.

بموافقتى على ذلك العرض، أصبحت قادرا على بدء حياة جديدة أسعد.

كان علىَّ التخلى عن التفكير فى كيف سأتمكن من أن أكون شخصا كبير الشأن فى مجال الدعاية والإعلان مرة أخرى. لقد أدركت الآن فقط بعدما فقدت ما يكفى لأن أتحرر من الماضى - فقدت كل شىء فى الواقع - أننى استطعت أن أتقدم إلى المستقبل.

كما أن "كريستال" لم تكن لتتمكن من التقدم لإنقاذ حياتى إذا ظللت منكمشا فى خوف.

إذا عبست فى وجهها وهززت رأسى قائلا: "لا!" ونبذت عرضها فى غطرسة كما لو أنه أقل من شعورى العظيم بمنزلتى العالية، لظللت الآن حبيس صندوقى التعس، منحدرا بسرعة دون أن أعرف ما علىَّ القيام به.

كان علىَّ هجر خوفى وعادة التصرف بسلبية أمام الأحداث السيئة.

كان علـىَّ الانتقال من قبول كل ما مُنـح لى إلى الرغبة فى التقدم فى سبيل الحصول - بنفسى - على شىء.

كان علـىَّ التواصل مع مشاعرى الحقيقية بدلا من أن أدع عقلى يهزم شعورى.

لقـد أخبرنى بعض الأشخاص أنهم قـد تعلموا حكمة من قصتى وهى أن المـرء لا يمكنه التفكير فـى كيفية الخروج من الصندوق الذى يحتبس نفسـه فـى داخلـه. (ونحن جميعـا نعلق فـى صناديق منيعة فـى كل سن ومرحلة من حياتنا).

فللخروج من موقف يقيـدك ولا يمكن الاستمرار فيه، عليك أن تقفز، مقتنصـا أية فرصة للتقدم نحو عـالم جديد تماما، وعليك أن تقفز واثقا فى أنك ستهبط على قدميك.

فحـين تقفز بثقة - بـدلا من الانكماش والانـزواء فى خوف متراخيا وعاجـزا بفعل خوفك - يستطيع الآخـرون أن يقدموا لك يد العون. حين تتقدم إلى الأمام، يستطيـع الآخرون كذلك التقدم إلى الأمام لمساعدتك فى رحلتك.

تمثل قصتى هذه دليلا لا يدحض على أن التحرك إلى الأمام خير من عدم التحرك.

لقـد اكتشفت أن أيـة وظيفة - تقريبا - خير مـن عدم وجود وظيفة علـى الإطلاق. بمجرد حصولى علـى وظيفتى فى مقهى ستاربكس، بدأت حياتـى بأكملهـا تتحلـى بثـوب جديـد مـن الإثـارة والحيويـة. إن هـذه الوظيفـة التى حصلـت عليها كانـت مشبعة على نحو خاص، حيث كنت أشعـر بالتحدى على نحو منعش - كل يوم - فى مواجهة مواقف جديدة علىَّ تماما.

فالقيام بأى شىء جديد للمرة الأولى يشبه - فى الغالب - المجىء إلى الحياة من جديد.

هل تذكر أول يوم لك فى المدرسة؟

أو هل تذكر أول يوم لك فى أول وظيفة حصلت عليها؟

إننا نستجيب للتجارب من هذا النوع بتدفق الأدرينالين الذى يمكنه أن يطرد الخوف البالى وكأنه نسمة هواء منعشة.

فى مارس الماضى دعيت إلى التحدث فى أول معرض كتاب فى مدينة توكسون. وكم كانت لمحة مشجعة فى تلك الأوقات العصيبة أن أرى المدن المختلفة تنجح فى المناسبات الاجتماعية المثيرة التى تحتفل بالقراءة.

وكان هناك أناس كثيرون فى هذا الحدث، والكثيرون أتوا لى ليخبرونى بقصص حول كيفية قفزهم نحو حياة جديدة وكيف أنهم أصبحوا أكثر سعادة من أى وقت مضى.

وبعد المحاضرة، أقلتنى امرأة شابة من بين المتطوعين (فى معظم معارض الكتاب، يكون المتطوعون ضروريين لحدوث هذا الحدث) إلى المطار.

قالت لى المرأة: "لقد فررت من حياتى فى ديترويت، وانتقلت حديثا إلى توكسون. لقد كان زوجى رجلا طيبا إلا أنه يعانى من مشكلة نفسية؛ كما أنه كان يضربنى. وقد تناقشنا حول مسألة إنجاب الأطفال، ولكن خطر ببالى فجأة: كيف سأكون قدوة لأبنائى إذا استمررت مع رجل يسىء معاملتى؟ لذا قررت أن أتركه".

واستطردت قائلة: "لم أكن أعرف أى شخص هنا ولكننى حصلت على وظيفة فى ماكدونالدز. والآن أدير المطعم الذى أعمل فيه. هل تعرف؟ إن

الناس يضحكون حين أخبرهم بأننى أكثر سعادة وأنا أدير مطعم ماكدونالدز وأعيش هنا فى توكسون مما لو عدت إلى موطنى فى الشمال".

واقترب منى زوجان آخران بينما كنت أوقع على كتبى.

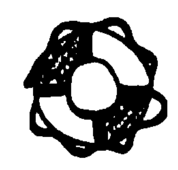
أخبرانى قائلين: "شكرا على قصتك. لقد فقدنا منزلنا فى إعصار كاترينا وقررنا أن نفر إلى مكان ما - تماما مثلما ذكرت فى كتابك. ولم نفكر كثيرا فى الانتقال - لقد انتقلنا وحسب، وجئنا إلى هنا - ونحن سعيدان جدا بأننا فعلنا ذلك!".

وفى ذات اليوم، أخبرتنى سيدة قائلة: "لقد كنت موظفة متغطرسة فى إحدى شركات مدينة وادى سليكون، فسئمت ذلك الذى كنت أشعر به، لذا انتقلت إلى هنا والآن أعمل كمتطوعة فى المستشفى المحلى. إن مساعدة المرضى أكثر إرضاء من محاولة دفع المبرمجين إلى إنجاز عملهم فى الوقت المحدد!".

إن العديد من الأشخاص - اليوم - مجبرون على القفز دون تفكير، وهو أمر مخيف. ولكن الأكثر روعة وإثارة للدهشة أن الكثير يجدون أن حياتهم الجديدة تجلب لهم شعورا بالرضا لم يتوقعوه أبدا.

لقد وجدنا أن الحصول على وظيفة تقوم على استخدام طاقتك لخدمة الآخرين بدلا من الشعور بالقلق إزاء نفسك هو نوع خاص من العلاج المميز عند مواجهة الأوقات العصيبة.

إذا قفزت إلى الأمام بثقة فسوف تجد الكثير من الأشخاص الصالحين - مثل "كريستال" بالنسبة لى - التواقين إلى الإمساك بك وتقديم يد العون لك.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

إننا جميعا نعيش ببعض الخوف من المستقبل، ولكن هذه المخاوف السلبية يمكن أن تملأ رؤوسنا وتجمد تقدمنا، لذا يجب أن نستبدل بها إيمانًا قويًّا.

إذا كنت عالقا في موقف ما ولا تعرف ما الذى عليك القيام به، فأنت الآن تعرف أن عليك اتخاذ إجراء ما.

وأى إجراء ستتخذه أفضل من ألا تتخذ أى إجراء على الإطلاق.

وهنا عليك اتباع عواطفك

ثق فى عواطفك بدلا من محاولة الحكم على كل فرصة جديدة بعقلك، ثم اذهب لتقتنصها.

تقدم إلى الأمام بثقة، وسوف يساعدك إيمانك على خلق مستقبل أفضل لنفسك.

وسوف تجد أنك ما إن تبدأ التقدم إلى الأمام، فسوف يساعدك الآخرون على استكمال مسيرتك.

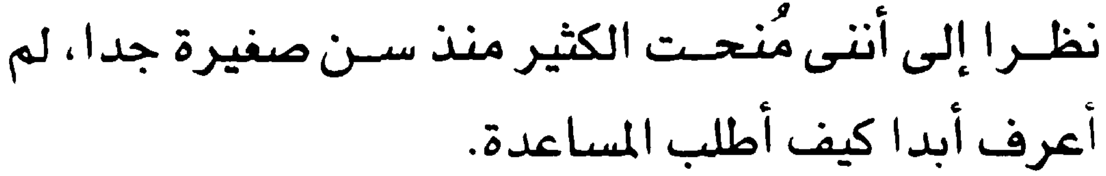


الدرس ٤

دع الآخرين... يساعدونك

"اطلب ما تحتاج إليه وسوف تحصل عليه".

ـــ حكمة قديمة



نظـرا إلى أننى مُنحـت الكثير منذ سـن صغيرة جدا، لم أعرف أبدا كيف أطلب المساعدة.

لقد كنت شخصا فخورًا بنفسى، وكنت أشعر بالإحراج الشديد حين أجد أننى فى حاجة إلى المساعدة فى الحياة إلى درجة أن مجرد طلب المساعدة بالنسبة لى كان بمثابة إهانة علنية.

والآن، بعدمـا مررت بذلك السقوط من أعلى الحظوة التى كنت أتمتع بهـا إلى حياة أفضـل أكثر واقعية، أدركت أن طلـب المساعدة هو أن تكون متواضعا بالمعنى الأفضل لهذه الكلمة.

إن كل شخص يحتاج إلى المساعدة بشكل ما كل يوم.

لقـد أخبرتنـى "كريستـال" ذات يوم قائلـة: "إن أكبر خطـأ يقع فيه الشركاء الجدد هو أنهم لا يطلبون المساعدة بالشكل الكافى!".

إن طلـب المساعدة من الآخرين يربطـك بالرغبة الكونية فى أن تكون أفضل حالا، أو أن تشفى.

إذا لم تطلب المساعدة حين تكون فى أشد الحاجة إليها، فإنك تجازف بالبقاء عالقا فى عالم الحزن الخاص بك.

وما إن تطلب المساعدة، فقد تندهش من مدى قدرة روح التعاون لدى شخص آخر على دفع عالمك إلى الأمام.

حين التقيت "كريستال" للمرة الأولى أعطتنى بشكل عرضى طلب وظيفة، فنظرت إلى الاستمارة فى رعب. لقد مُنحت وظيفتى فى الدعاية والإعلان من قبل "جيم بروستر"، زميل لى فى أخوية سكول آند بونز. وطوال مدة عملى فى الدعاية والإعلان لم أكن مضطرا أبدا إلى ملء طلب تقدم إلى وظيفة.

وأدركت أننى سوف أفشل فى هذا الاختبار الأول.

وبامتنان، أخبرت "كريستال" مرة أخرى دون تفكير قائلا: "إننى فى حاجة إلى مساعدتك". إن لم أطلب من "كريستال" المساعدة، لما كان بمقدورى أن أكمل طلب التقدم إلى الوظيفة بشكل صحيح، ولما حصلت على الوظيفة أبدا.

ومنذ ذلك الحين أصبحت تواقا إلى مساعدة الآخرين.

فى حياتى السابقة فى مجال الدعاية والإعلان كنت أقف متفرجا حين أرى الآخرين يناضلون فى مواجهة تحد جديد.

واليوم أصبحت أتوق إلى مساعدة الشركاء الجدد.

فأنا الآن – على سبيل المثال – أشارك حبى للقهوة مع زملائى وضيوفى، وأساعدهم على أن يدركوا لماذا يختلف مذاق بن أمريكا اللاتينية عن بن إندونيسيا.

إننى أساعد فى إخراج القمامة، وهو شىء أثق تماما فى معرفتى كيفية القيام به، وأنا أيضا أهرع إلى طلب المساعدة من أحد زملائى إذا كان علىَّ القيام بإعداد مشروب معقد جديد.

إننى لا أدعى أننى أفضل معد للقهوة فى المقهى.

فى اليوم التالى جاءت سيدة وطلبت: "قهوة بالحليب مضاعفة وساخنة وبدون رغوة".

اجتهدت فى أن أجعل اللبن ساخنا وبدون رغوة.

وقدمت لها قدح القهوة.

ثم ذهبت السيدة، وهى تبتسم لى ابتسامة شكر.

وبعد ثوان عادت مرة أخرى.

فسألتها قائلا: "ما الخطب؟ لقد اجتهدت حتى يكون المشروب ساخنا بالشكل الكافى".

فقالت بلطف: "مايك، لقد نسيت أن تضع القهوة".

لقد نسيت بالفعل أن أضيف القهوة!

ولكنها كانت متفهمة جدا.

أعتقد أن مشاركة الطعام والشراب - على المستوى الأساسى - هى صنيع دال على الحب.

لذا فى حين أن الزبائن يكونون متلهفين على الحصول على مشروباتهم، فإنهم أيضا يكونون متحمسين للمساعدة فى التأكد من أن المشروب معد جيدا، وأنهم يستمتعون به، فى حين أن التجربة بأكملها يمكن أن تكون مصدرا للطف والطيبة بوصفهما علاقتين وديتين مع إنسان آخر.

والزبائن أيضا كثيرا ما يطلبون منى المساعدة للتعرف على لغة ستاربكس.

لقد اكتشفت أن الزبائن يحبون أن يقولوا هذه الكلمات غير المعتادة مثل "فينتى" أو "موكا لاتيه"، وذلك لأنه فى خضم حياتهم المنشغلة الرتيبة، يعد الذهاب إلى ستاربكس بمثابة إجازة قصيرة إلى بلد أجنبى، كما أن اللغة المختلفة فى حد ذاتها تمنحهم شعورا بالراحة النفسية بعيدًا عن حياتهم اليومية المعتادة.

هكذا أصبحت أجد أنه من الطبيعى أن أساعد زملائى وزبائنى تماما مثلما يساعدوننى.

إنها معادلة مجزية... أو ما يشبه أرجوحة خاصة بالعلاقات الإيجابية.

أو ربما يمكنك القول: إن التعاون والمشاركة بين البشر يشبه رقصة اجتماعية لطيفة، مثل رقصة رباعية فى حظيرة فى الريف الأمريكى أو رقصة شعبية فى قرية أوروبية تصبح فيما بعد مناسبة اجتماعية.

مثل هذا التواصل الإيجابى بين العاملين والزبائن، والزملاء مع بعضهم البعض، تكون ما يشبه النغمة الموسيقية للمجاملات المتبادلة التى تساعدنا على أن نجعل من عالمنا مكانا أكثر تناغما. لقد أصبح تقديم المساعدة والحصول على المساعدة هما منهجى فى العيش.

ولوصف هذه العملية بأكملها بطريقة أخرى، أقول: إن خدمتى للآخرين جعلتنى أكثر سعادة مما كنت عليه عند خدمة الآخرين لى، فحين كنت جالسا فى مكتب فخم كبير، كنت منعزلا. وعندما كنت أدعو الموظفين إلى اجتماعات كانت المهمة الأساسية التى أمامنا فيها هى كيفية التأثير على الأشخاص ليعتقدوا أن ماركة السيارات أو الحبوب أو العلكة التى نعلن عنها أفضل من غيرها.

إنه لمن المستحيل فعليًّا على أكثر المستهلكين ولاءً أن يتبين الاختلاف بين أنواع السيارات أو العلكات، إلا أننا كنا نجتهد بشكل جنونى لنجعل كل منتج يبدو مختلفا.

إن اجتماعاتنا تلك تذكرنى بفقرة مقتبسة من مسرحية "ماكبث" لشكسبير، وهى مسرحية تدور حول زوجين أنانيين وطموحين يتحرران فيما بعد من حبهما لحياة لم تجلب لهما الرقى الشخصى المباشر:

الغد، الغد، الغد

يأتى بوتيرة بطيئة من يوم إلى يوم،
فلتنطفئى أيتها الشمعة قصيرة العمر،
فالحياة ليست إلا ظلا سائرا، أو لاعبا بائسا
يقضى ساعته متبخترا وحانقا فوق المسرح
وبعد ذلك يتلاشى الصوت: وتصبح الحياة حكاية
مليئة بالصخب والعنف. لا معنى لها، يرويها
شخص أحمق.

لقد استحـوذ الطموح الأنانى على "ماكبث" وزوجتـه إلى درجة أنهما لم يجدا راحة كبيرة فى الحياة حين لم ينتصرا على شخص آخر.

لقـد كان العمل فـى مجال الدعاية والإعلان يسـير على نمط مشابه لذلـك، لقـد كان طريقا خطـرا يحاول فيـه كل فرد باستمـرار أن يتغلب ويهـزم الآخـر. لقد كان هنـاك القليل من الأماكن علـى القمة، وكان من المتوقـع منـك أن تقوم بأى ممـا يتطلبه الأمر للوصـول إلى تلك المناصب العليا.

أتذكـر ذات مرة أن رجلا كنـت أعمل معه، ودعنا نطلق عليه "راس"، أخذ إجازة؛ وعندما عاد، كان زميل آخر لى ويدعى "برايان"، قد استولى على الحسابات التى يعمل عليها "راس".

لقـد ضحكنا جميعـا على هذا الأمـر. لقد كان الأمـر يشبه مشاهدة مباراة فى المصارعة وانتظار من سيتمكن من الفوز.

ولكـن لا عجب أن هذا النوع مـن اللعب لم يجلب لنا الكثير من الرضا الشخصى.

لقـد تسلمت العديد من الخطابـات والرسائـل الإلكترونية والمكالمات الهاتفية من زملائــى السابقين فى مجال الدعاية والإعلان، ومن آخرين لم يسبق لى لقاؤهم، ولكنهم يكدون اليوم فى هذا المجال.

ويبدو أن الجميع يتوقون إلى نمط حياة جديد. فالمديرون الفنيون يريدون أن يصبحوا فنانين أو مخرجين سينمائيين، وكاتبو النصوص يرغبون فى أن يصبحوا كُتابًا حقيقيين أو كاتبى سيناريو.

قليلون هم من يريدون الاستمرار فى نفس الحياة.

أعتقد أن السبب فى ذلك هو الحقيقة الأساسية التى تقول: إنك فى مجال الدعاية والإعلان لست مكرسا لمساعدة وخدمة الآخرين بحق؛ بل إنك ببساطة تحاول أن تكون أكثر نجاحًا بأى ثمن.

فى ستاربكس، نحن نعمل كفريق مكرس لخدمة الآخرين. كما أنه ليس هناك تدرج وظيفى فى العمل. ومديرة الفرع الخاص بنا، التى يبدو عليها أنها مديرتنا، تعمل إلى جانبنا وتقوم بكل المهام التى نقوم بها مثل إعداد القهوة، وتناول المسحة لتنظيف أى بقع، والتأكد من أن الحلويات طازجة وأن الزبائن سعداء بمجيئهم إلى المقهى.

ويطلق على العاملين فى المقهى "الشركاء" لأننا نعمل فى شراكة لخدمة الآخرين.

هناك نوع من العلاج قوى التأثير فى العمل فى مجتمع يضم أشخاصًا متشابهين فى الميول والأشخاص يكرسون أنفسهم لخدمة الآخرين، فليس هناك وقت لى أو لأى شخص آخر للتركيز على ذواتنا. فنحن جزء من الجهد المكثف المبذول لخدمة الآخرين.

وقد يسمى هذا بفلسفة الخدمة.

لقد توصلت اليوم إلى الإيمان بأن البشر يكونون فى أقصى سعادتهم حين يفكرون فى الآخرين ويجدون طريقة ما للخدمة وتقديم العون كل يوم.

إننى أجد ارتياحا أكبر كثيرا فى القيام حتى بأبسط الخدمات، مثل تقديم قدح من القهوة اللذيذة لشخص ما، مما كنت أجده وأنا أحاول بيع شىء ما أو أحاول الترقى فى مهنتى.

يمكنك أن تقول: إننى أعمل فى مجال الخدمة. والكثير من الناس يحتقرون مجال الخدمة كما لو أن النادل شخص أقل منزلة منهم.

ولكن خدمة الآخرين هى أعظم نعمة نمتلكها، خاصة باستخدام تلك الطرق البسيطة التى يمكننا خدمة بعضنا البعض بها كل يوم.

ألا يسترعى انتباهك بشكل خاص قيام شخص آخر بإبقاء الباب مفتوحا لك أو يدعك تدخل إلى المترو قبله؟

أو يدعك تنتهى من حديثك قبل أن يقاطعك؟

ألا يسترعى انتباهك ابتسام بائعة الصحف لك وهى تعطيك صحيفة اخترتها من كشك الصحف؟

من الممكن أن تكون أبسط الخدمات أمرا مرضيا وذلك لأن - على ما أعتقد - خدمة الآخرين بمعناها الأساسى هى ما قد خُلقنا على الأرض لنقوم به.

وأرغب فى أن أضيف أنك تستطيع خدمة الآخرين بعدة أشكال، وأعتقد أنك إذا كنت تمتلك موهبة ما وقمت بمشاركتها مع الآخرين، فإن ذلك يعد شكلاً من أشكال الخدمات، أيا ما كانت تلك الخدمة، بدءا من الغناء والكتابة إلى العمل فى الطب أو الطهى أو إعداد القهوة.

فليس هناك حدود أو قواعد للكيفية التى يمكنك خدمة الآخرين أو مساعدتهم بها. لقد التقيت مؤخرا بأشخاص عديدين أخبرونى بأنهم وجدوا أعظم شعور بالرضا فى حياتهم بإيجادهم طريقة ما لخدمة الآخرين.

ففى الأسبوع الماضى، عرض علىَّ شخص كان من ضمن الحضور فى إحدى ندواتى فى فلوريدا أن يقلنى بسيارته إلى المطار، فسعدت بقبول هذه الخدمة.

وفى الطريق، أخبرنى بقصته. فمنذ أن فتحت قلبى للآخرين وجدت أن الآخرين أكثر توقا إلى إخبارى بقصص حياتهم.

فقال لى: "لقد اكتشفت أننى مصاب بمرض سرطان الدم فى العام الماضى".

فأجبته بشكل تلقائى قائلا: "إننى آسف لسماع ذلك".

فقال الرجل: "لا عليك".

ونظر إلىّ نظرة سريعة.

"هذا ما أردت أن أخبرك به: إننى أكثر سعادة من أى وقت مضى لأننى وجدت وسيلة لمساعدة الآخرين بحق".

فقلت: "وكيف ذلك؟".

فقال: "ببساطة، سمعت عن تلك القرية التى تسمى جواتيمالا، وعرفت أن أهلها يحتاجون إلى مدرسة جديدة. ونظرا إلى أن لى صديقًا يعمل مقاولا، وأنا مهندس معمارى، ذهبنا إلى القرية لنرى إذا ما كان يمكننا أن نساعد فى شىء".

وقال ضاحكا: "وكانوا فعلا فى حاجة إلى مساعدة".

واستطرد قائلا: "كل ما قمت به كانت أعمالاً بدنية؛ لقد قضيت وقتا فى حمل قوالب الطوب وخلط الخرسانة أكثر من أية فترة مضت من حياتى، ولكننى لا أستطيع أن أصف كم كنت سعيدا بهذا".

فسألته قائلا: "وهل لا يزال الأمر مستمرا؟".

فقال: "أكيد! إننى ذاهب إلى هناك الأسبوع المقبل مرة أخرى. لقد رمينا الأساس وسوف نبدأ فى الباقى. قد لا أعيش إلى أن أرى هذا البناء مكتملا".

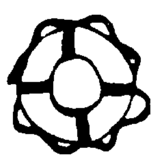
وهنا توقف عن الحديث، فقد كان من الصعب عليه أن يستمر.

وفـى النهايـة قال: "مرحـى، ما أحـاول أن أخبرك به هـو أننى فقط بمساعدتـى لتلك القريـة التى لم أسمع بها من قبـل، أشعر بشعور أفضل تجاه حياتى وكل شىء آخر".

لقد سمعت قصصًا شبيهة لهـذه القصة خلال الأشهر الأخيرة أثناء رحلاتى.

لقـد أتانى أشخاص كثيرون بعدما تحدثت عن أهمية تقديم المساعدة والحصول عليها ليخبرونى بأنهم قد مروا بهذه التجربة التحويلية.

إن الحيـاة تكون أكثر إشباعا حين تحصل على المساعدة من الآخرين وتجد طريقة لمساعدة الآخرين.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

كن متواضعا و اطلب المساعدة دون حرج.

مـن خـلال تقبل الحصول علـى المساعدة، وتقديم المساعـدة للآخرين، سـوف تجـد حيـاة أكـثر إشباعـا وسـوف تجـد طريقـا جديـدا نحـو السعادة.

اعثر اليوم على طريقة لمساعدة شخص ما.

ومهمـا بلغ صغر الخدمـة التى تقدمها، سوف تجـد أن هذا الاستعداد لخدمة الآخرين يجعل أيامك مشرقة.

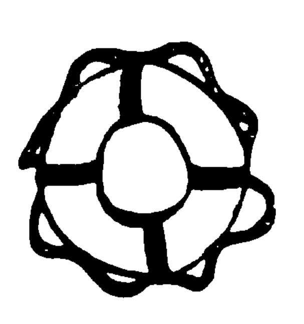


الدرس ٥

انظر... باحترام إلى كل امرئ تراه

"نعمة مدهشة، كم كان عذبا ذلك الصوت
الذى أنقذ بائسًا مثلى
فقد كنت مفقودا ذات يوم، ولكنى الآن وُجدت
وكنت أعمى، ولكنى الآن أبصرت".

ــــ جون نيوتن. "من قصيدة *Amazing Grace*"



هذه القصيدة التى تعود إلى القرن الثامن عشر تبدو لى كأنها حقيقة عميقة. لقد كان "جون نيوتن" الذى ألف كلمات هذه القصيدة، تاجر رقيق، وقد أدرك فى النهاية بعد صدمة عنيفة أن حمولته الآدمية كانت مليئة بأرواح أشخاص وليس مجرد بضائع تباع.

إننى لا أقارن نفسى بـ"نيوتن" من ناحية ممارسة تجارة شريرة وإن كانت شرعية. (فمجال الدعاية والإعلان قد يستغل الناس من خلال تشجيعهم على شراء أشياء تافهة وربما غير صحية، ولكنه لا يقارن بأى شكل من الأشكال باستعباد البشر). ولكننى أدركت أن كل شخص التقيت به فى حياتى كان يستحق أن يُرى لكينونته وليس لكونه هدفا جاهزًا ليباع له منتج إذا ما تمكنا من جعل هذا المنتج براقا بإضفاء الأهمية الكافية عليه.

فى سنوات نشأتى فى نيويورك، قيل لى: "تجنب التواصل البصرى". فلم أكن أنظر أبدا إلى الأشخاص الذين يبدو أنهم من أعراق أو طبقات أو خلفيات مختلفة عنى.

وكنت أتجنب مترو الأنفاق، فقد كان من المستحيل تجنب التلامس البدنى عند الاقتراب الشديد من هؤلاء الذين أعتبر أنهم لا يستحقون التطفل على منطقة الراحة الخاصة بى. لقد كنت أرتدى نظارة سوداء وكنت أتمنى ألا أرى أو أتواجد إلا مع الأشخاص الذين يشبهوننى.

لقد كان العالم الذى نشأت فيه مميزا وحصينا إلى درجة أن أبنائى أنفسهم يجدون أنه من الصعب تخيل مدى عزلتى عن "العالم الواقعى".

وقد تحفز ميلى إلى التواجد مع الأشخاص الذين يشبهوننى بتعليمى فى جامعة ييل. وكان كل طلبة جامعة ييل فى أيامى من الذكور، وكان معظم الطلاب ينتمون مثلى إلى مجموعة الأنجلوساكسونيين البيض، وكنا جميعا من ذات الخلفية الدينية، التى أسست مدرسة باسمها فى القرن الثامن عشر. اليوم، أصبحت ييل مكانا مختلفا يكتظ بأناس من جميع أنحاء أمريكا والعالم من كل جنس وعرق ودين وخلفية اقتصادية.

قد يبدو الأمر غريبا بالنسبة للقراء الشباب اليوم، ولكن وقت أن كنت فى ييل، كان يقال لنا، ضمنيًّا وفى بعض الأحيان صراحة، إننا كنا مجموعة مفضلة، مجموعة من النخبة.

مرة أخرى، إن فكرة أن تكون جزءًا من مجموعة "النخبة" قد أصبحت منبوذة بصورة عامة، ولكن فى أيامى، كانت هذه الفكرة شيئا يستحق أن تفتخر به.

وزاد شعورى بأننى فوق البشر حين التحقت بشركة جيه. والتر ثومبسون، وكانت الشركة تطلق على نفسها جامعة الدعاية والإعلان،

وكانــت أروقة الشركــة ممتلئة بخريجــى رابطة اللبلاب. لقــد كنا نشغل مكاتــب فخمــة فــى أعلى مبنــى جرايبار، وكانــت الأبــواب مصنوعة من القضبان الحديدية يدوية الصنع بدلا من الأبواب العادية؛ وعلى الحوائط عُلقت أعمال أصلية لـ "بيكاسو" و"شاجال".

كنــا نعمــل بعيدا عــن جلبة محطــة جرانــد سنــترال، وكان دورنا هو أن نحكــم علــى الآخريــن ونحــدد قيمتهــم، وقد علمنــا أنفسنــا وغيرنا الحكــم على الأشخاص وفقا للتصنيف الديموجرافــى، وكان الأشخاص الموســرون الشباب شديدو التهذيب حسنو المظهر هم مجموعتنا المفضلة المستهدفة.

بعبــارة أخــرى، لقــد أمضيت معظم سنــوات حياتى فــى الحكم على الأشخاص وفقا لمظهرهم وليس وفقا لكينونتهم.

لقــد كنت أقــف حارســا مشهودا علــى بوابــة إدراكى الخاص لمعنى الاستحقاق.

إننى أشكر الله على اقتلاعى من تلك الحياة العمياء. لقد أدركت الآن أن ذلك الفعل كان تدخلا إلهيا، أحمد الله عليه.

تماما مثلما تقول القصيدة: "لقد كنت أعمى ولكنى الآن أبصرت".

لقد كنت أعمى

لــو أننى لم أفصل – طُــردت خارج نادى الدعاية والإعلان ذلك – لما كنت أبصرت العالم المدهش الموجود وراء العصابة التى كنت أرتديها على عينــى. ولكن هذه النعمــة الإلهية والفرصة المتاحة للبــدء فى رؤية الناس عــن كثب بــدلا من رؤيتهــم باعتبارهم صورًا ممثلة لطبقــة أو عرق معين لم تكــن ممكنــة بالنسبة لى لو أننــى لم أنظــر إلى "كريستال" بحق حين نظرت هى لى. فرغم اختلافها عنى فى النشأة والتعليم والعرق والسنين، حــين تحدثت إلىَّ، إلا أننــى نظرت إليها بحق. وحين سألتنى عما إذا كنت

راغبا فى الحصول على وظيفة. فإننى انتزعت عصابة عينى، ونظرت فى عينيها ورأيت إنسانة طيبة وذكية وقوية قد تقدم لى يد العون.

وقد أنقذت هذه النظرة حياتى.

وبالمثل، فقد نظرت "كريستال" إلى كيانى كإنسان. وفى يوم العمل الأول، حين كنت أقف متجمدا من الخوف مثل الغزال المفزوع على باب المقهى، أخذتنى "كريستال" إلى منضدة صغيرة وقدمت لى القهوة والحلويات اللذيذة. وفى عينيها كان يوجد تفهم للصدمة التى كنت أشعر بها. لقد شعرت بالارتياح، لم أعد غير مرتاح إلى الاختلافات الظاهرية بيننا، وأصبحت مدركا أنها رأتنى وعرفت مدى خوفى وعاملتنى بشكل من الطيبة الودودة التى لمست قلبى.

ثم قدمتنى إلى "كستر". لم أكن لأختار أن يكون "كستر" مدربى فى حياتى الجديدة هذه ولو بعد مليون سنة. فحين رأيته لأول مرة كان يبدو عليه أنه من نوع الأشخاص الذى يمكن لو رأيته أمامى فى الشارع أن لعبرت الطريق لتجنبه، فقد كان يرتدى عصابة حول رأسه، ويضع سماعات على أذنيه، وكان "كستر" ذو الجثة الضخمة والقامة الطويلة والعود الصلب يبدو خطيرا بالنسبة لى.

ولكننى تشجعت ونظرت إليه حين أتى إلى المنضدة ورأيته بعينين جديدتين، وحين ابتسم لى، عرفت أن "كستر"، مثله مثل "كريستال" وشركائى الجدد الباقين، سوف يعاملنى مثلما يعامل كل شخص آخر.

وعلى الرغم من حقيقة اختلافى عنهم، فقد عاملونى بالتفهم والرأفة اللذين كنت فى حاجة إليهما، ليس لأننى كنت مختلفا عنهم، ولكن – وهو الأهم – لأننى كنت ببساطة روحا أخرى مكافحة.

وحين كنت أسقط قدحًا من القهوة الساخنة أو أرتكب أى خطأ آخر، كان "كستر" يقول لى: "الجميع يفعلون ذلك" (لقد عرفت لاحقا أن معظم

الشركاء الجدد – على العكس منى – لا يرتكبون هذه الأخطاء الحمقاء).

لقد وثق "كستر" بى دون أن يحكم علىَّ بشكل نقدى نظرا لتقدمى فى السن وافتقارى الواضح لمعرفة معظم الحقائق الرئيسية لحياة الشارع.

وبالنسبة لى، لم يعد كل شريك بالنسبة لى ممثلا لطبقة معينة أو "مجموعة مستهدفة" – وهى الطريقة التى اعتدنا النظر إلى الأشخاص بها فى مجال الدعاية والإعلان – بل شخص حقيقى.

إن جميع شركائى فى المقهى يرتدون المئزر الأخضر، وجميعنا نشترك فى نفس المهام خلال كل وردية، إلا أن كلاً منا فرد متفرد بذاته، ولكل منا حياته وقصصه الشخصية.

فعلى سبيل المثال، هناك "يامى" من باناما، وزوجها يعمل سائق تاكسى. وفى العام الماضى، حملت "يامى" وأنجبت طفلة صغيرة جميلة.

أما "جيم"، فإن حبه الحقيقى هو حياته كعازف، وهو يأتى إلى العمل ناعسا بعد أن يكون قد قضى ليلة طويلة مع فرقته، ولكن حركته أسرع من أى شخص آخر فى المقهى. إن التناسق بين عينيه ويده فى إعداد المشروبات لا يضاهى. وربما أن ذلك يعود إلى قرعه للطبول.

أما عن "كريس"، فحين يكون علىَّ أن أذهب لفتح المقهى معه، علىَّ أن أحرص على الوصول إلى المقهى قبل الخامسة صباحا بدقائق – فهو دائما ما يصل مبكرا. أما "آيا" فهى دقيقة فى إخراج فطائر طازجة. و"آيا" سوف تتركنا للعمل فى فرع ستاربكس آخر فى المدينة فى موقع يسهل عليها الوصول إلى شقتها وفصولها الدراسية.

و"ماجدلينا"، التى عادت للتو من زيارة لعائلتها فى بولندا، تعمل جاهدة لتوازن بين ورdياتها فى ستاربكس وفروضها المدرسية الشاقة.

أمـا "لانى" فهى أم مطلقة زاد وزنها أربعون رطلا فقدتها مرة أخرى بعد ميلاد ابنها الجميل.

أمـا "كارميـلا" فهى من قرية صغـيرة فى إيطاليا، وقـد عمل ابناها أيضا فى ستاربكس أثناء دراستهما فى المدرسة الثانوية.

وبالنسبة لـ "مات" فهو شخصـ اجتماعى مخلص لبناته الصغيرات وهو قادر على التواصل مع كل زبون يدخل المقهى.

"جوناثان" هو أحد أطول الشركاء فى المحل، فطوله حوالى ست أقدام وبوصتين. وهو يضفى حضورا إيجابيا على كل وردية يعمل فيها.

أمـا "جـوردان" فهو ليس بذات الضخامة ولكنـه يتفانى فى كل مهمة تساعدنى على أن أتذكر الحفاظ على تركيزى. وبالنسبة لـ"راشيل"، فإن لهـا ابتسامـة تذكرنى دائما بألا أكـون متوترا! بينمـا "مارجريت" تتمتع بالقـدرة على إدارة الصعوبات المالية، وهى تقـدم لى النصيحة المناسبة كل أسبوع.

أما "تاشا"، وهى مديرة الفرع الذى أعمل فيه، فإن لها أسلوبًا مريحًا - حتى عندما أذهب إليها طالبا المساعدة فى جدول الأعمال الخاص بى بينمـا تكون هى وسط مواقف أخـرى أكثر إثارة للتوتر. وهى تظهر شعورا بالثقة فى كل شىء سيصبح على ما يرام - مما يجعلنى وشركائى نشعر بالثقة كذلك.

أمـا "مارتن" فهو شريك لنا، وقد أصبـح الآن مدير منطقة. وقبل أن يصبـح مديـر منطقة، كان مدير فـرع برونكسفيل الـذى أعمل فيه، وقد ساعدنى على الانتقال من المدينة. وبالعمل مع "مارتن"، أصبحت أهتدى بولعـه بالتأكـد من أن المحل يـبرق بشتى الطرق، يـبرق بتنظيف كل ركن مـن أركان المحل وبابتسامته الواسعة وترحابه الودود لكل زبون يدلف إلى المقهى.

وكما هى حال شركائى، فإن كل زبائننا الدائمين متفردون أيضًا.

فـ"بيلى"، الذى يقود سيارة أجرة فى المدينة (وذلك بعد عمله كلاعب جولف شبه محترف وموظف تنفيذى كبير فى عالم الرياضة)، يكون أول من يدلف إلى المقهى حين نفتح أبوابنا فى الخامسة والنصف صباحا.

و"بيلى" يتمتع بحس فكاهى قوى؛ وهو يقدم كل يوم لنا نصيحة عظيمة لبدء يومنا.

أما "فينست" فهو أكثر زبائننا أناقة، وهو يأتى فى السادسة والنصف، ودائما ما يأخذ "فينى" لنفسه مشروب الفينتى لاتيه بينما يأخذ الفينى كوفى لزوجته.

بينما يأتى "فرانك" فى السادسة والنصف أيضا مرتديا ملابس نومه ليأخذ مشروب الكواد لاتيه منزوع الدسم الأول له فى اليوم، ثم يأتى مرة أخرى فى وقت لاحق من اليوم ليأخذ مشروب اللاتيه الثانى - ولكنه يكون مرتديا ملابس أنيقة هذه المرة - قبل أن يذهب إلى نيويورك أو يسافر إلى أمستردام ليتابع عمله كثير الأعباء فى مجال الأنسجة.

أما "ليزا" فهى تعمل لساعات طويلة فى إحدى شركات شارع وول ستريت إلا أنها لا تنسى أبدا تناول مشروب فينتى كوفى - المركز - لتبدأ يومها.

"أليكس" أيضا ليس لديها وقت فراغ كبير، فهى فى طريقها إلى إذاعة الأخبار من أحد الإستديوهات فى المدينة. أما "كريستينا" فهى فى طريقها أيضا إلى الخدمة فى أحد المستشفيات فى المدينة. أما "أليس" فهى طبيبة وهى تذهب كل يوم إلى مانهاتن وذلك بعد أن تتوقف لدينا لفترة وجيزة جدا. (هذا على الرغم من أن هناك مقهى ستاربكس فى الدور الأول من المستشفى الذى تعمل فيه!).

نأتـى لـ"نانسى" التـى كانت تعمل ممثلـة ولكنهـا الآن أم من أمهات برونكسفيل متفانية فى التأكد من أن أطفالها يحصلون على أفضل تعليم فـى المدرسة المحلية الحكومية، وهى واحدة من بين مجموعة من الأمهات اللاتـى يأتـين إلى المقهى بعد توصيـل أطفالهن إلى المدرسـة؛ ودائما ما يشتركن فى منضدة واحدة، ترتفع منها أصوات الضحكات.

أمـا "كونى" فهى من مواليد اليونان، وهى تأتى إلى المقهى بعد العمل فى صالـة الألعاب المحليـة وتعلو وجههـا ابتسامة مميـزة للحصول على "مكافأتها" ألا وهى مشروب لاتيه خالى الدسم كبير الحجم.

أمـا "لـو" فيأخذ كوبًا كبـيرًا من القهـوة بالثلج، حيـث توضع بضعة مكعبـات مـن الثلـج علـى القهـوة لتبردهـا، وأنـا الوحيـد المتقـدم فى السـن بشكل كاف لتذكر هذا التعبير من أيـام شبابى. فى بعض الأحيان بعـد الانتهـاء مـن ورديتى أجلس مـع "لـو" وأشاركه بعضًا مـن ذكريات مصاحبـة "فرانـك سيناتـرا" و"توتـس شـور" فـى أيام مجـد مقاهى نيويورك.

أحـد زبائننا المفضلين عاشق لشرب الشـاى؛ إنه "مايك دافى" الذى يأخـذ كوب شاى كبيرًا يرتشف منه على مدار اليوم. إنه رجل طيب يشعر بالسـلام مع نفسه ومع العـالم إلى درجة أنه يشيع فـى المقهى كله شعورًا بالسكينة.

أما "بلايز" فلم يكن يعمل حين التقيت به فى المرة الأولى منذ عامين، ولكنـه حصل علـى وظيفة مدرس فى أحد أكـثر مدارس نيويورك تحديا، وهو يحب هذه الوظيفة.

و"ماريا" أيضا مدرسة مخلصة لعملها، وهى تأتى كل يوم مبكرا لتناول القهوة لتبدأ يومها الملىء بالمشاغل. وهى لا تكون أبدا فى عجلة من أمرها لدرجة تمنعها من أن تنادى كل شريك فى المقهى باسمه وأن تتمنى لكل منا صباحا سعيدا قائلة: "طاب صباحكم!".

حين فتحت عينى حقا، استطعت أن أرى ذلك الجانب المضىء الفريد للروح التى خلقها الله فى كل فرد التقيت به.

لقد كانت كل روح مختلفة عن روحى وعن غيرها من الأرواح الأخرى.

عندما خلعت العصابة عن عينى، تكشفت لى مجموعة مختلفة من الأشخاص. واليوم، أدرك أن كل شخص ألتقى به لديه القدرة على الارتقاء بحياتى. إن هناك حقيقة أساسية فى مقولة: "التنوع هو توابل الحياة". حين نفتح أعيننا حقا، سنرى أن هذا الكون المنوع هو بهجة حقيقية. فى شهر أكتوبر من هذا العام، كنت أشعر بالدهشة من جمال كل ورقة شجر تسقط من السماء أو تصدر حفيفا عند موطئ قدمى وأنا سائر.

لقد انتهيت الآن إلى الإيمان بأننا جميعا قد خُلقنا لنحيا حيوات مختلفة، فلا ينبغى على أحد أن يحيا أو يبدو مثلى أو مثل أى شخص آخر.

إن كل فرد يعكس رؤيته وروحه الخاصتين فى الحياة.

إننى اليوم أتواصل بصريا مع كل شخص أراه بسعادة وامتنان.

لقد كانت البصيرة المفتوحة هبة عظيمة بالنسبة لى!



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

بينما تسير فى الشارع اليوم، تأكد من أنك تتواصل بصريا مع كل شخص يمر بك.

سوف ترى ذلك الضوء الفريد فى عينى كل شخص تحييه.

تذكر: إننا لسنا ما يدل عليه مظهرنا وإنما ما تعبر عنه شخصيتنا.

الدرس ٦

تعلم... من أبنائك

"إننى أسمع أمريكا تغنى".

— *والت ويتمان*

فـى السنة الماضيـة، تعلمت من ابنتى "لـورا" كيف أحول الأحلام المثالية إلى حقيقة عملية.

ففى شهر يناير مـن العام الماضى، كنت أشاركها ليلة تاريخيـة فى العاصمة واشنطن فـى "حفل لطاقم العمل" لـدى تولى "أوباما" الرئاسة. لقد كنت هنـاك لأننى ساعدت ابنتى، التى أصبحـت إحدى مساعديـه، فى طواف المدن والدعـوة لانتخاب "أوباما" والتأكد من أن الناس سيدلون بأصواتهم يوم الانتخابات.

نهض "أوبامـا" للتحـدث دون الاستعانـة بملاحظـات أو ملقن. كان الحضـور مقتصرا على "أوباما" وحوالى ألف من الشباب، كان معظمهم فى أوائل العشرينيات – وأنا.

لقد حصلـت "لورا" على تذكرة لنفسها وتذكـرة أخرى لضيف واحد لحضـور هذا الحفل المقـام لـ"طاقم العمل فقط". وقـد أعطتنى أنا تلك التذكرة الإضافية النفيسة.

وحولنـا، كان أفـراد فرقـة العمـل الشابـة، الذيـن عملـوا وخططوا على مـدار الوقت لشهور بـل لسنوات لمساعدة "أوبامـا" على النجاح فى

الانتخابات الرئاسية، يصطفون بجانب بعضهم البعض. لقد كان هذا هو آخـر حفل يقام احتفالا بتوليه الرئاسة، وكان من الواضح أنه و "ميشيل" - زوجتـه - مسترخيـان وسعيدان بوجودهما هنـاك. اتخذت "ميشيل" لنفسها مقعدا على المسـرح، وتناول "أوباما" ميكروفونا وتقدم إلى حافة المسرح كما لو كان يرغب فى الاقتراب من الحضور.

كان جميع الحضور يهللون ويصفقون. كان بإمكانك الشعور براحتهم وسعادتهـم، فلقـد جمد كل منهم حياتـه - مثلما فعلـت ابنتى - وتركوا أسرهـم وأصدقاءهـم وأخـذوا يعملـون جاهدين لهذه اللحظـة، وها قد أصبح "أوباما": "سيادة الرئيس".

ولكـن ما إن نطق "أوباما" أولى كلماتـه. صمت ذلك الحضور الغفير فجـأة. لقـد ذُكـرت بمـدى الانضبـاط الـذى كان عليـه هـؤلاء. لم يكن هـؤلاء المثاليين مـن جيل وودستـوك، على استعـداد كبير لـ "التسرب" مـن العـالم الحقيقى. لقـد كانـت "لـورا" وأصدقاؤهـا أناسًـا عمليين، أو بالأحـرى أناسًا لطفاء يرغبـون فى أن يكون العـالم مكانا أفضل. لقد كانوا يتمتعـون بالطاقة المركزة المنضبطة التـى كان جيلى للأسف يفتقر إليها.

لقد راقت حملة "أوباما" إلى شخصية "لورا" بقوة. فمنذ سن مبكرة، لم تكـن "لـورا" تطيق ما ترى أنه ظلم. لقـد كان أصدقاؤها فى المدرسة هـم هـؤلاء الذين تشعر بأنهم فـى حاجة إلى مساعدتهـا، وكانت "لورا" مستمعـة رائعة، وهو أمر نادر فى عائلتنا. لقـد كانت تشعر بالتعاطف مع ثقل التمييز ضد كل الأقليات، كما كانت تمقت أى نوع من الظلم.

وعندما أصبحت أكثر نضجا، أصبحت لا تطيق أية نكات أو ملاحظات ساخرة حـول أى شخص لا يتمتع بنفس امتيازاتنا. لقد كنت أؤمن لمعظم حياتى الموسرة بأننى أستحق حظى الجيد.

وكانت "لورا" تقول لى: "أبى، إنك لا تدرك ما يعانونه. لقد كان لديك كل شىء حين ولدت!".

لذا حين رأتنى وأنا أعمل فى ستاربكس - ورأت كم كان علىَّ أن أجاهد لأحافظ على كل جوانب العمل إلى جانب أشخاص آخرين لم يتلقوا أبدا تعليمهم فى ييل ولم يحصلوا على أية فوائد أخرى - شعرت بالسعادة.

وقالت لى حين أتت لى للمرة الأولى لترانى خلال ورديتى: "أبى، لقد بدأت تدرك الأمر أخيرا".

لقد أدركت "لورا" أننى أصبحت أحترم الأشخاص من كل خلفية. لذا حين طلبت منى مساعدتها فى مهمتها الخاصة بانتخاب "أوباما"، انتهزت الفرصة.

وقبل أن تلتحق بهذه الحملة، كانت "لورا" تعمل مدرسة فى فيلادلفيا، وقد تركت هذا الدور من أجل ما اعتبرته فرصة لتحسين فرص هؤلاء الأقل حظا ومساعدة هؤلاء الذين يتمتعون بالقليل من الامتيازات.

لقد اندهشت حين قمت بزيارة لـ"لورا" فى المكتب الذى خصصته لخدمة حملة "أوباما". وكان يجتمع فى أرجاء المكتب حوالى ثلاثين رجلاً أبيض فى منتصف العمر. لقد كانت "لورا" تلقنهم التعليمات بشأن الأماكن التى يطوفون فيها الليلة لجمع أصوات الناخبين، وكانت الحملة تحبذ أن يقوم المتطوعون من كل منطقة بزيارة جيرانهم ويجيبوا عن أسئلتهم حول "أوباما"، وربما يدفعوهم إلى التصويت لصالحه.

وقد أرسلتنى "لورا" مع بعض من هؤلاء المتطوعين إلى حى غالبية سكانه من الجمهوريين.

وقد قيل لى: "إن ابنتك مدهشة، إنها لا تعمل باجتهاد فحسب، ولكنها قامت بصنيع عظيم بتنظيمها الفعال لهذا الأمر برمته".

لقد كان هؤلاء الرجال يشغلـون مناصب عليا فى الشركات الأمريكية وكانـوا يحترمون الفاعلية والعمل الجاد. لقد كنت مندهشا من أن "لورا" المتواضعــة، كانت تتحــرك وهى تحمل مثل هــذا الشعــور بالسلطة. وهى الآن فــى حفل تنصيب للاحتفال بانتصــار غير متوقع بعد كل ذلك العمل الجاد.

نظــر الرئيســ "أوبامــا" المنتخــب حديثــا إلى ذلك الحشــد الساكن المترقب.

وقال: "إنكم صغار جدا فى السن".

استقبــل الحضور ملاحظتــه تلك – التى قالها وكأنــه لا يكاد يصدق نفسه – بالضحك الصاخب.

لقد اندهشت من مدى دهشــة "أوباما" وهو يذكر تلك الحقيقة. كان بإمكانك أن تــرى ذلك، فحين كان ينظر إلى تلك الوجوه التى تنظر إليه، كان مندهشا جدا من صغر سنهم.

ربمــا لأن أى سياسى لن تكون لديه الشجاعة للتصريح بتلك الحقيقة لأنهــا قد تكون سلبية بالنسبة له، ولكن "أوباما" لم يتواجد معهم ليتعالى عليهم ولكن ليقر بالحقيقة المدهشة.

ثــم قــال: "لقد أصبحتــم أكثر أناقة منــذ رأيتكم فى أيــوا"، وهنالك انفجر الحضور فى الضحك وصفقوا لأنفسهم بقدر ما صفقوا له.

لقد اجتهدت ابنتى "لورا" وخطيبها وأصدقاؤهما بشكل خاص لارتداء رابطات العنق والفساتين تلك الليلة، وكانت "لورا" جميلة جدا.

وحين هــدأ الضحك، قال "أوباما": "إنكم لم تكونوا تدركون أن الأمر كان مــن الممكــن ألا ينجــح، ولم تتصــوروا أنــه كان من الممكــن ألا تتلقوا التبرعــات التى كانت قيمة كل تبرع منها خمســة جنيهات عبر الإنترنت، ولم تدركــوا أنه كان من الممكــن ألا تتمكنوا من أن تفتحوا موقعًا إلكترونيًّا

فـى إيداهو وأن ترسلـوا لى بريدًا إلكترونيًّا تخبرونـنـى فيه بأنكم تهيئون الولاية لى!".

فضحكت ابنتى وأصدقاؤها. لقد أدركوا حينها كم الجنون والاستحالة التى كان عليها الأمر برمته، ومدى إبداعهم كذلك.

ثـم أضاف قائـلا: "إنكم لم تدركوا أنه كان مـن الممكن ألا تستطيعوا القيام بذلك؛ لذا نجحتم فى القيام به!".

هنا علت الأصوات بصوت نشيد الحملة وشعارها.

فأخـذ صوت ألـف شاب يتغنى بـ: "نعم نستطيع، نعـم نستطيع، نعم نستطيع". والذى أصبح نشيدهم لعدة مرات من اليوم.

لقد كنت مع "لورا" فى مقر "أوباما" الرئيسى حين اجتمع فريقها مع باقى المتطوعين من الحى لمشاهدة أولى مناظرات "أوباما" مع "ماكين". قبـل المناظـرة. تنـاول الجميـع المشروبـات وكعـك البراونى ثـم جلسوا يشاهدون أغنية "نعم، نستطيع" على موقع يوتيوب ويتغنون معها.

لقد كانت تلك الأغنية هى النشيد العسكرى. لقد كانت النشيد الوطنى بالنسبة لهم، كانـت نشيد الاحتجاج الخاص بجيلهم، فهم لم يقولوا أبدا "لربمـا نستطيـع فى يوم ما". لقد أشاعوا هـذه الرؤية المفعمة بالأمل فى الوطن وغيروا أمريكا.

لقد امتلأت قاعة المؤتمرات الضخمة فى العاصمة واشنطن بينما تعلو أصواتهم بما أصبح بعد ذلك بمثابة نشيد الانتصار:

"نعم، نستطيع!".

فقال "أوباما": "نعم، لقد استطعتم!". وحين سمعوه يتحدث، انخفض صوتهم، ثم أخذوا ينشدون قائلين: "نعم، وأنت أيضا تستطيع!".

وبـدأ الإنشاد القوى يعلو مرة أخرى، ولكن "أوباما" رفع يده. فسكنت الحجـرة. لقـد كان لـدى تلـك المجموعة مـن "الشباب الصغـير" حس

للسيطرة على الحشود لم أره من قبل. فمنذ دقيقة واحدة كانوا يصيحون ويهتفون كالثوار وهم يهجمون على الحواجز، وفى اللحظة التالية، وبإشارة من "أوباما"، يسكنون إلى درجة أنك تستطيع أن تسمع صوت احتكاك حذاء "ميشيل" بالأرض وهى تعدل من جلستها لترى زوجها بشكل أوضح.

توقف "أوباما" عن الحديث.

وقال: "انظروا، لا تدعوا أحدًا أبدا ينتزع منكم هذه الروح. لقد أسهمتم فى أن يكون هذا الوطن أفضل حالا، وأن يكون العالم أفضل حالا، فلا تدعوا أبدا أى شخص يقول لكم، إنكم لا تستطيعون!".

لدى قوله هذا، علا هتاف آخر. ولكن "أوباما" لم يكن قد انتهى من كلامه، فرفع يده كى يلزموا الصمت مرة أخرى. كان يبدو لى فى هذا الحين وكأنه أب وليس رجلاً يحتفل بإنجاز عظيم. لم يكن "أوباما" متواجدا هناك ليقود موجة استحسانهم له، فقد أدركت فى هذا اليوم أن "أوباما" لم يكن من ذلك النوع من السياسيين أو الأشخاص الذين يهتمون بالشعبية أو استحسان الحشود لهم، فطرأ على بالى فجأة: أنه معلم. لقد كان يحب التدريس. لقد تذكرت أنه كان أستاذا للقانون.

أخبرهم "أوباما" قائلا: "لا تنتظروا أربع سنوات أخرى. لا تنتظروا انتخابات رئاسية أخرى. لا تنتظروا سنتين، أو شهرين، أو أسبوعين. غدا، مهما كان ما تقومون به، ومهما كانت وظائفكم ومهما كانت الأحياء التى تقطنون بها، تذكروا ما فعلتموه: وتذكروا أنكم جعلتم من أحيائكم أماكن أفضل".

وكنت أرى "لورا" وأصدقاءها وهم يومئون برؤوسهم بينما كان "أوباما" يقول كلمته هذه. لقد أدركت أنه بغض النظر عما حققه "أوباما" كرئيس – سواء كان ناجحا أو غير ناجح فى كل التغييرات

التــى أراد أن يجريهــا فى أمريــكا - *لقد غير حياة "لــورا" وأصدقائها إلى الأبد.*

وقــف "أوباما"، وهو لا يزال مبتسما وسعيدا وفخورا بهم لما قاموا به. ورغــم أنه كان مــدركا أن ذلك لم يكن مكانا لإلقــاء محاضرة جادة، فلم يستطــع أن يمنع نفســه من إضافة نصيحة أبوية أخــرى قائلا: "لا تنسوا أبدا أنكم تستطيعون تغيير العالم!".

ولكــن عند هذه النقطة، كانت كلمات "أوباما" جزءًا من موجة عارمة مــن الأصوات المبتهجة، لقد انتظرت "لــورا" وأصدقاؤها واجتهدوا كثيرا لإيقاف الهتاف فى هذه المرة.

وهنــا، وقفت "ميشيل"، وأخذ "أوباما" بيدها، وكانا يستعدان لمغادرة المســرح. قد لا يرى معظــم هؤلاء الشباب أوبامــا وزوجته عن قرب هكذا مرة أخرى.

لقــد لاحظت أن عينى "لورا" البنيتــين كانتا مغرورقتين بالدموع. لقد كانت تلك هى اللحظة التى عملوا جاهدين من أجلها. والكثير مثل "لورا" قــد فكــروا أنه رغم كل الاجتهــاد الذى بذلوه - مثل هــذا الانتصار، مثل العديــد مــن الأحلام المفعمــة بالأمل - ربما لم يكن ليحــدث أبدا. وحتى الليلــة كان الكثير فى حالة من عدم تصديــق أنهم قد أسهموا فى تحقيق ذلك الانتصار المدهش.

ثــم صاح قائلا للمــرة الأخيرة: "إننــى أيضا أحبكــم!"، ثم ذهب هو و"ميشيل" محاطين بحرس الأمن الخاص بالرئيس الجديد.

واستمر الهتاف. ليس فقط لثوان، بل لدقائق.

لم أكــن أعــرف أبــدا أن "لــورا" من الممكــن أن تنضــم إلى مثل تلك التظاهــرات الشعبيــة. ولكنهــا الآن وأصدقاءهــا يصيحون مــن قلوبهم، ويحتفلــون بما يدركون أنه أحد أعظم تجاربهم فــى حياتهم، وفى حياتى

أنـا أيضا. لقد خطر ببالى فى هذه اللحظـة التاريخية، أنه لولا ابنتى، لما كنت أبدا جزءا صغيرا من هذه الروح الجديدة.

وتعهـدت لنفسـى فى تلـك الليلة بأنـه حتى رجل مسـن مثلى – يكبر كلَّ مَـن فى تلـك الغرفة بعقـود – يمكن أن يحـاول أن يجعـل من العالم مكانـا أفضـل – بـدءا مـن وظيفتى والحـى الـذى أقطن بـه، مثلما قال "أوباما".

وبغض النظـر عمـا يفعله أوبامـا أو لا يفعلـه كرئيـس – وأنا متيقن بصفتـى شخصًـا عايش العديد مـن الإدارات الفاسـدة – سوف يرتكب نصيبه من الأخطاء، ومع ذلك، فلقد غير حياتى.

لم أكـن لأخوض تلك التجربـة، إن لم أكن مستعـدا للتعلم من ابنتى. لقـد كان التعلم من ابنتى "لـورا" بمثابة أعظم تجارب التعلم التى مررت بها فى حياتى.

فـى الواقع، أصبحت الآن مدركا أننـى تعلمـت دروسًا حياتية قيمة من جميع أبنائى.

لقـد تعلمت من كبرى بناتى، "بيسـ"، قيمة الجمع بين تقدير العمل والحسـ الفكاهـى الرائـع والـولاء لنوع مـن الفـن لم يكن سهـلا أبدا. ورغم ضعـف احتمالية ذلك، أخرجت "بيس" وألفـت بعضًا من الأفلام الرائعة.

لقد كانت سعيـدة لبدئها كعاملة مجتهدة لـدى "مارتن سكورسيس" بعـد تخرجها فى مدرسة السينما بجامعة نيويورك. لقد كانت قادرة على أن تجد طريقة للعمل مع أصحـاب شركة ميراماكس للإنتاج السينمائى. لقد عرفتنى حتى على والدتهم الرائعة "ميريام".

وبالاستعـداد للقيام بأى شىء بداية مـن القيام بالمهام اليومية وحتى المساعدة فى إقامة حفلات هوليوود للدعاية لفيلم *The Crying Game*،

تسنى لـ"بيس" أن تخرج فيلما بنفسها. لقد أتى كل ذلك العمل الجاد بثماره.

الفيلم الذى أخرجته "بيس"، والذى يحمل عنوان *The Goldfish Memories*، هو كوميديا رومانسية تدور أحداثها حول مدى السرعة التى ينسى بها الناس الحب ويجددونه بها، وأن إيجاد الحب الحقيقى فى النهاية هو شكل من أشكال الإخلاص بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ويأتى العنوان من حقيقة أن السمكة الذهبية (*Gold Fish*) معروفة بأنها تفقد ذاكرتها بسرعة إلى درجة أنها بمجرد تحريك الحوض الذى تعيش فيه فإنها ترى كل شىء كأنه جديد.

ومن ابنتى "آنى" التى تعمل ممثلة تعلمت أن أتحلى بالشجاعة، فهى لا تخشى الظهور فى تجربة أداء بعد الأخرى، وفى عروض مسرحية خارج مسارح برودواى، على الرغم من قلة فرص التمثيل على أى من مسارح مدينة نيويورك التى تتسم بالتنافسية العالية.

وذات مرة شاركت "آنى" فى تقديم عرض *Our Town* التابع للمدرسة الإعدادية. ما إن صعدت "آنى" المسرح وبدأت فى التحدث، حتى بدت كأنها روح نيرة أضاءت المسرح. لقد جذب حضور "آنى" القوى والإيجابى كل أنظار من حولها. لقد نالت إعجاب كل الحضور على الفور.

لقد كنت تواقا إلى مشاركتها فى الاهتمام الذى حصلت عليه لدرجة أننى دخلت إلى الكواليس وسألت السيد "جود" الذى كان المدرس المسئول عن هذا العرض عما إذا كان يستطيع إيجاد دور لى ألعبه أمام "آنى".

وفى العرض التالى لـ"آنى"، وجد لى دور طبيب ريفى.

لقد كنت سعيدا جدا.

ولكننى أخفقت فى ليلة الافتتاح.

وفـى حالتى المتوترة تلك، نسيت نصف سطـور دورى، ولحسن الحظ أن "آنـى" كانت قد حفظت دورى بالإضافـة إلى دورها وأرشدتنى خلال المشهـد الوجيز الذى مثلنـاه معا، ولكن هذا كان بمثابة درس آخر لى وهو أنَّ مشاركتـك لأبنائـك فى بعض الجينـات لا تعنى أنـك تملك مواهبهم الخاصة.

ابنى "تشارلز" هو مثال جيد آخر على ذلك.

لقد تعلمت من "تشارلز" أهمية أن تقوم بما ترغب فى القيام به، ولكن بنوع من الكياسة. إنه يعمل مدرسا فى مدرسة زراعية فى ماساتشوتست، حيث يخرج الأطفال الذين يسكنون فى وسط المدينة ليقضوا عدة أيام فى العمل والمساعـدة فى إنتاج الأغذية العضويـة الطبيعية. قال لى تشارلز: "إن الكثـير من هؤلاء الأطفال لم يـروا سماء زرقاء من قبل. فى البداية، يجـن جنونهم ويستبقون فى أرجاء الحقول، بعد ذلـك يأتون معى للقيام بالأعمـال الخاصة بـى ويتعلمـون كيفية المساعـدة فى تغذيـة الماشية أو صناعة عجينة طازجة أو تحضير شراب القيقب.

يتسـم "تشارلز" بالعدل والحـزم والمرح مع الطـلاب الصغار الذين يزورون مزرعته التى تقع أعلى التلال.

إنـه يملك موهبة، وهى التدريـس دون تعال على الأطفال الذين يدرس لهم، الذيـن يصغرونه كثـيرا. إنهم يكتسبون حبه للعـالم الخارجى، بكل فصولـه الطبيعيـة ومحاصيلـه. لطالما كان هـذا العالم مصـدرا للإلهام بالنسبة لى.

لقـد تعلمـت الكثير أيضا مـن قدرته على أن يظـل متناغما مع القوى الطبيعية للحياة وأن يحتفظ بحس سرعة هادئ فى هذا العالم.

لقـد ذهبت لقضاء ليلـة مع "تشارلز" منذ شهريـن. فى اليوم التالى لوصـولى، كنت أتناول البيض المخفوق الذى أعده لى بسرعة كبيرة. فقال

لى "تشارلـز": "أبـى، لا تـأكل بسرعة. فالدجـاج ينتج لنا هـذا البيض لنستمتع به... بتأن".

لقد اعتدت على الأكل بأقصى سرعة ممكنة، وتشارلز يساعدنى على تذوق كل قضمة.

دائمـا مـا يذكرنى "تشارلـز" بـأن كل الطعام الـذى نتناوله هو ناتج لرعايتنـا للعالم الطبيعى وتفاعلنـا مع من حولنا، ولذلك ينبغى أن نعامله بتقدير حقيقى.

ومـن أصغـر أبنائـى، "جوناثان"، تعرفـت على متعة الخيـال الطلق والمبتكر، وعندما كبر "جوناثان" - بسرعة كبيرة، فهو فوق السادسة الآن - أصبح أكثر موهبة فى تحويل كل أنواع المواقف إلى مغامرة جديدة، وكل ساعة من يومه مليئة بنوع من القصص الخيالية: القطارات أو السيارات أو تغير السحب فى السماء، كلها أسباب لملء قلبه وعقله وروحه بالتساؤل وبحس جديد بما قد يكون ممكنا، وتجده يأتى برواية جديدة لكل مشهد؛ فالسيارات تصطدم؛ والقطارات تسير عبر العواصف، والعواصف نفسها ستجعـل سيارات الإسعاف تسرع لإنقـاذ أسرة تقيم بجانب فيضان النيل بسبب الأمطار. وكل مشهد درامى يستحضره فى عقله يبدو أنه يثير لديه قصـة جديدة. لقد بـين لى أن الحياة يمكن أن تكـون أكثر مرحا إلى حد كبير حين تعاش كتجربة عفوية مبتكرة.

لقد بين لى كل أبنائى موهبة عدم الحكم على الآخرين أو حتى الحكم علـى ما نقوم به فى هذه الحياة، ولكن التقدم فقط لاحتضان الحياة بكل إبداعها المثير للحياة.

أشعـر بأننـى قد تعلمت فـى تلك السنـوات الأخيرة مـن أبنائى أكثر ممـا تعلمت فى الحجـرات الدراسية الخانقة فى جامعة ييل أو فى مكتب الشركة محكم الإغلاق.

بإمكانك أن تتعلم من الأطفال جميعا أيًّا كانت علاقتك بهم. يمكنك أن تتعلم من أبناء وبنات إخوتك، ومن أحفادك، بالإضافة إلى أبناء أصدقائك الذين يدخلون حياتك مصادفة خلال يومك أو خلال عمرك كله.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

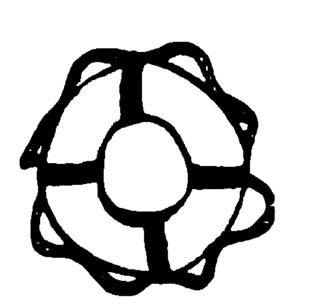
توقف عن إعطاء الأطفال نصائح حول الحياة لوهلة، وتعلم منهم. فى كثير من الأحيان، يكون لدى الأطفال توجه نحو الحياة يمكنه أن يساعدك على اكتشاف طريقة جديدة للعيش.

الدرس ٧

تعلم من... أبيك

"اعلم أن القاعدة الأولى فى الحياة هى أن تقضى وقتا طيبا؛ واعلم أنه لا توجد قواعد أخرى".

ـــ *"برندان جيل"*



لقد تعلمت الكثير من الدروس القيمة من أبى، كما أنه حتى بعد موته لم يتوقف أبدا على أن يعلمنى.

لقد قمنا بإحياء ذكراه التى أثارت لدى الكثير من الذكريات السعيدة، والتى أعطتنى القوة للمضى قدما فى حياتى.

من أغرب الأشياء وأروعها فى الحياة أن أبى أصبح متواجدا معى الآن بطرق مختلفة أكثر من أى وقت مضى. ورغم أن جسده قد رحل، إلا أن روحه المفعمة بالحياة حاضرة الآن بشكل مؤثر أكثر مما سبق. ويتمثل ذلك الحضور فى الشعور المثير الذى انتابنى حين اجتمعنا لنودعه الوداع الأخير. لقد توفى أبى منذ أكثر من عشر سنوات، ولكن جنازته، التى اتسم جوها بالمرح والبهجة، لا تزال حاضرة فى ذاكرتى.

فى سنواته الأخيرة، حضر أبى الكثير من الجنازات، وخرج منها بعدة قواعد.

١. لا تدع أحد يتكلم: فالجميع يجاملون.

٢. اجعل وقت العزاء قصيرا: فكلما قصر الوقت كان ذلك أفضل.

٣. خذ الأمر ببساطة؛ فالموت يفوز إذا ما أخذته على محمل الجد.

أتذكر أنه عندما كان أبى يقوم بتأبين أشخاص مهيبين ومهمين إلى حد ما، فقد كانت قاعة حفل التأبين تهتز من الضحك.

وقد أقمنا الاحتفال بذكراه فى قاعة تاون هول ثيتر (مسرح قاعة المدينة) بنيويورك، وقد عملنا جاهدين للتيقن من أن هذه التجربة ستكون سعيدة للجميع.

وقد دعونا أصدقاءه من جميع عوالمه: مجلة نيويوركر، حيث عمل لأكثر من ستين عاما، وأصدقاءه الذين حارب إلى جانبهم من أجل الحفاظ على مدينته الحبيبة فى أفضل حالها، وأصدقاءه من عالم الأدب والمسرح، وأفراد أسرته وأفراد أسرته "الشرفيين" الذين احتضنهم، وأصدقاءه القدامى من الجامعة، والأهم العامة من الناس.

لقد كان أبى يؤيد دائما فكرة أن تكون احتفالاته مفتوحة لجميع سكان مدينته الحبيبة. لقد كان يحب حقيقة أن الجميع مدعوون إلى احتفاله المفتوح.

لقد كان عرضا رائعا.

لطالما أحب أبى التحدث، حيث كان يتحدث بلباقة وتأثير إيجابى نادرين، وكان المتحدثون فى جنازته من ذلك النمط المهيب نفسه.

"جورج بليمبتون" - المؤسس والمحرر والناشر للمجلة الأدبية ذا باريس ريفيو ومؤلف العديد من الكتب الأكثر مبيعا، والذى ظهر فى الكثير من الأفلام مثل *Good Will Hunting* - جعل كل الحضور فى المنزل ينهضون ويصفقون له للصورة التى قدمها عن أبى.

بدأ "جورج" كلامه قائلا: "إننى أتخيل "برندان" الآن فى نزل فى حديقة غَنَّاء يسمى "سياج الشجيرات"".

وهنالك ابتسم الحضور حيث تذكروا أبى وهو يقول ويكتب أنه يريد أن يموت "بالقفز فوق سياج من الشجيرات".

كان أحد الدروس التى أوضحها لى أبى من خلال نموذجه المفعم بالحيوية أن المرء إذا ما اعتزم السير، فربما كان عليه أن يركض! لقد أحب فكرة أن الحياة ينبغى أن تعاش بحالة من التقدم الجنونى البدنى والعقلى إلى الأمام، وقد عاش هو كل يوم من حياته على هذا النحو.

لقد علمنى أبى أننى يجب أن أحيا هذه الحياة وأنا فى حالة من التأهب الدائم للمغامرة المثيرة التالية. وإليكم هذا المثال على ما أقول: كان أبى لا يطيق الألعاب المنظمة، ولكن أحد أصدقائه القدامى ويدعى "جاى لافلين" - الذى أسس دار نشر نيو دايريكشنز وكان جارا لنا فى ضاحية نورفولك - أصر على أن يخرج معه للعب الجولف فى العطلات الأسبوعية التى يقضيها أبى فى الريف. ونظرا لأنه يحب "جاى"، كان أبى يوافق على قضاء بعض الوقت معه فى ملعب الجولف، ولكن لو أنك رأيت أبى وهو يلعب الجولف، كنت ستفهم ولعه بالحركة المستمرة إلى الأمام. لقد كان يجرى بالفعل بعد كل رمية ولا يتوقف إلا ليضرب الكرة فقط ثم بعد ذلك يطاردها.

ومن الممكن تلخيص توجه أبى الخاص بالكيفية التى يجب أن تعاش بها الحياة فى البيتين التاليين للشاعر "أندرو مارفيل":

مع أننا لا نستطيع أن نوقف حركة شمسنا

إلا أننا سنجعلها تجرى حسبما نحب!

إن فكرة أنه يريد أن يقفز فوق سياج من الشجيرات ليرحل عن الحياة ترمز إلى طريقة أبى الشجاعة البهيجة التى اختارها لمواجهة أعظم التحديات.

واستطـرد "جـورج" يقول: إنه يستطيع رؤية أبـى وهو فى نزل "سياج الشجيرات" فى الجنة – والتى ستكون، بالطبع، مليئة برموز أدب آخرين – يقوم بإلقاء محاضرة على كل كاتب آخر حول كيفية العيش وكيفية الكتابة.

قال "جورج": "يمكننى أن أرى "برندان" يلقى محاضرة على "هنرى جيمس" وهـو سعيد حـول كيفية مواصلـة تأليـف أحـداث القصة. هل هنـاك أى شخص يمكنه الكتابـة بسرعة "برنـدان" واندفاعه؟ هل كان هنـاك أحـد أكثر ضيقا بالغرور منـه؟ أنا أيضا متأكد مـن أن "برندان" لـن يعارض سؤال "إديـث وارتن" حول كيفيـة العيش والكتابـة فى أعلى طبقات المجتمع فى نيويورك القديمة. وهل أحب الحياة الاجتماعية مثلما أحبهـا "براندان" واقتنع مثله بأن الحفـلات أفضل مكان لاختبار الحياة والاستمتاع بها".

وأنهى "جورج" حديثه قائلا: "لقد أشاع "برندان" بعدًا جديدًا تماما للحياة وللضحك فى العالم الآخر".

ضحك الحضور فى إقرار مـرح لعاطفة أبى السرمدية للأدب ولكونه جزءًا من التيار الاجتماعى المثير فى الوقت ذاته.

لقـد كانت حياة أبى درسا لكل من يطمح فى أن يحيا حياة فنية، ليس عليـك أن تحيا كالزاهد لكى تحقـق أعمالاً فنية عظيمة، ولست فى حاجة إلى أن تختبئ بعيدا فى برج عاجى. لقد أثبت أبى بنموذجه أنك تستطيع أن تكون كاتبا عظيما ومشاركا حماسيا فى الحياة.

وقد أنهى "جورج" تأبينه بذكر كم ما كرسه أبى من وقته وقلبه لحماية – وتشجيع الآخرين على حماية – مدينة نيويورك:

"لقد كان "برندان" رائدا للحماية: فقبل أن يظهر "برندان" كنا – نحن أهـل نيويورك – نفتخر بهدم الماضى بأكـبر سرعة ممكنة، ولكن "برندان" كان قـادرا على خلـق قضية شعبية لم يتصد لها أحد مـن قبل؛ فما من أحد

مـن قبـل كان قادرا على أن يجعل قضية إنقاذ مدينـة بهذا المرح، وعلى هذا النحو!".

وهنـا لم يضحك الحضور وحسب ولكنهم صفقـوا أيضا. فقد أضفى أبـى على القيام بحماية الـتراث العظيم لمدينة نيويـورك حماسًا وإغراءً ثوريًّا.

لقـد تذكرت - أثناء تأليفى لكتـاب *How Starbucks Saved My Life* - أننـى حين كنت أعمل مدير إبداع فى وكالة جيه. والتر ثومبسون فى واشنطن، طلب أبى منى أن أساعده على التأكد من أن جهوده لحماية جراند سنترال من خلال طرح القضية أمام المحكمة العليا تحظى بشعبية واسعـة. وقد قمنا بتنظيم رحلة بالقطار عـبر واشنطن، وحينها أخذ أبى و"جاكـى أوناسيسـ" يذرعان كل عربات القطار جيئـة وذهابا، يتحدثان إلى كل شخصـ، وكان بإمكانـك أن ترى الركاب ينفجـرون فى الضحك بينما كان أبى ينتقل من مجموعة إلى أخرى.

لقـد دعوت كل نجوم واشنطن اللامعين للقـاء القطار حين يصل إلى محطـة يونيون، ولم يرفض أحـد دعواتى، وكان الحفل رائعا. ومرة أخرى استطاع كل من "جاكى" وأبى أن يتوددا ويفوزا بتشجيع كل شخصية مهمة التقيا بها بما فى ذلك نائب الرئيس وزوجة أحد قضاة المحكمة العليا.

لقـد فازا بقضية المحكمة العليا، التى ساندها ذلك القدر العظيم من الإرادة الجيـدة التـى ولَّداها مع أهـم صناع القـرار. والحقيقة أن قصة قضيتهما الشعبيـة ورحلة القطار التى نظماها قد تمت تغطيتها على أنها حـدث ذو أهمية إخبارية كبيرة فى كل وسائل الإعلام. لقد جعل "جاكى" وأبى من إنقاذ جراند سنترال قضية شعبية تستحق المساندة.

لقـد كان أبى مثالا على أن تكريس جـزء كبير من حياة المرء للقضايا المهمـة - باعتباره مواطنًا مسئـولًا عن مجتمعه ومهتمًّا به - يمكن أيضا

أن يكـون تجربة ممتعة. لقد كان الدرس المستفاد من أبى هو أن الأعمال الجيدة يمكن أيضا أن تمتزج بالأوقات الجيدة.

وقد أظهر أن النجاح يتحقق بشكل أسرع لكل نشاط اجتماعى مكرس إلى المصلحـة العامـة حين تتمكن مـن أن تجعله شيئًا يتطلـع إليه العامة ويستمتعون به.

حـين كان أبـى أكـثر شبابا – قبـل أن يصبح مشهورا جـدا، وقبل أن يكون بمقدوره أن يقنع العمدة أو أى "قوى أخرى" بأن إنقاذ المدينة مهمة جديـرة بالاهتمـام – كان معتادا علـى الذهاب إلى مدينـة نيويورك بعد ظهـيرة العطلة الأسبوعيـة وينظم "رحلات سير" لأقـدم أجزاء المدينة. وحـين بلغت الخامسة عشـرة، كان يصطحبنى فى بعض الأحيان فى هذه الرحـلات القصيرة بعد ظهيرة العطلة الأسبوعية، وقد يصطحبه حوالى اثنى عشر شخصًا آخرين، فقد كان أبى يعرف بضع مهندسين معماريين وطفلًا أو اثنين بصحبة والديهم، ولدى رؤية ذلك الجمع الصغير، وسماع صوت أبـى الجهورى الجميل يمـلأ الأجواء بالإقنـاع والحماس، كان من الممكن أن ينضم إلينا القليل من السائحين.

إننـى أذكر أننا فى أحد نزهات وقت ما بعد الظهيرة، كنا نقف خارج أحد المبانى الأثريـة فى بروكلين حين أشار أبى تجاه السماء وقال بصوت عال وكأنه يتحدث إلى حشد أكبر وقال: "هذا المبنى هو أجمل المبانى على وجه الأرض!". عندئذ حملق رجل عجوز ضئيل الحجم وزوجته فى دهشة لرؤيـة ذلك الرجل صغير السن المتحمس الذى يمجد – على الملأ وبشكل مـرح – مبنى ربما يكونان قد لاحظاه بالكاد، وفغرا فاهيهما، وبعد ذلك انضما إلى مجموعتنا لبقية اليوم، وفى نهاية "النزهة" صافح الرجل أبى وسمعته يقول لـه: "لم أعرف أبدا أننى أعيش فى مثل هذا الحى المدهش من قبل!".

لم يكن أبى يهتم بمن يكون الأشخاص الذين يرشدهم؛ فلم يكن انتقائيا فى الأشخاص الذين يريدهم أن يشاركوه فى مهمته للحفاظ على المدينة، وهو ما كان شيئا نادرا جدا فى ذلك الوقت من خمسينيات القرن العشرين حين بدأ فى دفع الأشخاص إلى إدراك أهمية تلك المهمة. لقد كان نشاط أبى الاجتماعى، وإعجابه بالمبانى القديمة، وحبه لتاريخ مدينته المفضلة شغفا تمكن من أسر خيال شخص غريب فى نزهة بعد الظهيرة من عطلة نهاية الأسبوع، وبعد ذلك بقليل يأتى حشد كبير ليتبعوا شابًّا لا يعرفونه منجذبين بفعل قوة كلماته والرغبة فى مشاركة ولائه لحماية جمال الماضى المعرض للخطر.

ألا تتذكر بشغف هؤلاء المعلمين الذين التقينا بهم خلال سنوات دراستنا فى المدرسة والذين غمرونا بحبهم لموادهم؟ لقد كان والدى مثالا للدرس التالى: إذا ما شاركت مادة تحبها مع الآخرين، فمن الممكن أن يتعلموا حبها كذلك.

فى خضم شغفه بحماية وتمجيد أفضل معالم نيويورك، خلق أبى قضية شعبية جديدة اكتسبت قوة دافعة لها، بينما كان يكرس المزيد والمزيد من الوقت لمشاركة رؤيته مع الآخرين.

لقد كان أبى يمتلك قوة لا تقاوم فى إسهامه فى نشر قضية لم يشارك فيها إلا القليل من الأشخاص من قبل. ومع ذلك كان شغفه بحماية معمار الماضى الرائع أحد المواهب التى شارك فيها بجود كبير مع العالم.

لقد علمنى أبى درسا آخر كذلك، ألا وهو أن كلًّا منا قد مُنح العديد من المواهب التى يمكنه تنميتها ومشاركتها على نطاق واسع، وفى حين أن أبى كان يسمى المعمار شغفه الأول، فقد كرس حياته المهنية لموهبته فى الكتابة وتأليف أدب عظيم.

وخـــلال ذلك الحفل المقـام لإحياء ذكرى أبى، قـال "جون جوير" - الــذى ألــف مسرحيــة *Six Degrees of Separation*، إلى جـانـب العديد مــن المســرحيــات والأفلام الناجحة الأخــرى - إن أولى روايات أبى، *The Trouble of One House* "ينبغى أن يقرؤها جميع الحاضرين هنــا اليــوم؛ إنها إحــدى الروايات الأمريكيــة العظيمــة - والمتجاهلة مع الأسف".

لــو أن أبــى كان موجودا فى ذلــك الوقت، لكان قد سُــرَّ كثيرا لعناق "جــون". لقــد عمل أبى لعقد كامــل فى روايته المفجعــة التى تدور حول عائلــة تواجه موت أمهــم العزيزة، نفس الصدمــة المأساوية التى عانى منهــا أبى فى سنوات نشأته. لقد كانــت تلك الرواية بمثابة عمل خيالى تحلــى أبى فيــه بالشجاعة الكافيــة ليسرد الحقيقة الأكــثر عمقا والتى تتعلق بذلك الحدث المفجع والمؤثر الذى تعرض له فى طفولته. ورغم أن الرواية حققت نجاحــا كبيرا على مستوى النقاد وحازت جائزة الكتاب القومــى (ناشيونــال بــوك أوورد)، إلا أن روايــة أبــى الأولى لم تشتهر أبــدا، ولم تحقــق أبدا أعلى مبيعات. لقد كان أبــى محبطا بشدة بسبب أن جهــده وشجاعته فى عرض الكشف عــن الألم الذى أخفاه طويلا لم ينــل ما يستحقه من تقديــر لدى الجمهور، ولم يحاول أبى كتابة الرواية المؤلمــة الباحثة فى أسرار الــروح. لقد وصف أبى نفســه ذات مرة بأن: "لديــه رغبة فتاكــة فى أن يسعد الآخرين، وأخبرنــى ذات يوم بأن هذه الحاجــة إلى الفوز بالتقدير قوية جدا لديه، إلى درجة جعلته يسعى إلى نيــل تصفيق الجمهور بدلا من أن يظــل مخلصا لموهبته والتى كان يرى أنها تتمثل فى كتابة رواية عظيمة.

وقد اكتشف أبى الكتابة من أجل نفسه، فحين كان يعتزم الكتابة، كان يرغــب فى التأكد مــن أنه سيحوز تقدير الجمهــور، وبينما أقترب أنا من

السبعين من عمرى، أتذكر كيف أن أبى فى عيد ميلاده السبعين قطع على نفسه هذا الوعد: "الآن، فى هذه المرحلة المتأخرة من حياتى. سوف أترك المسرح، وأترك كل لجانى العامة وأتقاعد للتفرغ للكتابة، ثم الكتابة، ثم الكتابة، ثم الكتابة، هكذا سأقضى السنوات المتبقية من عمرى".

ولم يكن الأمر لينتهى على هذا النحو، فقد كانت قوة الحاجة إلى إسعاد الآخرين وإلى الشعور بالتقدير شديدة، وكذلك كانت قوة الحاجة إلى حضوره من أجل إنقاذ المدينة - التى أحبها كثيرا - هائلة. لقد قضى أبى جزءا كبيرا من حياته تحت الأضواء يخدم المصلحة العامة ويقضى وقتا ممتعا كذلك فى حفلات عامة جدا.

إننى أذكر حديثى معه لآخر مرة بينما كنت ننتظر القطار فى محطة برونكسفيل.

سألته قائلا: "هل لديك الكثير من المهام اليوم؟".

فقال: "نعم، لدى الكثير من المهام التى علىَّ القيام بها. هناك اجتماعات فى جمعية ميونيسيبال آرت ومؤسسة آندى وورهول. أتمنى لو أننى أستطيع الكتابة فحسب، إن لدىَّ الكثير لـ...".

وترك الفكرة تتلاشى. لقد بدا محبطا من الكيفية التى انفلتت بها حياته من بين يديه، فقد حلم منذ بدايته - كطالب مراهق فى مدرسة كينجزوود - بأن يصبح شاعرا وكاتبا عظيما، وفى جامعة ييل استمر حلمه ونما. وفى ذلك الحين، وهو فى المرحلة الأخيرة من عمره، كان أبى لا يزال ساعيا لتحقيق هدفه.

ورغم أن أبى قد ألف العديد من الكتب الرائعة، إلا أنه، مثله فى ذلك مثل كل الفنانين العظماء والأشخاص ذوى الإنجاز العالى الذين أعرفهم، لم يكن راضيا أبدا عن أدائه. إن الأمر يشبه عملية إثارة الرمال للمحار الذى يقوم بإنتاج اللؤلؤ استجابة لتلك الإثارة. فمعظم

الفنانـين العظماء يشعرون دوما بالانزعاج بفعل فكرة أن عليهم القيام بالمزيد.

وأحد الدروس المهمة التى تعلمتها من أبى هو أنه لا ينبغى على المرء أن يخشى من النضال من أجل شىء إضافى فى أية سن.

لقـد أدركـت فى ذلـك الصباح الأخـير الذى قضينـاه معًـا أن أبى لا يـزال محبطا من أنه - على الأقل فى رأيه - لم يكتب "الرواية الأمريكية العظيمـة بعـد". ولكنه لم يكـن بأى حال محبطـا ممـا رآه تحديا جديرا بمواهبه.

لقـد عـرَّف اليونانيون القدماء الحيـاة على أنها "إطـلاق المرء لقواه الحيوية فى اتجـاه التميز فى الحياة التى توفر له إمكانية ذلك". وأعتقد أن هذا التعريف قد أسر توجهه إلى البحث الدائم.

لقـد عاش أبى حياته بأكملها باحثا عن التميز فى كتاباته وفى الوقت ذاته يضطلع بـدوره كمواطن مسئول ومشارك فى المجتمع المدنى الخاص بالحقبة التى كان يعيش فيها.

ولم تتوقـف أبدا رغبة أبى ليحسن نفسه باستمـرار فى حرفة الكتابة التـى أحبهـا حبا جما، وقد أصبحت مـدركا الآن أن هذا هـو أحد أسرار طاقتـه المدهشة فى كل مراحلـه العمرية، فدائمًا مـا كان يبحث أبى عن طريقة أكثر إبداعا وقوة لمشاركة قصته مع العالم.

لقـد كنت أعرف فى ذلك الصباح أن أبى كان ذاهبا، مرة أخرى، إلى مكتبه لكتابة الرواية الأمريكية العظيمة التى طالما وعد نفسه بها.

وفـى الثمانينيات من عمره، كان أبى سعيدا وواثقا وحازما فيما يتعلق بقدرتـه على تأليف عمـل أدبى عظيم بقدر ما كان وهو شاعر مراهق نشأ فى هارتفورد أو كاتب شاب فى نيويورك.

لقــد كانت روح أبى - حتى وهو واقــف على رصيف القطار قبل شهور مــن وفاته - لا تــزال أكثر روح شابة التقيتها فــى حياتى؛ فبينما كنت أنا أتقدم فى السن، كان أبى يبدو وكأنه يزداد شبابا.

إننــى أذكــر أنــه فى عيــد ميــلادى الأربعين قــال أبــى: "لقــد تجاوزنى جيتســى فى العمر الآن! فقد أصبح اليوم أكــثر نضجا منى، أو مما أتمنى أن أكون!".

وقد كان أبى على حق فى ذلك؛ فحين بلغت الأربعين من عمرى، ظلت روحــه تبدو كما لو أنه فــى الخامسة والعشرين، وأذكــر أننــى تركت حفل عيــد ميلادى فــى الحادية عشرة ليلا، فقد كنــت مرهقا، ثم عرفت فيما بعــد أن أبى، محاطا بالعديد من أصدقائى الذين أسعدتهم صحبته لهم، قد سهر لما بعد الواحدة صباحًا.

وحين تقدم أبى فى السن، كان يبدو لى أنه أصبح أكثر سرعة، وأصبح يتحــدث أســرع، ويكتب أســرع، وأصبح يمشــى على نحــو أشبه بالجرى، وكان يندفــع وسط زحام مدينتــه وكأنه لاعب كرة قدم يمرر الكرة مركزا اهتمامــه علــى اعتصار كل ثانية مــن اليوم من أجل المزيــد من الأنشطة والإنجازات الإيجابية.

لقــد علمنــى درســا وأوصانى بوصيــة، ألا وهمــا ألا أتنــازل أبدا عن أحلامــى أبدا مهما كانت؛ حيث إن أبى لم يتوقف أبدا عن محاولة الكتابة بشــكل أفضــل كل يوم. لقــد كان دائما فــى حالة من التقــدم النشط إلى الأمــام مدفوعًا ومبتهجًا بفعــل هدف لا يتغيب عن ناظريه، وربما أنه كان يدرك، فى أعماق نفسه، أنه لن يتمكن أبدا من أن يمنح نفسه ذلك الشعور بالرضا الناجم عن اعتقاده أنه قد حقق ذلك الهدف.

ولكــن، كــم كان يحب الجهد الشــاق! لقد أدرك أنه قــد وُهب مستوى نادرًا من الموهبة والطاقة، وقد تقاسم تلك المواهب مع العالم.

ورغم أن أبى كان يحب أن يبدو كأنه رجل شديد الخيلاء، إلا أن هؤلاء الذين تعرفوا عليه عرفوا أنه كان أقل الرجال فخرا. ذات مرة قدمت أبى فى حفل جمع تبرعات للمكتبة العامة الخاصة بقرية نورفولك الصغيرة. فى ذلك الوقت من حياته، كان أبى مشغولا بشدة وكان مطلوبا للتحدث من قبل المؤسسات الخيرية، إلى جانب كونه خطيبا فى المناسبات الأدبية الكبرى، ومع ذلك فإنه لم يرفض أبدا طلبًا جديرًا بالاهتمام كالمساعدة فى جمع التبرعات للمكتبة المحلية.

لقد رفض أبى فكرتى بأنها كانت تضحية من جانبه أن يكون هناك فى تلك الساعة الممطرة من بعد الظهيرة فى تلك المدينة الريفية الصغيرة (على الرغم من أننى كنت أعرف أنه فى ذلك اليوم كان عائدا لتوه من إنجلترا، ثم قاد سيارته من المدينة ليأتى إلى نورفولك). قال أبى فى الغرفة التى يرجع عمرها إلى حوالى مائة سنة، والتى تحتوى على العديد من المجلدات: "أنا لست قديسًا، ولكن هذه المكتبة هى جوهر مجتمعنا، ولطالما كان قلبى معلقا بالكتب، وأى قضية يمكن أن يتبناها أى كاتب أفضل من دعم المكان الذى يقدس الكلمات؟ إننى معجب بفكرة أنه فى يوم ما من المستقبل البعيد جدا، قد يمد أحد يده إلى رف مغطى بالغبار فى هذا المكان الجميل ويلتقط كتابا يصادف أن يكون... لى!".

ورغم أن أبى كتب ما يزيد على اثنى عشر كتابا رائعا، إلا أنه قد كتب لمجلة ذا نيويوركر أكثر مما كتب لأى وسيط إعلامى آخر.

لقد أخبرنى العديد من العاملين مع أبى فى المجلة بأن أبى كان يستطيع الكتابة بسرعة فى أى موضوع، وبأسلوب متميز وحيوى يجعل الموضوع متألقا، وقد ألف سيلًا متدفقًا من النثر المتألق خلال عمله مراسلًا لبرنامج *Talk of the Town*، وناقدًا سينمائيًّا ومسرحيًّا، وكاتب قصص قصيرة، وشاعرًا، وناقد كتب. لقد كان كل عدد يحتوى

علــى كلماته المتألقة، وكان يعنى بالكلمات المثالية وكانت لديه القدرة على ربط الكلمات معا بأسلوب مبتكر ومرح وكان ينقل بدقة ما كان يرغب فى قوله بشكل مدهش. لقد كان سعيدا جدًّا فى مجلة ذا نيويوركر، لأن عمله فــى المجلة أتاح له الكتابة وهو وسط عدد كبــير من الأصدقاء؛ حيث كان يحب تلك البيئة المتجانسة.

لقــد كان يتغنى أثناء وجوده فى المنزل قائــلا: "اهتد بجمالى، فالنار تخبو".

لقد توفيت والدة أبى، بعد معاناة طويلة مع مرض السرطان، حين كان فــى السابعة من عمره؛ ولذلك لم يتجاوز أبى مأساة موتها البطىء بسبب هــذا المرض. لقد كان يحب أن يكــون محاطا بالناس منذ أن يستيقظ فى الصباح الباكر إلى أن يقضى بضع ساعات فى النوم - كرها - فى وقت متأخر من الليل.

لقــد كان أبــى يكــره فكــرة أن يكون مريضــا أو عبئا علــى أصدقائه وعائلتــه، فقد كان يرغب فى أن يكون مصــدرا دائما للطاقة الإيجابية، وربما كان ذلك يرجع إلى موت والدته البطىء المؤلم.

لقد كان أبى أشبه بالشعلة التى تمدنا بالطاقة، وحضن البيت الدفىء وقلبه الحانى، فكان دوما دافئا ومشيعا الدفء فيمن حوله.

ولم يكن يدع نيران المدفأة لتنطفئ، فكان يضع أكوام الحطب فى وقت مبكــر من الصباح فى مدفأة المنزل ويبقى المدفأة متقدة إلى وقت متأخر من الليل.

كمــا كان أبــى دائما أول من يستيقظ فى الصبــاح وآخر من يذهب إلى الفراش. إننى أتخيله الآن وهو يقف أمام المدفــأة الكبيرة فى برونكسفيل أو نورفولــك - ويقــوم بسكــب المشروبــات فــى الأكــواب - وحولــه تلتــف دائــرة واسعة من أفراد العائلــة والأصدقاء ضاحكين وفرحين لرفقته لهم.

بينما هو يحصل، بدوره، على الدفء من الحب الذى أشعل لهبه فى قلوبنا جميعا.

إننى أذكر أننى فى أحد الاحتفالات بأعياد رأس السنة - حين كنت طالبا فى السنة الأولى فى جامعة ييل - دعوت زميلاً لى يدعى "لانس ليبمان" ليقضى معى فترة أعياد رأس السنة والإجازات، وكان "لانس" فى ذلك الوقت فى السادسة عشرة بينما كنا جميعا فى الثامنة عشرة. ورغم أنه كان أصغر منا، إلا أنه حصل على منحة دراسية وطنية وجاء من فرانكفورت، كنتاكى إلى يل، وقد كانت حجرته مواجهة لحجرتى، فأصبحنا أصدقاء.

كنت أعرف أن "لانس" لم يكن يخطط للذهاب إلى منزله لقضاء الإجازة، لذا دعوته لقضاء بعض الوقت معى. وقد اندهش "لانس" إلى حد كبير بفعل الكارنفال الترحيبى الذى أقامه أبى فى منزلنا الكبير فى برونكسفيل. وفى منزلنا - فى تلك الليلة الأولى - أقيم حفل كبير يضم حوالى مائة شخص، وقد انضم كتاب وناشرون من نيويورك إلى الجيران وأفراد العائلة فى الاحتفال بالإجازة.

وفى اليوم التالى، أخذ أبى هدايا الاحتفال برأس السنة ووضعها فى المكتبة ذات الطابقين، وفى صباح اليوم الأول من السنة أهدى أبى "لانس" كتابا، ومنحته أمى هدية أخرى، وأصبح "لانس" فردًا مباشرًا من عشيرة "جيل"، وبالتالى، مشاركًا فى ذلك الحزب الشعبى الثابت.

وقد مضى "لانس" قدما إلى أن أصبح أستاذا متميزا للقانون فى جامعة هارفارد، ولكننى لا أعتقد أنه قد نسى هذه التجربة تماما.

أذكر أيضا أن صديقا آخر لى - ويدعى "روبرت جودمان"، وهو فنان يعيش فى سوهو - قد أتى ذات مرة لقضاء فترة بعد ظهيرة ومساء عطلة نهاية الأسبوع فى اللهو والصخب.

وبعد سنوات، أخبرنى قائلا: "لن أسامحك أبدا على دعوتى إلى منزل أبيك؛ فقد تزوجت على الفور بعد ذلك وأنجبت أطفالا. فقد جعل والدك الأمر يبدو وكأنه مرح جدا!".

حقا، لقد أشاع أبى الطاقة المرحة فى كل جانب من جوانب الحياة، بل لقد علم أبى محبى الأعمال الخيرية بشكل ما كيف يكونون أكثر ظرفا.

وقد قال والدى لـ "بروك آستور" ذات مرة: "إنه لأمر جد مرح أن تنفقى مالك وأنت على قيد الحياة". وقد عملت "بروك" بنصيحته، مستمتعة بإنفاق أموالها، وقد كان أبى يفعل ما يقول؛ فحين توفى كان قد أنفق الثروة التى ورثها عن والده بالإضافة إلى مبلغ من المال يفوق ما قد جمعه من عمله فى الكتابة، وقد اكتشفنا أنه ترك فى حسابه البنكى ما يكفى لدفع آخر فاتورة لشركة أمريكان إكسبريس، لقد كان أبى يتمتع بحس مسرحى رائع، وأنا متيقن من أنه لم يكن يستطيع تخيل رحيل أكثر مثالية من هذا.

كذلك يعد افتقار أبى للاهتمام بجمع المال بمثابة درس حياة بالنسبة لى، بمعنى أننا ينبغى أن نكون كرماء بقدر استطاعتنا ونحن على قيد الحياة.

وقد كان أبى كريما فى وقته مثلما كان فى ماله؛ فلم يتخاذل أبدا عن محاولة مساعدة أحد من أصدقائه، وحين التقى بصديقى "ويليام هاميلتون" وسمع أنه يحاول نشر قصص مصورة فى مجلة ذا نيويوركر منذ أن كان طالبا فى آندوفر، أصبح أبى مؤيدا قويا له، وأتذكر "جيم جيراغتى" الذى كان يتولى منصب محرر الفن وهو يأخذنى جانبا فى إحدى الحفلات ويقول: "إن أباك لا يتوقف أبدا عن إقناعى بإلحاح بصديقك "بيل هاملتون". إنه يقودنى إلى الجنون!". وكان السيد

"جيراغتــى" يبتسم وهو يقول ذلك، ولكننى كنــت أعرف أن هنـاك بعض الحقيقة وراء هذا الكلام.

وهنــاك مثال آخر جــاء بعد ذلك بسنوات. فقد كنــت أعمل فى وكالة جيه. والتر ثومبسون حين أخبرتنى إحدى العاملات فى قسم الحسابات، وتدعى "لويس مــارك"، أن ابن خالها خريج جامعة هارفارد وأن أكثر ما يريده من هذا العالم أن يعمل فى مجلة ذا نيويوركر، فاتصلت بأبى بشأن ذلــك: فلم يقابل أبى الشاب فحسب ولكنه وجد لــه وظيفة أيضا، وهو ما لم يكــن بالعمل السهل فى ذلك الوقت، حين كانت مجلة ذا نيويوركر أكثر المجلات نيلا لإعجاب القراء فى أمريكا.

إننى متأكد من أن ابن خال "لويس مارك" كان عبقريا.

كما أننى متأكد الآن من أن "وليام هاملتون"، عبقرى الأدب الاجتماعى الساخر، علامة مميزة فى جيلنا، وذلك بعد أربعين عاما من الفن الرائع المقترن باسمه.

لم ينتظر أبى أن يظهر ذلك الشاب ابن خال "لويس" أو الشاب "وليام هاملتــون" ليثبتا نفسيهما أولا، فبروحــه الكريمة، هرول إلى مساعدتهما من أجل تحقيق أحلامهما.

وبنفســ الطريقــة، فتح أبى ذراعيه وعالمه لـ"تينــا براون" حين وصلت إلى نيويــورك لأول مرة فى زيارة باعتبارها طالبة فــى جامعة أوكسفورد. قالــت لى "تينــا": "إننى لم أكــن حينها أعرف أى شخصــ". كنا نتحدث ونحــن على سطــح كوزموبوليتان كلوب حيث كانــت تستضيف حفلا – فى ذلــك الوقت كانت تتولى منصب رئيســ تحرير المجلة – للاحتفال بإعادة إصدار كتاب والدى *Here at the New Yorker*، وهو أكثر كتبه مبيعًا.

وتواصل "تينا" قائلة: "لقد أخذنى والدك من أديب إلى آخر. لقد كانت أولى رحلاتى إلى نيويورك، وقد كان ذلك أكثر أوقات حياتى بهجة".

لقد كافأت "تينا" روح أبى الكريمة من خلال التأكد من أن مقالته تنشر حتى آخر أسبوع من حياته، وكانت آخر مقالة له فى مجلته الحبيبة تصف دور الماضى فى إسعاد قلوبنا فى الحاضر.

كانت كلماته فى المجلة التى ظل يكتب فيها لأكثر من ستة عقود هى:

"بإمعان التفكير فى بيئة جديدة وقديمة فى الوقت ذاته، نبدأ فى الشعور بتأثير الماضى. إننا - بالمعنى الحرفى - نتعلم أن نمد أيدينا إلى الماضى ونشعر بدفئه يسرى داخلنا".

لقد أحب أبى الماضى بقدر ما بذل نفسه بكرم للحاضر.

ودائما ما كان يرغب فى أن تُنشر مقالاته. حين كان أبى فى الثانية عشرة من عمره، نشرت الصحيفة المحلية لمدينته، *The Hartford Courant*، تقريرا يفضح أسماء أصحاب العقارات المتهدمة، وكان بعض من الأسماء المذكورة من عائلة والدته، فجلس أبى على الفور وكتب خطابا يعرض فيه التنازل عن كل الممتلكات العقارية الخاصة بالعائلة، حتى فى ذلك السن كان قلبه الجواد جليا.

ولم يكن محرر الجريدة يعلم أن أبى كان مجرد طفل صغير واعتقد أن هذا الخطاب بمثابة إعلان رسمى من العائلة، فنشر خطاب أبى الذى يعد المستأجرين بالسكن دون مقابل فى الصفحة الأولى تحت عنوان "عرض كريم".

ولم تسامح عائلة "دافى"، وهم أقارب والدته ذوو العقليات العملية، أبى تماما على هذا التنازل الذى ذاع على نحو واسع، ولكنه طالما أحب سرد هذه القصة.

لقد نُشر الخطاب. وفى الصفحة الأولى! وبغض النظر عن الخسارة التى سببها لعائلته، فقد كان الأمر يستحق ذلك.

لقد أحب أبى مدينة نيويورك، وكان سروره بوجوده فى المدينة يمنح الآخرين شعورًا مدعمًا بالتقدير للمرح الذى كانوا يشعرون به كلما سنحت

الفرصة، حتى زملاؤه فيما كان يعرف بأروقة صحيفة ذا نيويوركر المظلمة الكئيبة.

كان "جوزيف ميتشل"، وهو أحد زملاء أبى المفضلين فى ذا نيويوركر، على النقيض التام منه ككاتب وإنسان فى كل شىء تقريبا، فقد كان ميتشل رجلا خجولا من أهل الجنوب. كما أنه لم يكتب أى شىء تقريبا فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته مقارنة بأبى الذى كان رجلا اجتماعيا من الشمال ولم يتوقف أبدا عن الكتابة، وقد قال لى "جوزيف" ذات مرة: "لو أننى كنت أستطيع القيام بما قام به والدك لكنت قد جمعت ثروة".

لقد كان أبى رجلا وسيما، بل ورجلا جريئا وذا روح حية تفيض بالنشاط، وكانت رغبته فى إسعاد الناس وموهبته فى القيام بذلك تتداخلان معا فى مزيج رائع.

كما كان أبى يحب الغناء، على الرغم من أنه لم يشعر أبدا أنه يتمتع بصوت جميل، وكان يشجعنى على الغناء وأنا صغير قائلا: "هيا، غن يا جيتسى، وفى كل لقاء عائلى تقريبا، كان أبى يحب أن أقف وأن أغنى قليلا من الأغانى الأيرلندية، وكان يعتقد أن لدى صوتا جميلا للغناء يفتقر هو إليه، وكان يتوق إلى أن يرانى وأنا أقدم لحنًا غنائيًّا.

وفى نهاية الاحتفال بذكرى أبى وقفت وقدت جميع الحضور فى ترديد أغنية *Boy Danny*، ورغم أن الكلمات الأخيرة كانت حزينة، فقد غناها الحشد الكبير بفرح وعرفان بالجميل:

"سأظل معك/ فى كل وقت وزمان/ آه، دانى، يا فتاى الحبيب، لكم أحبك!".

وبعد انتهاء الغناء، ظلت كلمات الأغنية تتردد فى أذنى... وبدت لى إلى حد ما أشبه بـ"آه، يا أبى، أيها الفتى الحبيب".

والآن، أشعر بالأسف من أنه قد ترك العالم قبل أن أخبره بقدر ما بذل من أجلى.

ولكننى اليوم أشعر أيضا أنه يعرف ذلك بشكل ما، وأعتقد أنه قد يكون متحيرا قليلا من أننى كنت أستمتع بحياة أبسط وأقل اجتماعية من حياته. ولكنه سيشعر بالفرح لأننى أصبحت كاتبا ذائع الصيت، وسوف يسعد أيضا بأنه قد جاء ذكره كرجل معطاء. لقد كان أعظم وسام يمنحه إلى شخص ما حين يتحدث عنه هو أن يمدح "كرمه"؛ فالنسبة له، كان الكرم هو أعظم فضيلة على الإطلاق.

وكجزء من كرم روحه، لم يرغب أبى أبدا فى أن يكون عبئا على كاهل أى شخص، وحين توفى، كان يرغب فى أن يتحرك إلى الأمام مثلما كان يفعل وهو على قيد الحياة. فلطالما كان يرغب فى الرحيل بسرعة تاركا وراءه ذلك الشعور بالحب والبهجة لتتردد أصداؤهما عبر العصور.

لقد رحل أبى عن العالم بالطريقة التى أرادها، فقد شعر بـ"ألم فى الظهر"، وذهب إلى المستشفى، وتوفى فى غضون ساعات، وأعتقد أنه كان يتمنى أن يموت بمجرد شعوره بأن حالته قد تدهورت، وربما أنه كان قلقا من أن يكتشف أنه يعانى من مرض ما قد يعجزه بطريقة ما. لقد اختار أن يموت وهو مفعم بالحياة. لقد خُيِّل لى أنه يهرول خارج مسرح حياته - حيث لعب ذلك الدور الملهم - ملوحا لنا بيديه فى سرعة وطالبا منا: "المزيد من الغناء!". تماما مثلما كان يفعل فى وقت متأخر من الليل ونحن مجتمعون حول نيران المدفأة فى المنزل.

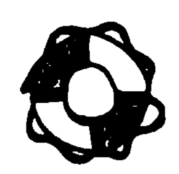
وفى حفل إحياء ذكرى أبى، كانت أمامى فرصة لمساعدته بنفس طريقته... بأن أغنى له المزيد من الأغنيات. لذا غنينا له واحدة أخرى فى يوم ذكراه.

وبعـد ذلك، أقمنـا احتفالا عامًّا فـى محطة جراند سنـترال، وكانت المحطـة تبدو أكـثر جمالا مـن أى وقت مضـى. فبشكل مـا أضفى عليها التجديـد المتقـن المزيد من البريـق لجمالها الأصلى، ونظـرت فى أرجاء ذلـك المـكان الرائع الذى حفظـه لنا أبـى وصديقته "جاكـى أوناسيس" وأصدقاؤهما الكرماء.

واليـوم، وفى هذه الذكرى المتميزة للمـوت والفراق، أشعر أن روح أبى المرحـة التى لا تقهر أصبحت معى أكثر مـن أى وقت مضى. وأنا أرى أبى وقد حـول ألم طفولته، النـاجم عن وفاة والدتـه الحبيبة، إلى قدرة نـادرة على الحفاظ – بالكلمات المتلألئة والمبانى الشامخة – على أفضل ما فى الماضى من أجل مصلحة الأجيال المستقبلية.

يقـول أبى فى إحـدى كتاباته: "إن أولى قواعد الحيـاة هى أن الحياة تعنـى قضاء وقت سعيد". وقد جعل أبى هـذا الإنجاز السعيد أكثر قابلية للتحقق بالنسبة لنا جميعا من خلال القصص العبقرية والأماكن الجميلة التى تركها خلفه.

ويمكننـى أن أرى الآن بوضـوح بعد وفـاة أبى كل المنـح العظيمة التى منحنى أبى إياها وللعالم.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

لا تتنـازل أبـدا عن أحلامك فى وقت ما من عمـرك، وتذكر أن أحلامك قـد تكون عديـدة. فكما أحـب أبى القصص، فقد أحـب أيضا الحفاظ علـى الإبداعـات المعمارية التى شيدهـا الآخرون، ولم يتوقـف أبدا عن

أن يحلـم بتحقيـق المزيد ، ولم يكبر أبدا ليتوقـف عن تحقيق الإنجازات العظيمـة. إن مواهبنا ليست محدودة وينبغى أن نشاركها مع الآخرين بثقة وروح كريمة.

ونظـرا إلى أن كل الآبـاء ليسـوا مثاليين، فلا تحكم علـى والدك بشكل قاس، بل أحبه كشخص كان سببا فى مجيئك إلى هذه الحياة، وعلمك طرقا جديدة للعيش.

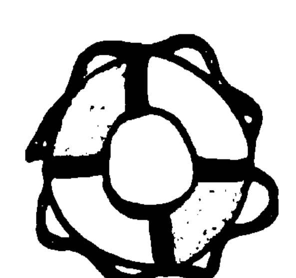
وحـين يرحـل والدك عن الدنيا ، كن مستعـدا لتقديره أكثر مما كنت فى أى وقت، واحمل ذكراه فى نفسك كدليل ومصدر سار للقوة.

الدرس ٨

تعلم من والدتك

"إن الحب يؤمن بكل شيء، ويأمل في كل شيء... إن الحب لا يُخفق أبدا".

___ حكمة قديمة



لقد كانت أمى تعتقد أن الحياة فى حد ذاتها معجزة وأنها مليئة بالمناسبات الرائعة التى نستمتع بها، وقد كان آخر يوم من حياة أمى مليئا بالمعجزات.

لقد بدأ فى أكثر مكان تحبه... فى المنزل الصيفى الصغير فى الريف، حيث قضت إجازات الصيف السعيدة فى طفولتها وسنوات الحب الأولى لحياتها الزوجية مع أبى. لقد كان ذلك المنزل الصيفى هو المكان الذى شهد حبهما ينمو ويمتد ليشمل حبهما لأطفالهما وأحفادهما.

ففى الشتاء الأول بعد موت والدى تركت منزل برونكسفيل وقررت أن تتحدى البرد فى ذلك المنزل البارد ذى الطابق الواحد المخصص للصيف فقط. لقد كانت أمى تتطلع بشوق إلى قضاء احتفال رأس سنة عائلى كان من المفترض أن يقام فى المنزل الصيفى فى غضون أيام، وفى بداية آخر يوم من حياتها أخذت جروها الجديد "رودين"، وكانت كنيته "رودى"، إلى المسطح الأخضر العشبى الذى يقع فى الفناء الأمامى للمنزل.

كانت أمى تحب أن تأخذنى وتجلس للقراءة لى على ذلك المسطح الأخضر فى الصيف حين كنت فتى صغيرا ، وكانت الأحجار والأعشاب والحقول والأشجار التى تحيط بالمنزل تحمل العديد من الذكريات السعيدة، وكنا نرى جبل هايستاك، الذى تسلقته وهى فى قمة السعادة لعدة مرات مع الكثير من أفراد العائلة، من ذلك المسطح الأخضر.

لقد كانت تحب تلك المقولة المقتبسة من أحد الكتب الفلسفية، والتى تقول: "لقد رفعت عينى إلى التلال التى منها أستمد قوتى". وعندما كنا نسافر إلى ريف نورفولك من نيويورك، كانت أمى تتعجب قائلة فى ملحوظة تنم عن الفخر بملكيتنا الباعثة على السرور لهذا المنزل: "ها هى تلالى!".

وفى الصباح الأخير من حياة أمى، خرجت إلى المسطح الأخضر الخاص بالمنزل الصيفى الذى قضت فيه طفولتها محاطة بالجبال وبالمكان المشمس الملىء بالذكريات.

فى تلك الحقول، ومنذ سنتين قبل ذلك الحين، وتحت خيمة كبيرة، احتفلت هى وأبى بعيد زواجهما الستين، ورقصت مع أبى ومع العديد من أحفادهما.

وعلى الرغم من أن تاريخ ذلك اليوم كان الثالث والعشرين من ديسمبر، فإن الجو كان دافئا، وكان الهواء منعشا وجافا، والسماء متلألئة، ونظرا لابتهاج "رودى" بهواء الريف النظيف والصافى، وبنور الشتاء المشرق، أخذ يقفز عبر المسطح الأخضر والحقل، تجاه حائط حجرى يحد طريق لوريل. وبعد ذلك، ونظرا لكونه جروًا وحيدًا وغير معتاد على أخطار الشوارع، قفز من فوق الحائط.

وفى تلك اللحظة بالضبط، كانت هناك شاحنة تأتى مسرعة على الطريق، ولم تتح للسائق فرصة لتجنب الجرو الذى يجرى مسرعا نحو عجلات شاحنته، فدهس الجرو.

كانت الشاحنة كبيرة وثقيلة، وكان الجرو راقدا بلا حراك على جانب الطريق إلى حيث حملته قوة صدمته بالإطارات الأمامية للشاحنة.

وبعد ذلك، مرت سيارة، كان سائقها جار لنا يدعى "آل باوتشر"، ورأى مشهد شاحنة كبيرة، ينزل سائقها من كابينته، بينما أمى راكعة إلى جوار كلب يحتضر، فتوجه على الفور إلى منطقة لوريل كوتادج، التى تقع على طريق المنزل الصيفى، حيث كان يعرف أننى أقيم هناك.

وكنت فى ذلك اليوم قد خططت للذهاب إلى مدينة نيويورك فى المساء من أجل احتفال رأس السنة، ولكن لسبب ما ألغيت الرحلة. وصل "آل باوتشر" إلى الباب الأمامى للمنزل الذى أقيم فيه.

قال لى "آل باوتشر": "لقد رأيت والدتك جالسة إلى جوار كلب ميت".

فسألته قائلا: "ماذا حدث؟".

"لقد دهست شاحنة كبيرة الكلب، ويبدو أنه سيموت. من الأفضل أن تذهب لرؤية والدتك".

ذهبت إلى أمى لأرى ما يمكننى القيام به. ولم أكن أتوقع أن هناك ما يمكننى القيام به، فقد كانت أمى جاثية إلى جوار "رودى"، بينما السائق يقف إلى جوارهما.

قالت أمى، وهى تنظر إلى أعلى: "أوه! جيتسى، أعتقد أن علينا أن نأخذ رودى إلى الطبيب البيطرى".

كان سائق الشاحنة يبدو مريبا.

قال السائق: "إننى لم أر الكلب على الإطلاق. لابد أنه ظهر أمامى فجأة. هل يمكننى المساعدة بأى شىء؟ أو الاتصال بأى شخص؟".

فكرت أمى للحظة.

ولكـن، ما إن اقتربنا مـن مدخل عيادة الطبيـب البيطرى، حتى كان "رودى" قـادرا بالفعـل على رفـع رأسه قليلا . ففكرت فـى نفسى آملا أن يكون الحديث مفيدا حقا.

وفى عيادة الطبيب البيطرى، حضرت سيدتان لتساعدانا؛ حيث كانتا تحمـلان شيئًا لحمل "رودى"، وقامتـا بمساعدتنا على إخراجه، فحملناه إلى حجرة الانتظار، وحضر الطبيب على الفور.

فسأل قائلا: "هل هذا هو رودين؟".

وهنـا بكت أمى على الفـور – من الامتنان. لقد تذكـر الطبيب كلبها منـذ الزيارة السابقة! والأهم من ذلـك بالنسبة لأمى هو أنه دعاه باسمه الكامل!

فقالت أمـى: "نعم، لقد دهسته شاحنة".

فمسح الطبيب بيده على جسم "رودى"، دون أن يلقى بالا للدماء.

ثـم قال: "إننى لا أشعر بأن عظامه مكسـورة، ولكن لا يمكننى التأكد مـن ذلك. ومن الصعـب تحديد مـا إذا كانت هناك جـروح داخلية. لذا سـوف أكشف عليـه بأشعة إكس، وسـوف أتوصل إلى الكثـير فى غضون ساعات قليلة. متى يمكننى الاتصال بك؟".

فسألت أمى: "بعد ساعات... قليلة؟".

فنظـر الطبيب إلى أمـى، فرأى ألمها وحاجتهـا إلى معرفة ما إذا كان جروها سيعيش أم سيموت.

فقـال: "فـى غضـون دقائـق". وهنـا اغرورقت عينـا أمـى بالدموع مـرة أخرى حـين أدركت مـدى تفهم الطبيـب لحالتها ومـدى استجابته لحاجتها.

فاستدار الطبيب، حاملا "رودى" واتجه إلى العيادة.

فقالت أمى، وهى تلمس كوع الطبيب: "دكتور!".

فانتظر الطبيب إلى أن تلقى أمى بتعليماتها إليه.

فقالت: "واظب على الحديث معه، هل ستفعل؟ من المهم أن تواظب على الحديث معه".

فطمأنها الطبيب قائلا: "سنفعل".

قدت أمى إلى مقعد فى حجرة الانتظار، وجاءت سيدتان تحملان إلينا كوبين من الماء البارد للترحيب بنا. ثم عاد الطبيب إلينا بسرعة على ما كنت أعتقد.

فنهضت أمى ببطء، ولطالما كانت أمى شجاعة فى مثل هذه المواقف، ولكن هذا الموقف كان قاسيا، ورغم أنها كانت تأمل الأفضل فى أمر ميئوس منه، إلا أنه كان بإمكانى أن أرى أنها مستعدة لأن تسمع أسوأ خبر ممكن.

فقال الطبيب: "سيعيش".

وهنا ذرفت أمى دمعة أو دمعتين، ثم مسحتهما بسرعة بمنديل كان فى يدها، وهنالك عرفت أنها لم تكن تعتقد حقا أنه سيعيش، رغم كل كلامها المشجع له.

فقالت أمى: "شكرا جزيلا لك يا دكتور".

وأمسكت بيده.

فاستطرد الطبيب قائلا: "حسنا، ولكن ما زال هناك الكثير للقيام به. إلا أنه ليس هناك عظام مكسورة بحسب ما يمكننا قوله حتى الآن، لذا ينبغى أن نبقيه هنا - الليلة - على الأقل للتأكد من كل شىء".

قالت أمى: "نعم، نعم، بالتأكيد". وكانت تشعر بالارتياح لأن كلبها لم يكن ميتا فى هذه اللحظة ولأنها عرفت أنه سيعيش بشكل ما.

وأكمل الطبيب كلامه قائلا: "وربما أنه سيكون أعرج بعد ذلك...".

فقالت أمى: "نعم. أنت على حق. أبقه لديك الليلة، وواظب على التحدث إليه"، وكانت أمى مبتهجة وهى تلقى على الطبيب بآخر تعليماتها.

وهنا استدرنا لمغادرة المكان، وبينما كنا نبتعد بالسيارة، لمست أمى ذراعى.

وقالت: "توقف، من فضلك. لقد نسيت أن أشكر هاتين السيدتين على مساعدتهما لنا".

فرددت معترضا: "يمكننا أن نفعل ذلك فى أى وقت آخر، فنحن سنأتى إلى هنا مرة أخرى".

فقالت أمى فى حزم: "الآن".

فاستدرت بالسيارة وعدت إلى هناك، فنزلت أمى وشكرت السيدتين على الماء البارد الذى أحضرتاه لنا، ثم بدأنا فى القيادة مرة أخرى إلى نورفولك، وكنت أشعر بابتهاج أمى.

قالت أمى: "إن لمسة هذا الطبيب شافية، كما أنه يستطيع أن يخبرك بأى شىء وهو ينظر إلى عينيك".

وهنا صمتت، للحظة تقريبا.

ثم قالت: "إن "رودين" كلب معجزة. هل رأيت الشاحنة؟".

فقلت: "نعم، إنه كلب قوى بالتأكيد لينجو من مثل هذه الصدمة".

فقالت أمى فى إصرار، متجاهلة أى وصف أقل من ذلك: "كلب معجزة، فى زمن ليست فيه معجزات".

ثم استطردت قائلة: "هل تعرف أننى ذاهبة الليلة إلى حفلة موسيقية بمناسبة أعياد رأس السنة، وبعد ذلك ستأتى كل من "كيت" (ابنة أختى) ولورا (ابنتى) للإقامة معى فى المنزل؟".

فردت: "لا"، حيث إننى لم أكن على علم بهذا الترتيب.

قالت أمى، وهى تشير إلى التلال التى تقع على يميننا بينما كنا نقترب من نورفولك: "ها هى تلالى".

ثم دخلنا إلى الطريق المؤدى إلى المنزل الصيفى.

فقلت: "أعتقد أنك لا بد أن تتناولى قدحًا من الشاى".

فوافقت أمى: "فكرة رائعة".

ودخلنا إلى المنزل عبر الباب الخلفى المؤدى إلى المطبخ.

"والآن، أين ذلك الشاى الذى أحضرته لى؟".

فقلت مشيرا: "هناك".

فقالت: "سوف أضع فقط بعض الماء الساخن".

فقلت: "أعتقد أننى سأذهب".

فقالت أمى: "أوه، حسنا".

فتركنا الماء يغلى فى المطبخ، حيث إن أمى لم تدع أبدا أحدًا يخرج من المنزل الصيفى دون أن تصطحبه.

ففتحت الباب.

فرفعت أمى يدها وأنزلت رأسى فى اتجاهها وقالت: "الوداع يا فتاى "جيتسى"!

لقد لاحظت كم أصبحت ضئيلة وضعيفة فى السنوات الأخيرة، ولكنها لا تزال قوية بالشكل الكافى لتجذب رأسى إليها، حتى وأنا أحاول إبعاد رأسى، ثم عضتنى بلطف فى أذنى، فتحت باب المنزل وشققت طريقى عبر المسطح الأخضر إلى الشاحنة.

فتبعتنى أمى.

اتجهت نحوى قائلة: "إننى سعيدة بأنك كنت متواجدا معى، يا فتاى جيتسى"، ثم قبلتنى وعانقتنى مرة أخرى.

فخرجت وركبت السيارة.

فانتظرتنى إلى أن فتحت نافذة السيارة.

وقلت لها: "سوف أتصل بالطبيب البيطرى غدا".

فخفضت وجهها لأسفل.

وقالت: "غدا؟".

فقلت: "حسنا، سوف اتصل به فى وقت لاحق من بعد ظهيرة اليوم".

فردت قائلة: "حسنا، حسنا".

ومـدت يدها إلى داخل السيارة وجذبت رقبتى وعانقتنى وقبلتنى مرة أخرى.

فأدرت السيارة وقدتها عبر ممر السيارات الخاص بالمنزل.

فسارت بجانبى.

وحين زادت سرعة السيارة، جرت أمى لبضع خطوات، ثم رفعت يدها ثم يديها الاثنين لتلوح لى.

ثم صاحت قائلة: "أوه، آه، أوه، آه" بطريقتها الموسيقية التى تنطق بها عبارة التوديع الصاخبة الخاصة بعائلتنا.

وفـى وقـت لاحق من ذلك بعد ظهـيرة ذلك اليـوم، اتصلت بالطبيب البيطـرى. قال الطبيـب: "إن رودين بخير، كل مؤشراتـه الحيوية بخير، كمـا أن النزيف قد توقف، ومعظم الجروح تبدو سطحية، ولكن ينبغى أن نبقيه لدينا ليوم آخر على الأقل. ولكن ربما أنه لن يتمكن من السير جيدا بعـد ذلك، الذى هو من الصعـب أن نقوله فى هذه الحالات، ولكن جسده قد مر بصدمة شديدة".

فقلت: "نعم. شكرا"، لقد سمعت ما يكفى.

فاتصلت بأمى، فقد كنت أعرف أنها فى انتظار مكالمتى لها.

فـردت علـى الهاتف من الجرسـ الأول، وهـو ما لم يكـن معتادا من أمى.

فقلـت لها: "إن رودى بخير، ولكن الطبيب يريد أن يبقيه لديه ليوم أو يومين".

فقالت أمى: "رائع، إنه لكلب خارق!".

وكان مـن الواضـح أنهـا لم تكـن ترغب فـى الاستمـاع إلى مزيد من التفاصيـل؛ فقد اطمأنـت أن كلبها العزيز سيعيشـ، وكانت هذه المعجزة كافية لأمى.

فقلت لهـا: "أحبك"، والتى كانـت إشارتى المعتادة لإنهـاء المكالمة مع أمى.

فـردت قائلة: "أحبك، يا فتاى "جيتسى""، والتـى كانت إشارة إنهاء الحديث المعتادة منها مهما بلغ سنى.

وفـى تلك الليلة كنت قـد استغرقت فى النوم بالـكاد، حين رن جرس التليفون.

فانتظرت إلى أن يخبرنى جهاز الرد الآلى بالمتصل.

وكان المتصل هو ابنتى "لورا".

كانت "لورا" تقول: "أبى، أبى، ارفع السماعة. ارفع السماعة".

ردت قائلا: "لورا، ماذا هناك؟"

قالت "لورا": "أبى، إن جدتى نائمة ولا يبدو أنها ستستيقظ أبدا".

"أين هى؟".

"فى سيارتها".

"فى سيارتها؟".

"نعم، على الطريق الخاص المؤدى إلى المنزل".

"أنا قادم إليكم على الفور".

ارتديت سروالا مـن الجينز وهرعت إلى الخارج. كان القمر مكتملا. وعرفـت لاحقـا أن القمر كان قريبا من الأرض فى تلك الليلة على نحو لن

يتكـرر إلا بعـد مئات السنين. لقد كان القمر فى تلـك الليلة من أسطع ما سيكون على مـدار هذه الألفية. وبينما كنت متجهـا إلى المنزل الصيفى، لاحظـت أن كل شىء قد اغتسل بنور سماوى قوى التأثير. لقد عم الوجود فى تلك الليلة صفاء سماوى، فكان بإمكانك أن ترى كل حائط حجرى وكل إبرة فى أشجار الصنوبر.

كان مـن السهـل رؤية أمـى فى سيارتهـا تحت ضوء القمـر المتلألئ. كان المحـرك لا يـزال دائرا، وحـين فتحت الباب، أدركت علـى الفور أنها قـد توفيت، ولكن لسبب مـا شكرت الله على أن المدفأة الصغيرة قد ظلت تعمل، فكان الجو دافئا داخل السيارة.

لقـد اكتشفت منذ سنتين أنها مصابة بتمدد فـى الأوعية الدموية فى شريـان موصل إلى القلـب. لقد أخطأ الطبيب حين أخـبر أمى أن إجراء عمليـة جراحيـة سيكون صعبًـا، بالإضافـة إلى أنها قد تحتـاج إلى سنة لتشفى تماما.

فقالت أمى للطبيب: "ولكننى ليس لدىَّ سنة لأضيعها!".

فـرد عليها قائـلا: "إذا لم تجرى العملية، من الممكن أن تموتى فى أى وقت".

فقالـت أمى: "رائع!"، حيث إنها لم تكن تخشـى من الموت، ولكنها لم تكن تريد أن تفقد لحظة من لحظات حياتها.

كانـت أمى ترتدى قبعة غريبة أشبـه بذلك الشىء الذى ارتداه الملوك الثلاثة فى فيلم *The Three Kings*. كما كانت ترتدى معطفها وقرطها وعقدها المفضلين.

كما كانت ترتدى قفازها الأحمر المفضل. فى كل عام، كانت أمى تطلب منـى شراء زوج جديد من القفازات الحمـراء وذلك من أجل "مناسبات خاصـة". ففى حياة أمى – بالطبع – كانت هنـاك الكثير من المناسبات

الخاصة. على سبيل المثال، الذهاب إلى حفلة موسيقية بمناسبة عيد رأس السنـة، ثم مبيت أحفادها معها فى المنـزل الصيفى بعد ذلك. لقد كانت ترتدى قفازا أحمر جديدا كل عام على الأقل.

وبينمـا كانـت أمى تتقدم فـى السـن، وأصبحت أكـثر دلالا، بدا أنها تضيـف المزيـد مـن القبعات والملابس ذات الألـوان البراقـة والجواهر اللامعـة إلى ملابسها. وفى ضوء القمـر الساطع، كانت تبدو وكأنها ملكة مصريـة عظيمة، تركب زورقا كبيرا فى اتجاه المجـد، وكانت تعلو وجهها ابتسامـة صغـيرة وفخورة وسعيـدة حقا. لقد كانت جاهـزة؛ فقد ارتدت ملابس جميلة لما أطلق عليه "هنرى جيمس" ذات مرة: "المغامرة العظيمة الأخيرة".

فاحتضنـت أمى بين ذراعىّ مثلما احتضنتنـى هى كثيرا منذ ولادتى. لقـد ولدتنى، وأحبتنـى، وهدهدتنى لكى أنام، وكانـت تغنى لى وأنا طفل صغير راقد فى أمان بين ذراعيها. ثم قبلتها. كانت أمى تبدو جميلة؛ لقد كانـت أمـى جميلة دائما، ولكنهـا لم تكن أبدا أكثر جمالا مـن تلك الليلة تحت ضوء ذلك القمر.

لقـد ماتت على ما عاشـت عليه: مفعمـة بالآمال العظيمـة ومتوجهة إلى "مناسبـة خاصة" أخرى، وسعيدة لاعتقادها أنها ستستمع إلى بعض الموسيقى الرائعة وتقضى الليل مع حفيدتيها العزيزتين.

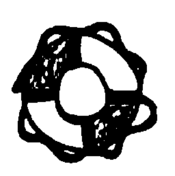
لقد مرت عشر سنوات تقريبا منذ وفاة أمى.

لقـد أحبت أمى الحياة واعتبرت كل لحظـة بمثابة "مناسبة خاصة". إن روحها هدية عظيمة لى تلهمنى وتملأ علىَّ حياتى.

كانـت أمى تبدأ كل وجبة بالدعاء الآتـى: "تبارك الله الذى من عنده تتنـزل النعـم، والذى يستحق الحمد مـن كل البشر"، وكانـت تصر على

أن ندعـو نحن أيضا بهذا الدعاء ونحـن نمسك بأيدى بعضنا حول مائدة الطعام.

لم تتوقـف أمى أبـدا عن شكـر الله أو الشعور بالحـب والامتنان لكل المخلوقات الأرضية.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

تذكـر أن حـب الأم اللانهائى والمفعم بالأمل هـو أحد أعظم الهبات التى منحها الله لنا.

دائمـا مـا تستغرق الأم الوقت اللازم – حتى فـى آخر مساء لها – فى التعبير عن الشكر والامتنان للآخرين.

لم أنس أبـدا كيف أنهـا أصرت علـى الرجوع مرة أخـرى للتعبير عن الشكـر للسيدتين اللتين تعملان لدى الطبيب البيطرى قبل أن نعود إلى المنزل.

لم تدع أمى ضغوط الحياة تتعارض مع الطريقة التى أرادت أن تعيش بها.

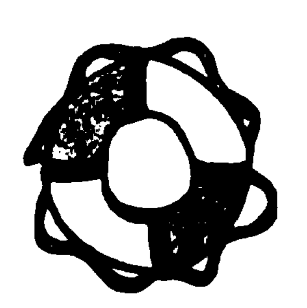


الدرس ٩

تخلص من... ساعة يدك
(وهاتفك الخلوى ومساعدك الرقمى الشخصى)!

"ليس لدىَّ وقت لقول: "مرحبا"
و"إلى اللقاء"، فأنا متأخر، متأخر، متأخر!".

ــــ الأرنب الأبيض المنزعج فى رواية " أليس فى بلاد العجائب"



فـى الليلـة السابقة، بينما كنت أتحـدث إلى مجموعة من الأشخاص فى متجـر الكتب، شَمَّرْتُ كمـى، وكشفت عن رسغى.

وهتفت قائلا: "تخلصوا من ساعاتكم!".

رفع الجميع رؤوسهم على إثر صيحتى القوية، وتوقف القليل منهم عن النظر إلى ساعـات أيديهم وأجهزة البلاك بيرى الخاصة بهم، شاعرين بالذنب.

لقد كنـت مثل هؤلاء المذنبـين الذين يراقبون ساعـات أيديهم؛ حيث كنـت دائم النظر إلى ساعة يدى فى المكتب وفى البيت. وأثناء وجودى مع زملائـى فى المكتب أو أصدقائى أو حتى عائلتى فى حفلات أعياد الميلاد، كنـت أنظـر خلسة إلى ساعة يـدى خائفا من أن أكون متأخـرا عن... أى شىء!

أعتقد أننا فى أمريكا قد شوهنا مبدأ أن العمل واجب يستفيد منه كل فرد فى المجتمع، فقد كان جدى لأمى - وهو سليل المهاجرين الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة على متن السفينة زهرة مايو - يروى لى حكايات عن أيام العطلات الأسبوعية لدى نشأته فى كاليس بمدينة ماين فى التسعينيات من القرن التاسع عشر.

يقول جدى: "لم يكن مسموحا لنا بالقيام بأى شىء طوال اليوم، فلم نكن نعمل أو نلعب، بل كان علينا أن نجلس ونتأمل فى الطبيعة من حولنا. وكان هذا صعبا علىَّ وأنا طفل صغير".

ربما كانت تلك العطلات الأسبوعية الصارمة شكلاً غير متوازن بالنسبة إلى ما كان يعتبره البشر أمرًا صحيا وسليما. فقد كان من الصعب على جدى ألا يقوم بأى شىء طوال اليوم، خاصة باعتباره طفلاً. ولكن، أعتقد أننا الآن قد وصلنا اليوم إلى شكل من الحياة غير متوازن بالمثل، فنحن دائما مشغولون بقضاء كل ثانية من حياتنا فى الأعمال.

إننى أشعر بالقلق على هؤلاء الأطفال الذين يقضون العطلات - وكل الأيام - فى القيام بأنشطة مجدولة كثيرة جدا لدرجة أنهم بالكاد يجدون فرصة للتوقف والتأمل فى الطبيعة أو فى أى شىء آخر!

ماذا عن والديهم المحملين بأعباء عمل مفرطة؟ فى حياتى السابقة، كنت أعمل فى بعض الأيام اثنتى عشرة ساعة لأتيقن من أننى قد قمت بأكثر قدر مستطاع من المهام، كما لو أننى أسابق ما يشبه ساعة إنجاز شخصية.

واليوم، ومع وجود تكنولوجيا تسمح لنا بالتواصل الدائم مع أعمالنا على مدار ٢٤ ساعة فى اليوم لسبعة أيام فى الأسبوع، ما من أحد يتوقف أبدا عن العمل بالفعل.

لقد أصبحت مراجعة رسائل البريد الإلكترونى المستلمة من الزملاء على المساعد الرقمى الشخصى، وتصفح شبكة الإنترنت لمعرفة آخر الأخبار بمثابة عادات مستديمة بالنسبة للعديد من الأشخاص.

وقد جاء اكتشافى لاصابتى بورم فى المخ كإنذار لى للاستفاقة من ذلك النوع من الجنون. إنه تنبيه قوى إلى أن وقتنا على هذه الأرض محدود! فأعمارنا، كبشر، أطول كثيرا من أعمار النحل ولكنها أقصر كثيرا من الأشجار العملاقة.

وهذا يعنى - بالنسبة لى - أنه بدلا من جدولة كل لحظة، ينبغى علينا أن نخصص بعض الوقت من حين إلى آخر للتأمل فى الحياة والشعور بالبهجة التى لا يمكن أن تشعر بها أبدا إلا إذا توقفت عن العمل الدائم وبدأت فى الاستغراق فى تأمل الوجود من حولك.

واليوم، أصبحت أستيقظ من النوم، وأنهض من الفراش ببطء (قليلون هم من يقفزون من الفراش فى الثامنة والستين)، وأذهب للمساعدة على "فتح" مقهى ستاربكس الذى ما زلت أعمل فيه فى إعداد القهوة. وفى الخامسة والنصف، يكون علينا أن نتأكد من أن القهوة معدة والفطائر جاهزة والموسيقى منسابة وأننا مستعدون لتحية أول زبون متلهف بابتسامة واثقة وللقيام على خدمته جيدا.

فى وردية الصباح المبكر هذه، لا يكون لدينا وقت لنضيعه، ولكن مع حلول وقت الظهيرة أو فى الساعة الواحدة بعد الظهر، أكون حرا فى الخروج والاستمتاع ببقية اليوم.

ويمكننى أن أذهب للسير، أو قضاء الوقت مع أبنائى، أو قضاء الوقت مع نفسى؛ فبإمكانى أن أتأمل، أو أن أقرأ، أو أن أكتب. بإمكانى أن أستغل "وقت فراغى" على نحو عفوى، وبأى شكل أريد. كما يمكننى أن أنمى

نفسى على النحو الذى أريد. فالوقت غير المنظم نعمة عظيمة بالنسبة لى! لقد منحنى عملى فى وظيفة بدوام جزئى حياة بدوام كامل.

ولا أعتقد أنه كان من الممكن أن أكون قادرا على تقدير هذه السعادة الجديدة التى وجدتها دون هبة الوقت التى أتمتع بها حاليا، والمؤسف - على الرغم من ذلك - هو أن معظمنا يفضل خيار أن يتوافر لديه بعض أوقات الفراغ؛ فنحن ببساطة لا نوفره لأنفسنا. إن العديد منا اليوم يحيون - مثلهم فى ذلك مثلى حين كنت أعمل فى مجال الدعاية والإعلان - حياة غير متوازنة يناضلون ليجعلوا كل ثانية من حياتهم ذات أهمية بطريقة تجرد كل لحظة من فرصة الاستغراق خلالها فى التأمل.

هناك قصة عن الفيلسوف "بوذا" يقول فيها: إنه مر بأسعد لحظة فى حياته وهو فى الرابعة من عمره حين تركته مربيته وحده لدقائق قليلة. وحيث إنه تُرك دون رعاية، فقد سنحت له فرصة نادرة بأن يراقب فراشة ترقص فى اتجاه زهرة وأن يستمتع بضوء الشمس وهى تميل على الأشجار الخضراء، ويقال: إن "بوذا" كان يعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التى يُترك فيها وحده دون أنشطة مجدولة ويستمتع فيها بلحظة من الوجود المجرد - وهو فى حالة من التناغم مع الكون - أشعرته بالسعادة الفورية.

لقد تمكن "بوذا" عند ابتعاد مربيته عنه من أن يعيش اللحظة بحق. ويقال: إن "بوذا" كان يعتقد أن مثل هذه اللحظات العفوية كانت أعظم هبة فى الحياة على وجه الأرض، فكم هى اللحظات الهادئة غير المنظمة التى نمنحها لأنفسنا فى هرولتنا المعاصرة للذهاب إلى مكان ما أو القيام بشىء ما؟

ومعظم تماثيل الفيلسوف "بوذا" تصوره وهو جالس، فهل يرجع هذا إلى أن المرء لا يستطيع الركض نحو تلك اللحظات الهادئة؟

ربما يمكنك أن تعيش هذه اللحظات فقط إذا ما خلعت ساعتك وأغلقت هاتفك وبريدك الإلكترونى، ونسيت إحساسك بالوقت. وتركت نفسك تجلس فى سكون. ألا نشعر فى بعض الأحيان أننا نسابق الوقت كما لو أن الحياة سباق عدو نريد أن نكون أول ما يعبر خط النهاية فيه؟ كما أننا جميعا نفتخر بهذا الذى نفعله.

هل تلاحظ أننا فى أمريكا حين نلتقى بشخص جديد، فإننا دائما ما نسأله: "ماذا تعمل؟"، كما لو أن العمل أكثر أهمية من الوجود.

إننا نطلق رأينا على الآخرين بناء على ما يفعلونه وليس بناء على كينونتهم الحقيقية.

لو كان "بوذا" حيا، لشعر بالفزع!

إن كل تركيزنا منصبٌّ على العمل وليس على عيش كل لحظة بشكل أكثر عمقا وتأملا. ولكن بالتأكيد من الصعب أن نتأمل أى شىء حين نكون محاطين بساعات عنيدة لا تنفك تحسب الوقت - ساعات نرتديها فى أيدينا. وساعات فى الهواتف الجوالة، وساعات فى الحواسيب، وساعات الحائط، وحتى ساعات صالة الألعاب.

منذ آلاف السنين، كان أجدادنا يحسبون خطاهم بضوء الفجر الزاحف فوق التلال وظلال الغسق وهى تنحسر خلف الأشجار.

وبعد ذلك جاءت الأجراس التى تدق بعدد الساعات ليبقى أهالى المدينة على علم بالوقت، فيكون المزارع الذى يعمل فى حقل بعيد على علم بساعات اليوم.

وبعد ذلك تم اختراع الساعات ذات البندول، والتى أصبحت ملكية سائدة فى العائلة واحتلت أماكن الشرف فى المنزل، تدق بفخر فى إجلال رائع وترن أجراسها الموسيقية بصوت مرتفع كل ربع ساعة. كتب "لورانس ستيرن" رواية كوميدية رائعة تحت عنوان *Tristram Shandy*، والتى

توضح كيف أن قلق الراوى البالغ بشأن لف ساعته ذات البندول قد دمر حياته، وفى الوقت الذى تم نشر هذا الكتاب فيه فى القرن الثامن عشر، أدرك الناس التأثير الوخيم للهوس بالوقت على الحب والحياة. لقد صور كتاب "ستيرن" الساعة ذات البندول على أنها قوة مدمرة للحياة العائلية، وقد حقق هذا الكتاب أعلى مبيعات.

ومنذ حوالى مائة سنة، أصبحت ساعة الجيب ما يشبه رمز النجاح. وقد كانت هذه الساعات تمنح للموظفين الأوفياء لدى تقاعدهم لتذكرهم بكل السنوات العصيبة التى قضوها فى العمل فى الشركة، وكانوا يخرجون الساعات وينظرون فيها وعلى وجوههم نظرة الاحترام بينما تمر الدقائق المتبقية من حياتهم.

وبعد ذلك تم اختراع ساعة اليد، وكانت رخيصة الثمن وسهلة المنال إلى درجة أنه فى وقت قصير أصبح كل شخص يرتدى واحدة، فما من أحد كان يترك منزله دون ارتداء هذه الساعة، وفى النهاية، أصبحت التواريخ والمناطق الزمنية وخطوط العرض وخطوط الطول تبين وتراقب كذلك، كما أصبح بإمكانك السباحة أو الاستحمام دون الاضطرار إلى خلع ساعة يدك.

واليوم، ومع الهواتف الجوالة والحاسبات والأجهزة الإلكترونية الخلابة الأخرى، فإننا لا نفتأ ننقطع عن التركيز الديكتاتورى على مقاييس الوقت.

فلا يمكنك رد مكالمة أو التقاط صورة دون معرفة الوقت بالضبط. لقد أصبحنا الآن - بطرق عديدة - عبيدا، ذهنيا وعقليا، للحسابات المستمرة المحددة، ومن الصعب مقاومة مثل هذا التركيز القلق على كل ثانية تمر.

ومن الصعب الهروب من ثقافتنا المركزة على الوقت. إننى أذكر - وأنا أشعر بالذنب - ذات مرة فى حياتى السابقة بصفتى رجلًا مهمًّا فى مجال الدعاية والإعلام أن ابنتى "بيس" أصيبت بالاستياء منى.

كانت "بيس" فى ذلك الوقت فى أوائل العشرينات من عمرها، وكانت تخطو خطواتها الأولى فى حياتها المهنية فى إخراج الأفلام فى نيويورك. كنت قد دعوتها إلى حفل كبير، وحين حضرت، قمت بتحيتها وقضيت معظم المساء فى الترحاب بالضيوف من المشاهير.

فقالت لى: "أبى، إننى متضايقة بشدة".

فقلت لها: "ولم؟ أعتقد أن الحفل كان رائعا".

فردت قائلة: "لقد كان الحفل جيدا، ولكننى كنت فى حاجة إلى قضاء وقت أكبر معك - وقت نقضيه وحدنا".

لقد كانت "بيس" على حق فى تلك الليلة، فأنا أرى الآن الوقت الذى تقضيه على انفراد مع أبنائك أو عائلتك أو أى أشخاص آخرين تحبهم أو حتى مع نفسك هو أهم وقت على الإطلاق، ولكن فى خضم هرولتنا فى دروب الحياة، دائما ما ننسى أن نمنح أنفسنا الوقت والاهتمام.

لقد أصبحت أبغض تعبير "قتل الوقت". انتبه لنفسك إن وجدت نفسك ذات مرة قائلا لأى شخص: "لقد كنت أقتل الوقت فحسب". دع الوقت يحيا.

لا تكن من الحريصين على النظر إلى ساعات أيديهم.

قال "آرثر روس" - الذى أصبح فاعلا عظيما للخير ومفعما بالحياة فى أواخر التسعينيات من عمره - ذات مرة: "لا تجرد نفسك من الحياة".

لقد أخبرنى قائلا: "إن العديد من الشباب ينهضون مخبرين أنفسهم بأنهم لا يملكون وقتا للتمشى وسط أشجار الصنوبر الجميلة فى متنزه سنترال بارك (التى ساعد "آرثر" على جعل دخولها متاحا

للجميع). بينما أخبرنى آخرون أنهم لا يملكون الوقت للقراءة أو للذهاب إلى المتاحف (التى قام "آرثر" بتمويل الكثير منها). إلا أنهم جميعا يملكون الوقت للهرولة إلى مكاتبهم ومراقبة ارتفاع وهبوط الأسعار فى بورصة وول ستريت على شاشات الكمبيوتر الخاصة بهم بلا انقطاع. وجميعهم لديهم الوقت للرد على كل رسالة بريد إلكترونى جنونية.

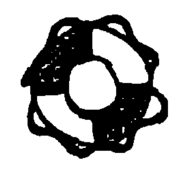
يستطرد "آرثر" قائلا: "حين كنت صبيا، لم يكن هناك كل هذا القدر من الإدمان الإلكترونى. وأنا أقول لكل شاب اليوم: لا تخدع نفسك... امنح نفسك الوقت للخروج والاستمتاع بحياتك!".

اتبع نصيحة "آرثر": امنح نفسك الوقت واستمتع بيومك الذى منحك الله إياه.

إلى الذين يعشقون الحاسبات والهواتف النقالة الخاصة بهم: تخلصوا من قيودكم الإلكترونية.

حرروا أنفسكم!

وابدءوا أولى خطواتكم نحو الحرية: تخلصوا من ساعات أيديكم!



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

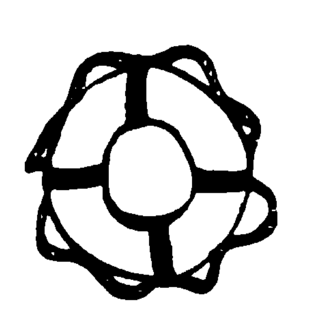
ابدأ على الفور بمنح نفسك ساعة أو ساعتين على الأقل خاليتين من الأنشطة كل يوم، وانظر كم ستجلب لك هذه الأوقات العفوية من راحة واستمتاع.

الفصل ١٠

لا تلق بالا... وسلم أمرك لخالقك

"حين تتعقب كلاب الربيع أثر الشتاء..."

_ *الجرنون تشارلز سوينبورن*



فـى الربيـع الماضى قمـت بإلقـاء نـدوة فى ولايـة نورث كارولينـا، وبعدهـا أخذنـى صديـق لى إلى الخـارج إلى منطقة أكـثر ريفية فى جبال بلو ريدج، وقدمنى إلى عمته "هاتـى". إنها فى الثالثة والتسعين مـن عمرها وما زالت تحيا فى كوخ خشبى.

وحين وصلنا إلى هناك أخذتنا العمة "هاتى" فى جولة حول مزرعتها. كان هنـاك دجـاج جاثـم علـى الأشجار وعنـزة فى الحظـيرة تنبش فى الأرض بحثا عـن طعامها، وقامت العمة "هاتى" بدفـع بغل "عنيد" كان يأكل البراعم الأولى للحشائش خارج رقعة حديقتها.

كانـت العمـة "هاتـى" تبـدو مسترخية جـدا وسط ما بـدا لى قطعة مـن الفوضـى الطبيعية غير المستقرة، وبينما كنا نسـير مستمعين إلى ما تقولـه العمة "هاتـى"، هبت علينا ريـاح باردة، فضممـت سترتى بشدة، علـى الرغم من ملاحظتى أن العمـة "هاتى" كانت تبدو راضية وهى تدع الريـاح تعصف بشعرهـا الأبيض، وكانت ترتـدى رداءً أزرق طويلا يصل إلى كعبيها ولكنه كان بالكاد يكفى لحمايتها من البرد.

قلت وأنا أطبق أسنانى: "لقد ظننت أنه من المفترض أن يكون الجو أكثر دفئا فى الجنوب. أعتقد أن الجو أحسن فى الشمال فى نيويورك الآن".

فرمقتنى العمة "هاتى" بنظرة حادة من عينيها الزرقاوين اللامعتين.

وقالت: "إن الجو يكون باردا فى هذا الوقت من السنة... ولكننا لا نستطيع استعجال الفصول".

توقفت العمة عن الحديث، ولكنها ظلت تنظر لى بحدة كما لو أننى بغل متمرد فى مزرعتها.

ثم قالت: "إن بعض قاطنى المدن لا يفهمون: فنحن هنا فى الجبال نعرف أن كل ما علينا هو ألا نلقى بالا وأن نسلم أمرنا لخالقنا".

فأدركت مقصدها. لقد عشت معظم حياتى فى مدينة مليئة ببنايات من صنع الإنسان، وتقوم على إنجازات حديثة مثل الكهرباء من أجل التدفئة فى الشتاء وتكييف الهواء فى الصيف.

ولطالما كان لدى شعور بأن البشر قادرون على هزيمة المواقف الطبيعية، وكنت أحاول السيطرة على العديد من الأشياء التى كانت تقف فى طريقى.

لقد مررت بسرعة عبر الكثير من الأحداث الطبيعية بداية من ميلاد أبنائى وحتى شيخوختى، وأتذكر أننى عند ميلاد ابنتى "لورا" تغيبت عن العمل فى ذلك اليوم لأحضر الحفل.

وحينها قال لى مدير فى وكالة جيه. دبليو. تومبسون غاضبا: "لقد كان لدينا أحد أهم العروض التقديمية، وكنا فى حاجة إلى وجودك هنا".

فرددت عليه قائلا: "أعرف، ولكنها مرة واحدة فى ...".

فقاطعنى مديرى قائلا: "إن هذا النوع من الفرص لا يأتى إلا مرة واحدة فى العمر، ولكننا الآن لن نحصل على ذلك الحساب!".

لقد ظل غاضبا لشهور - وربما لسنوات - لأنني وضعت "حياتى الشخصية" قبل التزاماتى المهنية. إن المؤسسة وحش لا يشبع أبدا، فهو دائما يطلب منك المزيد، وحتى يكف عن طلب المزيد يلقيك مرة أخرى إلى العالم.

ليس بإمكانى ادعاء أننى ضحية بريئة؛ فقد انغمست فى حياة المؤسسة، حيث لم يكن هناك فصول، وكل ما يشغلنا هو الاندفاع الجنونى من "فرصة" إلى أخرى. لقد كنت دائما أشعر بالجزع تجاه فصول حياتى، بدلا من معايشتها بطريقة محترمة لما كانت عليه تلك الفصول. لقد دفعت الكثير من العلاقات إلى التطور بالقوة بدلا من تركها لتتطور بشكل طبيعى. والآن أدركت أن العديد من الأشياء المهمة فى الحياة تشبه الجو، فنحن نختار أن نتقبله بسرور أو أن نبغضه بحرارة، ولكننا لا نستطيع التحكم فيه.

لقد علمتنى كلمات العمة "هاتى" هذا الدرس الحياتى، وكان علىَّ أن أعرف أن تلك الجبال الجميلة كانت لا بد أن تعلمنى العديد من الأشياء.

لقد زرت جدى لأمى ذات صيف قبل أن أذهب للدراسة فى ييل وتعلمت منه شيئا أو شيئين. لقد انتقل إلى آشفيل فى الجنوب، فى ولاية نورث كارولينا خلال فترة الكساد الأعظم: والتى كانت هذه الفترة - بالنسبة له - خسارة جغرافية ومالية، فلقد انتقل جده الأكبر، "سولومن جايتس" إلى ماين عام ١٨٠٠ حين كانت قفرا وكانت جزءا من ولاية ماساتشوسيتس. وبدأ فى العمل فى تقطيع الأخشاب فى الغابات التى لم تكن قد وطئها بشر بعد. وبعد ذلك، قام ابنه " إيفرايم تشرش جايتس" بتوسيع قاعدة عمله بإرسال مراكب مليئة بقطع الخشب إلى بوسطن ونيويورك، ثم جاء ابن "إيفرايم"، "تشرش إيفرايم جايتس"، الذى قرر أن يفتح محلًا لبيع

الأخشـاب فى نيويورك بعد أن حارب فى الوحدة العسكرية فى ماين إبان الحرب الأهلية. وأخذت التجارة فى الازدهار مع نمو المدينة.

لقـد عاشـ جدى، الـذى أطلق عليه اسـم "جرامبرو"، حيـاة يسيرة باعتباره وريثا لإمبراطورية تجارة الأخشاب هذه. حين كان طفلا صغيرا، كانـت والدته تأخذه إلى مصـر لتجنب الشتاء فى نيـو إنجلاند. كما أنه درسـ فى مدرسـة هوتشكيس وفـى جامعة يل، ثم ارتبـط وتزوج وأنجب أطفـالاً ولم يكـن يقلق أبدا بشـأن المال. ثم بدأت الأمـور تتغير بين عشية وضحاها.

وقـد قال لى "جرامبرو" ذات مرة ونحن على مائدة الإفطار فى ذلك الصيـف الذى قضيته معه: "حين حدث الكسـاد توقف كل شىء؛ ولم يتم بناء حتى منزل واحد".

لقد انتقـل "جرامبرو" إلى آشفيل فى الجنـوب لإدارة شركة صغيرة أسسها له أحد أقاربه، وكان "جرامبرو" وبضع مساعدين آخرين يقومون بتوزيـع الفحـم والمشروبـات الغازية حـول المدينة، وقـد منحنى فى ذلك الصيف عملا كمساعد له.

كنا نستيقظ فى الخامسة صباحا وكان "جرامبرو" يعد لكل منا بيضة مسلوقـة وقدحًا من القهوة. وكنت فى ذلك الوقـت فى الثامنة عشرة من عمرى، وكنت أتصرف كما لو أننى أعرف كل شىء.

فقلت له بعد أسبوع مـن تناول الإفطار نفسه كل يوم: "لقد سمعت أن تناول البيض والقهوة بكثرة ليس جيدا لصحتك".

فنظر إلى بعينيه الزرقاوين. وقد كان "جرامبرو" رجلا وسيما، وكان دائمـا ما يجلس مستقيما حتـى على مائدة الإفطار. فقـد نشأ فى عصر العربات التى تجرها الخيل. فكان يجلس مستقيم الظهر حتى وهو يتناول الإفطار كما لو أنه لا يزال يمتطى ظهر الخيل.

ذات مرة أخذنى "جرامبرو" لأمتطى معه الخيل، وكان يريد بذلك أن أشاركه حبه للخيول، وخرجنا على ظهرى حصانين قام باستعارتهما من صديق له يقطن فى الجوار فى قرية بلتيمور فورست، وهى قرية صغيرة تقع فى خارج آشفيل، وكان المكان يشبه نورفولك حيث كان يقع على قمة التلال، وكان هناك الكثير من العربات التى تجرها الخيل تدور فى أرجاء الغابة.

هرول "جرامبرو" مسرعا متخذا وضعًا رائعًا على ظهر فرسه، وفى دقائق كان بإمكان حصانى أن يدرك أننى فارس غير ماهر فتوجه إلى المنزل، ولم يكن بإمكانى فعل شىء إلا الإمساك باللجام بينما كان فرسى يسرع عائدا إلى الإسطبل، وأدار "جرامبرو" فرسه ولحقنى وأنا أترجل.

فقال: "لا تقلق، فأهم شىء أن فرسك قام ببعض التمرينات الجيدة!".

وفى ذلك الوقت والمكان كنت أنا ذلك الرجل العليم بأحكام التغذية الجديدة، والذى يحاول أن يخبر جده بما عليه أن يأكل.

فقال لى بتأن ناظرا لى بنظرة لا تطرف: "أعتقد أنه بعد ثمانين عاما سوف أستمر فى تناول البيض والقهوة".

ولم نناقش ذلك الأمر مرة أخرى. وعلى الرغم من كياسته القديمة الطراز، كان "جرامبرو" شخصا صعبا. وعلى الرغم من أنه كان يبدو نحيلا وهزيلا، إلا أننى كنت أراه وهو يحمل صناديق المياه الغازية وكأنها ريش ثم يدفعها إلى الشاحنة.

وكان يتمتع بشجاعة يمكنك أن تحسها، وكان كل الرجال الذين يقطنون الجبل والذين يعملون معه يكنون له الاحترام والحب، وكان "جرامبرو" يقضى ساعات محاولا تعليم هؤلاء الرجال كيفية القراءة أو

على الأقـل كيفية التوقيع بأسمائهم. لقد كان هـؤلاء الرجال يعيشون فى زمان ومكان لم يكمل فيه الكثيرون تعليمهم المدرسى.

كان هنـاك حس للعدالة يشيع فى تلـك التلال حيـث أعمل فى حمل الفحـم والمياه الغازية. ذات يوم، أخبرنى أحـد الرجال الذين كنت أعمل معهم قائلا: "سوف أتعطل غدا عن العمل".

وكان ذلك الأمر نادرا فى تلك الأيام، حيث كان كل شخص فى حاجة إلى كل دولار يمكـن أن يحصـل عليـه؛ فأزمة الكسـاد الأعظم لم تكن قد انتهت فـى تلك الجبال القديمة بعد - حتى فـى الخمسينيات من القرن العشرين، حين كنت أعمل هناك.

فسألته قائلا: "لماذا؟"، على الرغم من أننى قد أُمرت بعدم طرح أى أسئلة.

قـال لى "ويلارد رايس" وهو رجل ضخم مـن سكان الجبل كان جدى قـد كلفه بالعناية بى أثنـاء النقل: "لا تتحدث على الإطـلاق إلا إذا قالوا مرحبا؛ فهم لا يحبون أبناء نيو إنجلاند ولا يحبون الغرباء، ولا تطرح أية أسئلة". كان "ويلارد" يبتسم وهو يقول لى ذلك، ولكننى كنت أنصت إليه بحرص لأنه نادرا ما يقول أى شىء".

وقد أدركت فيما بعد أن ذلك الأمر يرجع إلى تاريخ تصنيع المشروبات فى الجبال دون علم الحكومة الأمريكية؛ حيث كان من الضرورى أن يظل هـذا الأمر سـرا، ولكن كان علىّ أن أسـأل "جيمسشنرى" (وكان الجميع ينادونه بالاسمين معا) عن سبب تغيبه عن العمل فى اليوم التالى.

أجابنـى الرجـل قائـلا: "لقـد أخبرت جـدك أن لدى بعض الشئون الخاصة".

وأى شخـص عاقـل كان سيتوقف عند ذلك الحـد، ولكننى كنت شابًّا ومتغطرسًا.

فسألته قائلا: "وما الذى يعنيه ذلك؟".

فتوقف "جيمسشنرى" عن غرف الفحم، وقد حاول أن يعلمنى كيف أحمل المجرفة بظهرى وليس بذراعى؛ ولكننى كنت بطىء التعلم ولم أكن أستطيع حمل أطنان الفحم التى كان يحملها هو فى اليوم الواحد.

فسكت "جيمسشنرى" للحظة ليستند إلى مجرفته ثم قال: "منذ أسبوعين قام أحد الرجال أثناء جنازة بدفع زوجتى الحامل إلى القبر، وأنا ذاهب لأقتله".

فلم أتفوه بكلمة بعد ذلك، وفى كل صباح تقريبا كنت أسمع "ويلارد" والرجال الآخرين وهم يتحدثون عن شخص قام بطعن شخص آخر أو ما شابه. لقد كانت المشاجرات تنتهى بالقتل فى هذه التلال، وقد عرفت فيما بعد أن هذه الجبال أفرزت بعضًا من أعظم رجال قوات المارينز.

على الرغم من أن "جرامبرو" كان من أبناء الشمال، إلا أنه كان مقبولا من قبل هؤلاء الرجال، ربما لأنه كان من نفس الخلفية الفكرية الخاصة بهم. فلم يكن هناك غبار عليه.

أخبرنى "جرامبرو" ذات مرة ونحن على مائدة الإفطار قائلا: "ذات مرة أشهر رجل بندقيته فى وجهى، كنت فى ذلك الحين فى نفس عمرك، وكنت فى طريقى من محل تجارة الأخشاب فى نيويورك عائدا إلى المنزل، وكنت قد قضيت أسبوعا هناك فى مساعدة أبى فى العمل، وكنت أحمل حقيبة تحوى ملابسى المتسخة. وقد ظن ذلك المحتال أننى أحمل رواتب الشركة بأكملها، ولم أكن مستعدا لأن يأمرنى أحد على ذلك النحو. فحاولت أن أضربه فى وجهه بالحقيبة، فأطلق النار على وجهى".

فسألته قائلا: "ثم ماذا حدث؟".

فأجاب قائلا: "ها أنا ذا أجلس أمامك، ألست كذلك؟".

وعرفت لاحقا أن الرصاصة كانت قد اخترقت أحد جانبى فمه، ودمرت بعض أسنانه ثم خرجت من الجانب الآخر. إن "جرامبرو" لم يكن شجاعا فحسب، بل وكان محظوظا جدا جدا حتى يظل حيا، ولكنه لم يكن محظوظا بالقدر ذاته فى بعض الجوانب الأخرى من حياته.

بعد أن انهارت تجارة الأخشاب الخاصة بالعائلة، كان العمل الجديد فى آشفيل يبدو جيدا بالنسبة لجدى، وكان هذا العمل يتمثل فى توزيع الفحم على المنازل للتدفئة فى الشتاء والمشروبات الغازية فى الصيف. وقد بدا أن ذلك العمل لا يمكن أن يفشل، ولكن حينئذ بدأ الناس فى استبدال الفحم بالنفط، وشركة المياه الغازية التى كان يوزع منتجها لم يصبح لها وجود بعد سنوات عديدة من محاولة التنافس مع شركة مياه غازية أخرى.

وهكذا، فقد قضى "جرامبرو" حياته كلها محاولا كسب عيشه. إلا أننى لم أسمعه يشكو أبدا.

ويمكننى الآن أن أراه على مائدة الإفطار الصغيرة وهو يرجع رأسه إلى الخلف مطلقا ضحكة رائعة عالية.

وقد كتب لى "جرامبرو" على بطاقة بريدية أرسلها لى عندما عدت إلى موطنى فى الشمال قائلا: "عش كل يوم من حياتك".

وقد احتفظت بهذه البطاقة البريدية. كما ظل صدى هذه الكلمات يتردد فى أذنى. تماما مثل تذكير العمة "هاتى" لى بألا أشغل بالا وأن أسلم أمرى لخالقى. إن "جرامبرو" مثل العمة "هاتى" لم يصارع الكون ولم يشك من الأقدار القاسية.

وفى طريق العودة إلى نيويورك على متن الطائرة فى تلك الليلة بعد زيارة العمة "هاتى"، بدأت أغنى أغنية، ولم يكن لدىَّ أية فكرة عن مصدر

هـذه الأغنية، وليس لدىَّ فكرة حتى الآن. إذن، دعنا نقل: إن مصدر هذه الأغنية كان فى جبال البلوريدج فى ولاية نورث كارولينا.

وهـا هـى الأغنية التى تغنيت بهـا وأنا على متن الطائـرة المتجهة إلى موطنى فى الشمال بعد سماعى لكلمات العمة "هاتى" الحكيمة.

لا تشغل بالك وسلم أمرك إلى خالقك

من يمكنه دفع الشمس للشروق؟

لا تشغل بالك وسلم أمرك إلى خالقك

فالربيع يأتى فى الوقت المناسب

لا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك

أيمكنك التحكم فى أقدارك؟

لا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك

شاهد، وعش، وابتكر

ولا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك

وارحل إلى مقر إقامة الصالحين

ولا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك

تخلص من النقد وإصدار الأحكام

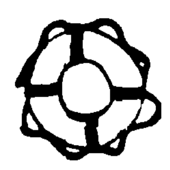
ولا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك

وكن أفضل ما يمكن أن تكون

ولا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك

واقبل لغز الحياة

ولا تشغل بالك وأسلم أمرك إلى خالقك



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

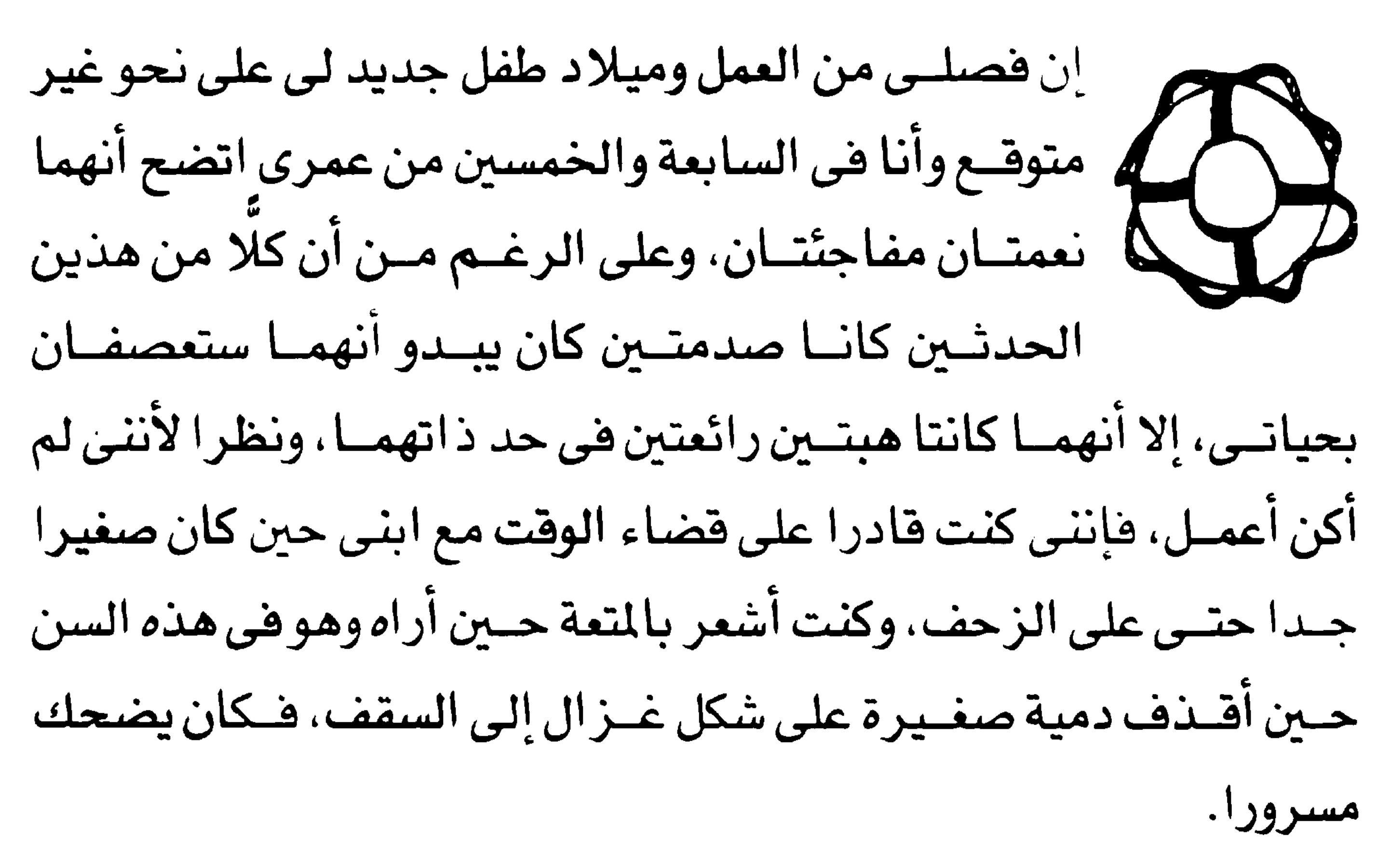
إن الحيـاة مثـل حالة الطقس: يمكنـك أن تتحدث عنها كثـيرا، ولكنك، جوهريـا، لا يمكنـك التحكم فيها بشكل كامـل. قم بما فى وسعك، ثم لا تشغل بالك و أسلم أمرك لخالقك.

الدرس ١١

اضحك... وانظر للأمور برؤية جديدة

"الضحك أفضل دواء".

ــــ مثل شعبى



إن فصلى من العمل وميلاد طفل جديد لى على نحو غير متوقع وأنا فى السابعة والخمسين من عمرى اتضح أنهما نعمتان مفاجئتان، وعلى الرغم من أن كلًّا من هذين الحدثين كانا صدمتين كان يبدو أنهما ستعصفان بحياتى، إلا أنهما كانتا هبتين رائعتين فى حد ذاتهما، ونظرا لأننى لم أكن أعمل، فإننى كنت قادرا على قضاء الوقت مع ابنى حين كان صغيرا جدا حتى على الزحف، وكنت أشعر بالمتعة حين أراه وهو فى هذه السن حين أقذف دمية صغيرة على شكل غزال إلى السقف، فكان يضحك مسرورا.

فقبل ميلاد "جوناثان"، كنت فى حالة من الإحباط تزداد سوءا يوما بعد يوم. ونسيت كيف أضحك من نفسى أو أضحك من الاندهاش أو أضحك حتى على أبسط المشاهد: مشهد الرياح وهى تحمل ورقة شجر وتؤرجحها فى الهواء، والأمطار الغزيرة المفاجئة التى تنزل علينا على نحو غير متوقع هذه المئات من اللحظات خلال كل يوم والتى إن أعطينا أنفسنا فرصة لمعايشتها حقا، أصبح بإمكاننا الضحك مع الحياة.

إن الضحك مع الحياة - بدلا من أخذ كل شيء يحدث على محمل الجد - يعد بمثابة وصفة لنمط من السعادة العقلية والعاطفية الصحية التى نسيتها لوقت طويل.

لقد استعدت البهجة التلقائية للحياة فى اللحظة التى سنحت لى فيها الفرصة لقضاء الوقت مع وليدى. لقد كان جديدا على الحياة، ولم يكن يخاف من أن يضحك بسعادة بالغة علىّ وعلى كل شيء آخر كان يراه.

حين أتى "جوناثان" إلى حياتى أعطانى رؤية أساسية، وهى أن الحياة يمكن أن تكون مرحة. لقد أضحكته حين غيرت معالم وجهى برفع شفتى إلى الأعلى وإغماض عينىَّ، ثم فتحهما فجأة. لقد كان الأمر مضحكا له حين زللت وأنا أحمل طعام الحبوب الخاص به متجها ناحيته فسقط بعض منه على الأرض. لقد تعلمت أن أضحك معه، وعلى نفسى وعلى المفاجآت البسيطة الخاصة بالحياة.

فى العصور الوسطى، كان لكل ملك المهرج الخاص به ليمزح معه ويذكره بأنه إنسان. واليوم هناك المذيعون الساخرون فى التليفزيون الذين يظهرون فى آخر الليل، والذين يجعلون للعالم معنى بتذكيرنا بكم الهراء الجاد الذى نتحدث عنه طوال ساعات النهار.

إن الضحك ضرورى لإضفاء منظور جديد وتقليص هؤلاء المتغطرسين الذين يدعون أنهم يتحكمون فى العالم.

فى خضم فشلى الشخصى والمهنى نسيت إلى حد ما كيف أجعلك تضحك بحق.

إننى لا أعنى أن تضحك فحسب على مزحة محددة، *ولكن أن تضحك دون خوف وبتوجه مسترخ تجاه قدرك حين تعصف بك الحياة* وأن ترى تقلبات الحياة المختلفة وفوضاها المتكررة على أنها فرصة للاسترخاء والتبسم والضحك على تظاهرى البائس بالقدرة على التحكم. إن هناك

الكثير من الفرص فى هذه الحياة لنا لننزلق على قشرة موز، وبإمكاننا أن نختار أن نتعامل مع هذا السقوط غير المتوقع على أنه مأساة أو موقف كوميدى، وربما كان من الأفضل لصحتنا أن نضحك بينما نتزحلق عبر رصيف الحياة الزلق.

بدءا من "تشارلى شابلن" إلى "تينا فاى" فقد ساعدنا كل هؤلاء الساخرين على رؤية سخافة المحاولات المضنية للتحكم فى الحياة، ونحن نستفيد حين نتمكن من إضافة مثل هذا الإدراك والضحك إلى يومنا.

كان "جوناثان"، مثل جميع الأطفال حديثى الولادة، يستطيع الضحك والابتهاج فى الحياة، وقد ساعدتنى غريزته الطبيعية للترحيب بأعجوبة الحياة مع الضحك على التقدم على المستوى العاطفى وجعلتنى أنزل عن كاهلى عبء اتخاذ الحياة على نحو شديد الجدية.

كان "جوناثان" يقهقه ويبتسم حين ألمس صدره الصغير، وكان يمسك أصابعى بيديه، وينظر فى عينىَّ، ويبث فى قلبى حبه للحياة. لم تكن هناك حواجز بينى وبين "جوناثان" ولم تكن هناك حواجز بينه وبين الحياة نفسها. ولم تكن هناك دفاعات مبنية بإتقان.

إن مشاركتى له لحظاته الأولى منحتنى شعورًا بقدر الندرة والسحر الذى يمكن أن تكون عليه كل لحظة من لحظات حياتنا. كم نصبح منهكين بسهولة حين تتقدم بنا العمر! فى أية مرحلة من العمر يكون بإمكاننا تعلم فتح أعيننا مرة أخرى، وذلك ببساطة من خلال قضائنا الوقت مع الصغار الذين يعيشون بيننا.

ونظرا لأننى لم أكن مضطرا للهرولة إلى أية شركة، كنت أرى "جوناثان" فى الصباح الباكر من كل يوم. فأنا أحب الاستيقاظ مبكرا - فى الرابعة أو الخامسة صباحا، وكانت والدة "جوناثان" تشعر بالسعادة لأنها ستنام لساعة أو ساعتين إضافيتين، وكان "جوناثان" يستيقظ مبكرًا

مثلى، فكنت أذهب إلى حجرة والدته وآخذه من بين ذراعيها حتى يمكنها أن تحظى بالمزيد من الراحة.

فى تلك الساعات المبكرة من حياته، كنت أنا و"جوناثان" نراقب شروق الشمس ببطء. كان الأمر يستغرق ساعة أو ساعتين حتى تصبح السماء مضيئة، حيث تتبدل الظلمة إلى لون أزرق أفتح فأفتح، ثم تظهر أشعة الشمس الأولى. لقد كان الأمر يبدو وكأنك ترى الحياة من منظور جديد.

وبينما كنت أراقب ضوء الصباح الباكر، أدركت أكثر من أى وقت مضى أن كل يوم هو ميلاد جديد. فى بعض الأحيان، كنت أسقيه اللبن فى رضّاعة الأطفال، أو أضعه فى كرسى وأهزهزه، ولم تكن عيناه الزرقاوين الواسعتين تفارقان وجهى، وكانت أصابعه الدقيقة تترك الرضّاعة من حين إلى آخر لتستكشف فكى أو تلمس جفنى؛ فكل شىء كان جديدا عليه وجديدا علىَّ أنا أيضا مرة أخرى، وفى بعض الأحيان، كنت أغنى له بصوت خفيض، فكان يبتسم ويرفع يده الصغيرة كما لو أنه يتحرك مع النغمة.

وما إن تعلم الزحف، كان يزحف بطول سجادة حجرة المعيشة إلى أن يصل إلى الأريكة. فكنت أساعده على التسلق إلى أعلى الأريكة وأجلسه مسندا ظهره إلى الأريكة، وكنت أجلس على الأرض وأقذفه بدمية على شكل زرافة. فكان يضحك ويرميها لى مرة أخرى.

وكانت العديد من الأفعال البسيطة تدفعه إلى الابتسام أو الضحك بهدوء، فكان إذا ما تحولت عنه بناظرى ثم نظرت له مرة أخرى بسرعة، يضحك، وإذا ما مددت فمى إلى الأمام، يضحك، وكانت ضحكته تحمل موسيقى شجية لأعذب جرس صغير.

وحين كبر "جوناثان" وتعلم المشى ثم الجرى على ساقيه الصغيرتين الممتلئتين، بدأنا فى ابتكار ألعاب جديدة، فكنت أحتضنه بقوة بين ذراعيه،

فيبتعد هو عنى، ويجرى بكل قوته، وكان فخورا بقدرته الجديدة، وكان حين يصل إلى نهاية الغرفة، يستدير ويضحك، فكنت أرد له الضحك.

وكنت أقول له: "يا لك من عداء سريع!".

وكان يجرى ناحيتى مرة أخرى، فآخذه بين ذراعى وأحتضنه بقوة، وبعد ذلك كان يحاول جاهدا من أجل تخليص نفسه من بين ذراعى. وكان يرغب فى الجرى مجددا، لمئات المرات، وذات صباح، وهو يحاول الابتعاد عنى، اكتشف أن بإمكانه الجرى إلى الوراء، فاتخذ بعض الخطوات إلى الخلف ثم بدأ فى تحريك قدميه بسرعة أكبر، ثم توقف بالضبط قبل الأريكة التى تقع فى الناحية المقابلة من الحجرة، فكان يضحك بابتهاج، ثم يجرى إلى الأمام تجاهى ثم إلى الوراء فرارا منى طوال ذلك الصباح الباكر. ضاحكا بسعادة على هذا الإنجاز الجديد الذى حققه.

لقد أحببت تلك الأوقات البهيجة التى قضيتها مع "جوناثان"، مراقبا إياه وهو فرح بقدراته الجسمية الجديدة.

ولكن فى بعض الأحيان. كنا نجلس بهدوء معا فيما يشبه الراحة القصيرة ونراقب الرياح وهى تحرك تلك الأشجار البعيدة، وكان يشير بإصبعه الدقيق إلى الفروع وهى تتحرك وتهتز.

فكنت أقول له: " شجرة".

فكان يرد علىَّ مصدرا صوتًا يشبه كلمة "شجرة".

وكان ذلك اكتشافًا آخر بالنسبة له. فكان يبتسم ويضحك بينما نسمى الأسماء من حولنا، حتى فعل تبادل الكلمات كان يفجر على شفتيه ينبوعا من الضحك.

وفى وقت متأخر، كانت والدته تأتى إلى حجرة المعيشة، فاركة عينيها لتزيل عنهما أثر النوم.

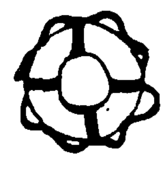
وكان "جوناثـان" يضحـك بابتهـاج حين يراها وكان جسـده بالكامل ينتفض من الإثارة.

وعلـى الرغم من الوقت الذى كان يقضيـه "جوناثان" معى، فإنه كان يفتقـد والدته. ورغـم حاجة أمه إلى النوم لتستيقـظ منتعشة، فقد كانت تفتقـده، فـكان يمـد لها ذراعيـه الصغيرتين حـين كانت تحملـه لتضمه إليها.

وكان ضحكهمـا وتعبيرهما عن حبهما لبعضهما يظهر قدر سعادتهما بأنهما أصبحا معًا مرة أخرى بعد ساعات قضياها بعيدا عن بعضهما.

إن الضحك يمكن أن يكون أفضل وسيلة لاسترداد رؤية عقلية وعاطفية صحية، خاصة حين نشترك مع شخص آخر فى الضحك.

كمـا أن الضحك مـع الحياة أكثر مرحا من محاولـة فرض سيطرتك على كل لحظة من كل يوم!



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

إن الضحك هدية الصحة العقلية التى يمكننا أن نمنحها لأنفسنا فى أى وقـت مـن أوقات حياتنا، ولكنه يكـون مهمًا بشكل خاص حين لا تسير الأمور على النحو الذى تخيلناه.

إن قـدرة "جوناثـان" الطبيعية على الضحك على الحياة بابتهاج وعدم خوفـه علمانـى درسا مهمًـا ألا وهو: من المهم ألا تـدع المخاوف الجادة تمنعك من معايشة كل لحظة تمر من حياتك.

والدرس الآخر الذى تعلمته من الوقت الذى قضيته مع "جوناثان" أنه فى بعض الأحيان حين تتغير حياتك على نحو درامى، فإن هذا الأمر يمنحك الفرصة لاكتشاف الهبات الجديدة التى لم تكن لتكتشفها إلا مع الذين أتوا إلى الحياة حديثا.

حين تحصل على مثل هذه الفرصة فى الحياة، اقضِ مع الأطفال الصغار قدر ما يمكنك من الوقت؛ فبهجتهم هى التى تذكرنا بالسحر الذى يمكننا جميعا أن نشعر به فى أية مرحلة من العمر!

إننى لم أكن لأتعلم هذا الدرس لولا فصلى من الوظيفة التى كانت تدفعنى إلى العمل لمدة اثنتى عشرة ساعة فى اليوم فى حياتى السابقة.

فعند مولد أبنائى الآخرين، لم أكن أقضى معهم مثل هذا الوقت النفيس على انفراد لأننى مشغول بالعمل.

واليوم، أصبحت ممتنًا لفصلى من العمل فى الوقت المناسب حتى أقضى مع "جوناثان" تلك الساعات من الصباح.

إن الضحك الذى ضحكناه معًا سوف يبدو دائما بمثابة تنبيه باعث على البهجة، تنبيه من أجل الابتهاج فى الحياة!



الدرس ١٢

عش... كل يوم شاعرا بالامتنان، وكأنه يومك الأخير

"أنت تعمل وتعمل لسنوات طوال، لا تهدأ أبدا
ولا ترتاح حتى لدقيقة،
شاغلًا نفسك بجمع المال
فمتع نفسك، فقد بات الوقت متأخرا أكثر مما تظن
متع نفسك، وأنت لا تزال فى شبابك
فالسنون تمر وكأنها لحظة
متع نفسك، متع نفسك،
فقد بات الوقت متأخرا أكثر مما تظن!".

__ *أغنية من فترة الكساد العظيم*

فى بعض الأحيان، يتطلب تقديرك للحياة الشعور بالخوف على صحتك، أو على الأقل هذا ما حدث معى.

ففى الثالثة والستين من عمرى، زرت طبيبا من أجل إجراء فحص طبى "روتينى"، وكان ذلك خطأ؛ فبعد الستين لا يجب القيام بهذا الأمر، فهم مضطرون لأن يجدوا مشكلة ما لديك!

لقد كنت أتجنب الأطباء، مثل معظم الناس، فالأطباء مهمتهم معالجة الأشخاص المرضى، وإن لم أكن مريضا. كل ما كنت أعانى منه هو ذلك الصفير فى أذنى، وهو أمر مزعج وفى بعض الأحيان كان يصعب

علىَّ النوم، لذا قررت أن أستشير شخصًا ما، وقد نصحنى الكثيرون باستشارة طبيب.

فحصنى الطبيب ثم نصحنى بإجراء أشعة رنين مغناطيسى "روتينية". وحينها لم أكن أدرك ما أدركه اليوم: ليس هناك ما يسمى بـ أشعة رنين مغناطيسى "روتينية" حين يتعلق الأمر بالمخ.

وحين عدت إلى مكتبه، استدار الطبيب حاملا صورة أشعة الرنين المغناطيسى الخاصة بى تجاهى وكان يبتسم، وأخبرنى وعلى وجهه تبدو إثارة مكبوحة بشق الأنفس بأننى أعانى من "نوع نادر من ورم المخ"، ولكن كونه جراح مخ وأعصاب، فقد كتب مقالات عن هذا النوع من ورم المخ الذى أعانى منه، وكان قادرا على إجراء جراحة لى فى اليوم التالى!

وبالفعل، نظر فى أرجاء مكتبه ليرى إذا ما كانت هناك إحدى المقالات التى كتبها عن حالتى.

فى الوقت ذاته وقفت متجمدا من الخوف إزاء الصدمة المميتة التى تلقيتها.

لكنه استدار إلىّ وأخبرنى أنه على الرغم من أن هذه العملية الجراحية خطيرة، إلا أن "معظم الأشخاص يبقون على قيد الحياة". إلا أنه قد أخبرنى كم أن حالتى كانت "نادرة".

كما أخبرنى أيضا بأننى قد أفقد حاسة السمع فى أذنى اليسرى حتى لو نجحت عملية إزالة الورم، وكان تواقا جدا لإجراء العملية الجراحية على الفور، وقد أخبرته أننى ليس لدىَّ تأمين صحى، فمثل أى شخص يتم فصله من العمل، تركت التأمين الخاص بى ينتهى، لذا قررنا الانتظار.

واليوم، أقوم بما أطلق عليه "الانتظار اليقظ" وما يطلق عليه الطبيب الخاص بى "التسويف". ففى زيارتى الأخيرة له، أخبرنى قائلا: "من الأسهل

أن تزيل الورم وهو لا يزال صغيرا"، كما أخبرنى أنه سيكون هناك بضع تعقيدات - كان لا يزال راغبا فى فتح جمجمتى ووضعى تحت مبضعه.

فى اليوم التالى، حضر "مايكل جيه. فوكس" إلى مقهى ستاربكس الذى أعمل به، وقد جاء ليتحدث معى للإعداد لحلقة تليفزيونية خاصة تدور حول التفاؤل والسعادة. أخبرنى "مايكل" بأنه كان يعانى من نفس هذه التجربة المثبطة حين اكتشف إصابته بداء باركنسون.

قال "مايكل": "لقد كان طبيبى مثارا جدا عندما قال لى: "إنك تعانى من داء باركنسون، ولكن الأنباء الجيدة هى أننا اكتشفناه فى مرحلة مبكرة وأنا متأكد أننا سنجد علاجًا قبل أن يزداد الأمر".

هز "مايكل" رأسه.

وقال: "إن الأطباء يقعون فى غرام أمراضهم!".

فقلت: "إنهم غارقون فى غرامها: فيبدو أنهم يحبون الداء أكثر مما يحبون المريض!".

وعلى الرغم من أن رد فعلى ليس عقلانيا تماما، ولكن حماس الطبيب للعملية الجراحية جعلنى أقل تحمسا للمستقبل.

وأود أن أضيف أن الورم الذى أعانى منه ليس سرطانيا، ولو أنه كان كذلك، فأنا متأكد من أننى كنت سأتقدم وأدع طبيبى المتحمس يفتح رأسى.

أو ربما أنا شبه متأكد من ذلك. إننى أحب حياتى الحالية جدا، وأكره مجرد تصور تركى لها، ولا أرغب بالتأكيد على أن تكون حياتى البسيطة مقيدة بأجهزة فى أحد المستشفيات الضخمة فى المدينة.

إذا كنت سأرحل - أو ربما أنه ينبغى على فى هذه المرحلة من العمر أن أقبل بامتنان بأن نهايتى قد دنت وأقول: *"حين أرحل"* - فإننى أفضل أن أموت وسط الأشجار أو تحت السماء الزرقاء.

لقد وضعت خططا - أخيرا - وصفت وصية. كما أخبرت أبنائى بأننى أريد أن أدفن فى الغابات فى الريف بجانب ممر اعتدت أن أنظفه كل يوم فى الصيف. إننى أرغب فى أن أدفن بجوار أحد أفضل كلاب أمى. إننى أريد حقا أن أدفن بجانب الكلاب.

إننى أحب فكرة أن الكلاب مخلوقات وفية؛ فأنا قد عرفت الكثير من الكلاب التى يبدو لى أنها تعيش حياة راقية، فالكلاب مخلوقات ودودة ومستعدة أن تنسجم مع جميع حالاتك المزاجية: فهى تكون تواقة للعب، أو أن تجلس فى هدوء بجانب المدفأة لو أنك فى حاجة إلى بعض الوقت للتأمل. إن الكلاب ترفع أعينها إلينا مدفوعة بحس واضح بالارتباط. إننى أحب فكرة العودة إلى حيث الكلب الذى أحبته أمى وإلى الأرض التى أحببتها.

منذ عدة أشهر اتصلت بى مؤسسة تسمى مؤسسة أورام المخ وطلبوا منى قص شريط لإحدى حفلاتهم. لقد عملوا جاهدين لجمع التبرعات من الواهبين العاديين ومدينة نيويورك للحصول على وحدة متنقلة لفحص أورام المخ، ولقد كان قص الشريط بغرض الدعاية لهذه الوحدة.

إن أورام المخ لا تكتشف إلا فى النهاية حين يسقط الشخص أو يعانى من مشاكل شديدة أخرى. إن أورام المخ سرعان ما تصبح مميتة، لذا فلا يزال من الأفضل أن تُكتشف فى أسرع وقت ممكن.

وقد كان لديهم مريض آخر بورم فى المخ جاهز لقص الشريط إلا أنه توفى بشكل غير متوقع، وكنت أنا آخر بديل. وعلى الرغم من خوفى من الأمر برمته ومن الدعوة المخيفة إلى حد ما والتى لم توجه لى إلا بسبب أن الشخص الذى كان مريضا بورم المخ قبلى مات قبل الموعد المتكهن به، قررت أنه ينبغى علىَّ الذهاب.

وكان من الصعب الاعتراف لنفسى بأننى مصاب بورم فى المخ، ناهيك عن أن أكون ممثلا لهذه الحالة المخيفة.

فى مراسم قص الشريط، التقيت بطبيب آخر، وسألته فى وقت لاحق عن شىء كنت قد سمعت به مؤخرا، ألا وهو سكين الجاما، والذى كان علاجًا للتخلص من الورم بالأشعة ونظرا لتوقى لتجنب الجراحة، وجدت أن مثل هذه العملية تنطوى على الأمل فى أننى قد لا أضطر إلى الخضوع إلى السكين الحقيقى قديم الطراز.

قال لى الطبيب: "للأسف، رغم أنه كان باديا أن عملية سكين الجاما فعالة جدا فى البداية، إلا أننا قد وجدنا نتائج غير مطمئنة عند متابعتنا للمرضى فى السنوات القليلة الماضية".

فقلت له: "ماذا تقصد؟"، حيث إننى لم أفهم كلامه ولكننى فهمت من المعنى العام للكلام أن الأشعة قد لا تكون مناسبة لى.

فقال الطبيب: "حسنا. دعنا نتحدث بوضوح: لقد كانت هناك حالات بدا فيها أن الورم قد تمت معالجته بنجاح بسكين الجاما، ولكن بعد بضع سنوات، بدأ المريض فى فقدان توازنه".

فتساءلت قائلا: "يفقد توازنه؟"، فلقد كان هذا الأمر خطيرا، ففى مقهى ستاربكس، كنت أقوم بموازنة القهوة الساخنة، لذا فإن ذلك الأمر لم يكن ليصلح فى وظيفتى!

فاستمر الطبيب قائلا: "نعم، فالمخ هو المسئول عن التوازن، وقد اتضح أن الأشعة قد تفسد شيئا ما فى الداخل؛ فالعقل أداة حساسة ومعقدة جدا. إننا لا نعرف السبب تماما فى هذه المرحلة، ولكن يبدو أن هناك آثارًا شديدة تظهر فى وقت متأخر؛ ففقدان التوازن يمكن أن يكون خطيرا جدا فى أية مرحلة عمرية".

وهنا رمقنى الطبيب بنظرة وكأنه يريد أن يقول: "خاصة فى سنك المتقدم!".

وهنا تصورت نفسى فجأة أسقط على درجات السلم المنحدرة فى شقتى الصغيرة، ولم يكن ذلك بالأمر الجيد!

لذا، وفى حين أننى لم أكن متحمسا لإصابتى بورم فى المخ، كنت أشعر بشعور جيد جدا فيما يتعلق بقرارى بتجنب الخضوع لجراحة، فمن الأفضل لى أن أعيش وفى أذنى صفير على أن أحيا بلا حاسة سمع على الإطلاق، ومن الأفضل أن أخاطر بزيادة حجم الورم وأتجنب الخضوع لجراحة كبيرة غير مأمونة العواقب.

وسوف أقوم بإجراء أشعة رنين مغناطيسى أخرى، وإن وجدت أن الورم لم يزد حجمه كثيرا، فسوف أهنئ نفسى... وقد أستطيع الانتظار لوقت أطول قبل أن تُفتح جمجمتى! لقد تعلمت درسا يفيد بأن كل شىء فى هذه الحياة نسبى، ولم أكن لأتخيل أن إجراء أشعة رنين مغناطيسى تظهر إصابتى بورم بطء النوم سيكون بمثابة نصر لى!

وسوف أتعجب بفرح قائلا: "مرحى!".

أليست رائعة هى قدرة البشر على التكيف على الأمور بسرعة؟ وأليس أيضا من المدهش مدى السرعة التى يتكيف معها الذين يكتسبون فيها رؤية جديدة أفضل حتى من أسوأ نوع من الأخبار، وعلى الرغم من أننى لم أرغب ولو بعد مليون سنة فى أن أصاب بورم فى المخ، إلا أنه على أن أعترف أن إصابتى به جعلتنى أكثر امتنانا لكل لحظة ما زلت أستطيع فيها أن أسير وأتنفس.

إن الحياة نفسها لم تكن يوما أغلى عندى من هذا الحين. وقد وجدت أيضا السكينة فى شعورى بالتواضع. إننا لا نستطيع اختيار وقت ومكان وكيفية ميلادنا، كما أننا لا نستطيع اختيار كيفية موتنا.

لقد أخبرت "مايكل جيه. فوكس"، أثناء تناولنا معا قدحا من القهوة فى مقهى ستاربكس بمقولة "وينتون مارساليس" التى استعنت بها لافتتاح الفصل الأول من كتابى *How Starbucks Saved My Life*: "إن المتواضعين يتطورون".

فقال "مايكل" مصدقا على حديثى: "هذا صحيح، فالتواضع أمر مهم".

وقد اتفقنا معا على أن مثل هذا الشعور ومشاركة مثل هذه الرؤى كانا بمثابة بعض الفوائد المدهشة لمواجهة أخلاقياتنا الشخصية. وحقا، لقد أصبحت الآن أكثر تواضعا أمام قدرى – أيا ما كان – ومتقبلا بقدر استطاعتى لمعنى الموت.

ولكنى لا أعنى بذلك أننى قد شفيت نهائيا من خوفى من الموت؛ فأنا أعتقد أن هناك شيئًا فى أعماق كل منا لا يهدأ أبدا، ويبدو أننا مبرمجون على فهم أقل إشارة على أنها دليل على تمكننا من الاحتيال على الاحتمالات والبقاء لوقت أطول مما يتخيل أى شخص.

فى الصباح التالى، استيقظت وفى ذهنى فكرة جنونية لأغنية تتحدث عن ورم المخ؛ فدائما ما كنت أجد أن الغناء يغمرنى بشعور أفضل.

وها هى الأغنية التى تغنيت بها فى ذلك اليوم:

حزنت لإصابتى بورم فى المخ

فى أمريكا، نحب أن نفوز – وألا ننهزم

نحب أن نرشح... نحب أن نختار

لقد حزنت لإصابتى بورم فى المخ

والآن، أصبحت أدرك الحقيقة:

فما للنجاة من طريقة

لذا سوف أستمتع بكل يوم

وأجد سبيلا للبهجة

وسأغنى أغنية أو اثنتين

فقد حزنت لإصابتى بورم فى المخ

وما للنجاة من طريقة

لذا، فسوف أغنى - بفرح جنونى وتواضع غير عادى

فقد حزنت لإصابتى بورم فى المخ!

وقد شعرت بشعور أفضل بعد غناء هذه الأغنية الحمقاء.

وقد سمعت من العديد من الأشخاص أثناء المناقشات التى كانت تدور حول كتابى أن اكتشافهم لإصاباتهم بأمراض أسوأ من ذلك قد حررتهم بشكل غريب فنسوا المخاوف الحمقاء وغفروا الأخطاء القديمة وقدروا المعنى الحقيقى لعيش حياة أطول.

وقد اكتشفت هذه الحقيقة أيضا. فالآن، إذا ما أمطرت السماء، أرفع وجهى إلى أعلى، وأكون تواقا إلى كل قطرة مطر، وأسبح فى بحيرة تقع وسط الجبال فى آخر الخريف، وأرتعد عند خروجى من الماء، ولكن هذه القشعريرة تجعلنى أشعر بأننى أكثر حيوية. إن السعادة ليست فى غياب شعورنا بأننا بشر فانون ولكن فى تقبل هذه الحقيقة.

إن السعادة ليست فى غياب الشعور بالألم ولكنها فى تقبله باعتباره جزءًا من الحياة نتعرض له فى كل مرحلة عمرية وفى كل الظروف. ونظرا لأن لدىَّ خمسة أطفال، فأنا أعرف جيدا أن آلام المخاض شىء بشع. وبالنسبة لى على الأقل بصفتى ذكرًا جبانًا، فإننى لا أزال مندهشا من قدرة المرأة على المرور بكل هذه الآلام المبرحة الصعبة، ومع ذلك، وبعد ثوان، تحتضن وليدها بمثل هذه الفرحة غير المشروطة.

ولكن الدماء والصراخ يعدان جزءان من عملية الولادة بقدر ما تكون الصرخة هى صيحة الحياة التى يحيى بها المولود العالم خارج رحم أمه.

ليست هناك أشياء كثيرة جميلة فى هذا العالم مثل رائحة المولود الجديد التى تشمها حين تحمل وليدك وتضم هذا المخلوق الغالى إلى صدرك.

إن الطفل يولد بمشقة، ثم يتعرض بعد ذلك لآلام فترة التسنين وكل ما يطلق عليه على وجه التحديد "آلام النمو". إن كل طفل رضيع أو فى مرحلة النمو يعود إلى المنزل بعد يوم دراسى ملىء بالأنشطة بكدمات ورضوض. ومع ذلك، فإنك لا تسمع طفلا يشتكى أبدا؛ حيث إنهم يشعرون بإثارة كبيرة للاحتمالات الكثيرة التى تقدمها كل لحظة جديدة.

من ناحية أخرى، لاحظت أن الكثير من أقرانى يبدءون فى حشو محادثاتهم بآخر أخبارهم الصحية. إننى لا أريد أن أسمع هذه الأشياء! إن مثل هذه الشكاوى تعد إهانة لنعمة الحياة نفسها. دعونا لا نركز على "آلام النمو" البدنية التى نشعر بها بينما تتقدم بنا السن. إن آلام النمو تمتد ما امتدت بنا الحياة، كما أنها علامة على الحياة نفسها، لكن طبيعتها فقط هى التى تتغير. ومع ذلك تظل مصاحبة لنا مدى الحياة.

إذا شعرت بألم بسيط فى مفاصلك حين تحاول جاهدا النهوض من الفراش - كما أفعل فى كثير من الأحيان - فإن هذا يعنى أنك لا تزال حيا!

وهناك أيضا نعمة مدهشة قوية التأثير، ألا وهى معرفة أن الحياة قصيرة... وكذلك هبة العيش، وهذه الحقيقة القوية أمامك فى كل الأوقات، وعقلك وجسدك متناغمان أكثر مع مواسم حياتك.

لقد تعلمت درسا قيما بأن الحياة قصيرة جدا وأنها قد وهبت لنا لنستمتع بها مع اثنين من أصدقائى رحلا عن عالمنا، وبشكل ما أكد موتهما على التوجه الإيجابى الذى كان يتبناه كل منهما تجاه كل لحظة من الحياة، وأنا أضع نموذجهما نصب عينىَّ يوميا.

لقد أعطانى كل من "آرثر لينوكس" و"جيم دونوهيو" هدية عظيمة تتمثل فى تقدير كل ثانية وهبت لنا والاستمتاع بها.

وحين أفكر فى "آرثر لينوكس"، أتذكر بوضوح ذلك الصباح الذى قضيناه معا فى "فانكوفر" وقد جلسنا فى المطعم الذى يقع فى أعلى طابق فى الفندق الذى كنا نقيم فيه لتناول الإفطار. لقد كان هناك بالفعل كثير من الأشخاص منكبين على تناول وجبتهم الأولى لذلك اليوم، وكان هناك بوفيه وطابور طويل أمامه ينتظر الحصول على البيض واللحم.

قال "آرثر": "ربما يمكننا تناول الطعام فى الخارج؛ فهذا اليوم يبدو جميلا".

لقد كان "آرثر" على حق فيما قال؛ فالشمس كانت ساطعة – وهو حدث نادر بالنسبة لمدينة "فانكوفر" - فشققنا طريقنا لنستمتع بالشمس.

كان "آرثر" يتمتع بموهبة الاستمتاع بالوقت فقد كان عميلًا لنا فى شركة (جيه. والتر. ثومبسون) وكان مسئولا عن حساب شركة لابات للمشروبات، وقد اقترح علينا أن نكوِّن حملة لماركة تجارية باسم "فيفتى" - احتفالا بمرور خمسين عاما على بناء الشركة – وأن ترافقها أغنية باسم "استمتع بوقتك".

وقد أصبح مشروب لاباتس فيفتى هو المشروب الأكثر مبيعا فى كندا. ولذلك كنا فى حالة مزاجية احتفالية فى ذلك الصباح، فتوجهنا إلى الأبواب الزجاجية المطلة على الشرفة، وكانت هناك بعض المناضد ولكن ما من أحد يجلس عليها، فسحبت الأبواب. ففتحت، وخرجنا أنا و"آرثر" ورفعنا وجهينا إلى دفء الشمس.

فقال "آرثر": "إن الجو يبدو وكأننا فى الصيف. إنك محظوظ جدا يا "مايكل".

فقلت موافقا: "نعم". كنت قد كتبت بعض النصوص الجديدة للإعلانات التليفزيونية، وقد قررنا إطلاقها فى "فانكوفر". وكنا نرغب فى تصوير الأشخاص وسط أماكن جميلة، و "فانكوفر" - بمياه المحيط الهادئ المتلألئة وأشجار الصنوبر الجميلة - كانت من أكثر بقاع الأرض جمالا، ولكنها كانت دائما مغمورة بمياه الأمطار، وقد كانت الشمس مشرقة إلى حد ما فى وقت متأخر من اليوم السابق، ولكنه كان الوقت المناسب لأخذ اللقطات التى نريدها، وفى ذلك اليوم كان الجو أفضل.

ربما كان "آرثر" يعنى أننى محظوظ لأن الشمس أشرقت لليوم الثانى على التوالى فى "فانكوفر" المطيرة بطبيعتها، وعلى أية حال، فقد كنت أشعر بأننى سعيد الحظ فى تلك اللحظة؛ فأية لحظة مع "آرثر" كانت ممتعة، وحيث إننى قضيت سنوات عديدة مع عملاء غاضبين تقريبا من كل شىء، فإن مزاج "آرثر" المشرق كان بمثابة راحة نفسية لى.

فقلت مرة أخرى: "نعم، إننى شخص محظوظ جدا لأننى أقضى هذا الصباح معك".

فقال "آرثر": "ولكن ينبغى علينا أن نحتفل".

وهنالك ظهرت نادلة.

قالت النادلة وهى غير مندهشة من أننا شققنا طريقنا إلى خارج الفناء: "كيف حالكما أيها السيدان؟".

فأجاب "آرثر" وهو يبتسم لها: "لا يمكن أن نكون أفضل حالا من ذلك".

كان "آرثر" رجلا وسيما له شعر أبيض وعينان زرقاوان. وكان طويلا إلى حد ما ويسير بخطوات واثقة. كما لو أنه يقود كتيبة عسكرية. وقد أخبرنى "آرثر" ذات مرة أنه فى الحرب العالمية الثانية، حين كان متمركزا فى لندن، قام بتفصيل معطف جميل.

قال "آرثر": "على الرغم من أننى كنت ملازماً بسيطاً، إلا أننى كنت أبدو كأننى جنرال، وكان كل شخص يحييني".

كما كان "آرثر" يتمتع بميزة إنجاز الأمور الجيدة. لذا فلم يكن من قبيل الصدفة أنه جعل من ماركة مشروب مجهولة هى المشروب المفضل على مستوى كندا، وكان من العادى أنه قام بذلك بأغنية تدعو الجميع إلى الاستمتاع بوقتهم.

وهنا جاءتنى فكرة مفاجئة.

فقلت: "ما رأيك فى تناول المثلجات؟".

لقد كنت أشعر كأننى فى الصيف، تلك هى المرة الأولى منذ ذهابى إلى كندا التى أشعر فيها بدفء الشمس.

فقال "آرثر" موافقا: "إنها لفكرة رائعة!".

إن الفارق العمرى بينى وبين "آرثر" سنوات عديدة؛ فقد كان هو فى الخمسينات وكنت أنا فى بداية الثلاثينات، ولكن أرواحنا كانت متناغمة، فقد شعر - على الرغم من تنكرى فى هيئة رجل الدعاية والإعلان المجتهد - بأننى روح متحررة ترغب فى الطيران، وقد شعرت أنا أن "آرثر" مزيج حقيقى بين العقلانية والحب الحقيقى لكل لحظة من الحياة، والأهم من ذلك كله هو أننا كنا نشترك فى حس الفكاهة، وكنا نعتقد أنه أمر مرح أن نتظاهر بالحماقة بطريقة لطيفة ومتغيرة، ولكن ليس بطريقة مفرطة، ولكننا كنا نقوم بأشياء كان الآخرون يعتقدون أنها... غريبة الأطوار.

وقد استمتع كلانا بفكرة أن الحياة لا يمكن أن تكون ممتعة إذا ما خلطت الأمور معا، وإذا لم تكن شديد الجدية ولم تأخذ كل ما تقوم به على نحو جدى.

لقد كنت أشعر بالراحة مع "آرثر" لأننى كنت أستطيع أن أتصرف على طبيعتى معه كشخص لا يعرف جيدا ما الذى يقوم به. لقد كنت أتصرف مع العملاء الآخرين كرجل أعمال جاد، ولكن "آرثر" رأى ما وراء هذا القناع منذ اللحظة الأولى.

هل تعرف كيف أنك فى بعض الأحيان تلتقى مع شخص ولا يكون كل منكما فى حاجة إلى الحديث عن نفسه إلى الآخر، فقد التحمتما معا فى روح واحدة منذ اللحظة الأولى من لقائكما. لقد كان هذا الأمر ينطبق علىَّ أنا و"آرثر". فرغم فارق السن بيننا، كان يبدو لى كأب معطاء أو أخ ودود أو ربما رفيق لعب مفضل فحسب.

وفى اليوم السابق، كنت قد لاحظت قبعة مصنوعة من اللباد فى أحد المحال، فقمت بلفت انتباه "آرثر" إليها، كانت القبعة كبيرة ذات لون أزرق زاه مميز.

فقال "آرثر": "يجب أن تشترى هذه القبعة".

فدخلت إلى المحل واشتريت القبعة الزرقاء لنفسى وواحدة خضراء لـ"آرثر" وأخرى برتقالية لـ"أدريان"، الذى كان الرجل المسئول، أو "التنفيذى" فى شركة لابات.

قال "آرثر" مقترحا: "ربما ينبغى علينا أن نشترى المزيد من القبعات لباقى الطاقم".

فاشتريت عشر قبعات أخرى بألوان الطيف (إن إحدى الفوائد العظيمة لمرافقتى لـ"آرثر" كانت قدرتى على شراء الأشياء على حساب المصروفات، فلقد كان حساب شركة لابات أحد أكثر الحسابات المربحة فى الوكالة، ولم يكن أى شىء يدرج تحت اسم "خدمة العملاء" عرضة للمساءلة على الإطلاق، وفى ذلك اليوم، كان الطاقم بأكمله يرتدى قبعات زاهية الألوان بينما ننتقل فى أرجاء "فانكوفر" بكاميراتنا وشاحناتنا.

لقد ذكر الكاتب المسرحى "وليام شريدان" ذات مرة قائلا: "إن الأيرلنديين يولدون ولديهم موهبة إدراك أن هذا العالم مجنون".

وقد كان "آرثر" - باعتباره إسكتلنديًّا فخورًا بذلك - يتوافق مع إحساسى كشخص إسكتلندى آخر بأن العالم مجنون. إنه لأمر ممتع أن ألعب دور صانع القبعات المجنون!

على الرغم من أن حملة شركة لابات كانت تدور حول الاستمتاع بالمشروب فى رفقة الأصدقاء، إلا أننى وجدت بعد انتهائى من الدراسة أننى لا أستطيع الاستمتاع والعمل فى الوقت ذاته؛ فأنا أذكر ذلك اليوم حين لم أكن قادرا على العمل بعد سهرى مع الأصدقاء لوقت متأخر من الليل، وهنالك أدركت أننى لا أستطيع أن أكون جادا فى عملى وأن أستمتع بحياتى فى الوقت ذاته. وللأسف، كان علىَّ الاختيار، فاخترت أن يكون العمل هو إضافتى الثانية. وهكذا، تخليت عن "مظاهر الاستمتاع بالحياة" كما يقول الأيرلنديون، وأصبحت المثلجات هى أفضل مظاهر التدليل لنفسى؛ حيث أصبحت المثلجات بديلا عن كل مظاهر المتعة فى الحياة بالنسبة لى.

وبعد خمس سنوات، استطعت أن أشق طريقى إلى حساب لابات. ورغم أننى لم أعد أمارس أى مظهر من مظاهر الاستمتاع، إلا أننى ظللت محتفظا بمشاعرى لأيام المرح المنقضية. لقد لفتُّ انتباه "آرثر" فى الوكالة حين كتبت مذكرة بدأت بهذه الفقرة:

"لقد قضيت على الأقل حوالى عشر سنوات من شبابى أبحث عن مشروب المانجو فى كل بلاد العالم. لقد شربت المانجو فى الصباح فى احتفال أكتوبر فيست فى ميونيخ، وجلست لساعات فى مقهى باريس أشرب أكواب المانجو، كوبًا بعد الآخر، بينما كان العالم كله يمر أمامى. وقد شربت المانجو مع نساء جميلات مرحات ورجال قبيحين مرحين،

وقد حللت كل مشاكل العالم مرات ومرات. وشربت المانجو فى مصارعات الثيران ومباريات الملاكمة، وفى أوقات متأخرة من الليل فى مئات الكافيتريات فى أرجاء شمال أمريكا، وانتهيت فى النهاية إلى خلاصة واحدة: "إن مذاق شراب المانجو يكون أحلى وهو بارد".

لقد أحب "آرثر" هذا السطر الأخير، حيث كان يكره البحث المنهجى. لقد كان يحب الحياة جدا لدرجة أنه يبغض تصنيفها وتحليلها. لقد كانت موهبته فى الانطلاق إلى العمل على نغمات أغنية .. تحقق نجاحا كبيرا بلا مجموعات دراسة أو قوالب بحوث.

فى ذلك الصباح، تعجب "آرثر" قائلا: "مثلجات. إنه لإفطار رائع!".

أحضرت النادلة سلطانية فضية كبيرة ممتلئة بكرات كثيرة من الشيكولاتة والفانيليا والفراولة والتوت المثلج. وبينما كانت الشمس تشتد، كنت أنا و"آرثر" نتذوق كل نكهة، ومن حين إلى آخر كان "آرثر" يطلب أغنية.

فى بداية الأمر، غنيت له *The Scottish Soldier* التى كانت إحدى أغنياته المفضلة. لكى تغنى لهذا المحارب المرح أغنية عن الموت وسكراته. فعليك أن تسير بإيقاع الجندى الواثق وأن تخطو بقدمك على الطريقة البريطانية. إذا كنت قد شاهدت منظر تغيير الحرس فى قصر باكنجهام، فسوف تفهم الفكرة. ولحسن الحظ، كان الفناء خاليا وكنت قادرا على الغناء بصوت مرتفع والسير دون حرج:

كان هناك جندى

جندى إسكتلندى

كان يهيم بعيدا جدًا

ثم تجند بعيدا

لم يكن هناك شخص فى شجاعته

وكان عريض المنكبين

وقد حارب فى معارك كثيرة

حارب – وفاز

وقد رأى المجد

لقد حكى قصته

ولكنه الآن يحتضر

وقلبه الآن ينتحب

لأن جسده سيوارى

فى أرض قفر

(الجوقة بأقصى قوة)

لأن تلك التلال الخضراء

ليست تلال إسكتلندا

أو تلال أيرلندا

إنها ليست تلال أرضى

وعلى جمال هذه التلال الخضراء الغريبة

فإنها ليست تلال موطنى

صفق "آرثر".

عدت إلى الطاولة وأنا أظن أن قيامى بتسمية حملة لابات التى أطلقتها باسم "العودة إلى المنزل إلى فيفتى" بمثابة صدفة سعيدة. ربما لأن هناك صدى فى أعماق كل شخص لفكرة العودة إلى المنزل من أجل السعادة الحقيقية – فى الحياة أو الموت.

فسألنى "آرثر" مبتسما: "هل لديك أية أغان أخرى شجاعة عن الموت؟".

فرددت قائلا: "نعـم". ثم غنيت أغنية أيرلندية قديمة اشتهرت على يد الإخوة "كلانسى".

تحياتى للأرملة

هذه الأنثى العظيمة الملطخة بالدماء

أليس هم أبناءها الكبار

الذين استشهدوا

لا تتنفس

واذهب للبكاء

فمهما طال بك العمر

فمصيرك إلى الفناء!

وبعـد سنوات، علمت من زوجة "آرثـر"، واسمها "مارجورى"، أنه قد مـات. وفى هذا الوقـت تم فصلى من وكالة (جيه والتر ثومبسون) وكنت أمر بوقت عصيب، ولكننى كنت أحاول إلقاء تحيتى الأخيرة على "آرثر". لقـد كان رجلا جديرا بالاحترام. وفى ذلك الحين، لم يكن "آرثر" عميلا مهمًّـا ولم أكن أنـا مدير تصميمـات، ولكننى طرت إلى كنـدا للاحتفال بحياة "آرثر" كصديق مقر بالجميل وللاحتفال بالدروس الحياتية القيمة التـى تعلمتها منه، وقد أدركت حينها أنه كان نموذجا يحتذى به فى المزج بـين الاستمتاع بالحياة والعمل. فعلى النقيض منى، لم يكن عليه أن يكون جـادا جدا ومركزا إلى درجة يفقد معها المـرح وحس الفكاهة فيما يتعلق بالحياة.

وقـد دعتنى "مارجورى" لتأبين "آرثر"، وقد تحدثت عن قيمة "آرثر" بالنسبـة لى وبالنسبـة لـكل شخص التقـى به، وتحدثت عـن موهبته فى الاستمتـاع بالحياة مع التأكد من أنه يلبـى أولوياته على النحو الصحيح،

فلقد ربّى أبناءً رائعين، كما كان هو و"مارجورى" يقضيان أوقاتا سعيدة معا، على عكس الكثير من الأزواج. لقد حقق "آرثر" أشياء عظيمة لشركة لابات، ولكنه كان دوما يحتفظ بمرحه وموهبته الشخصيين النادرين لمشاركة حبه للحياة.

وقد تحدثت عن أغنية شركة لابات التى تتحدث عن الاستمتاع بالوقت والتى كان "آرثر" يحبها جدا، إن الوقت قد أصبح متأخرا جدا. وكيف أننى الآن وبعد سنوات، أدركت الحقيقة الرائعة التى تنطوى عليها هذه الأغنية. وقد أخبرت "مارجورى" وأبناء "آرثر" وكل الحضور أننى من بين كل الأشخاص الذين التقيت بهم فى حياتى، فإن القليل جدا هم من يحيون بمثل هذه القدرة الحيوية على اعتصار كل لحظة بقدر المستطاع.

لقد كان "آرثر" بمثابة هدية لى فى وقت من حياتى كنت أعمل فيه بمنتهى الجد وآخذ الحياة بمنتهى الجدية، وقد كانت الأوقات التى قضيتها مع "آرثر" أشبه بعالم آخر - حيث يمكن مشاركة اللعب والضحك، ومع ذلك يمكن تحقيق النجاح أيضا.

لقد كنت محظوظا فى ذلك اليوم، ولكننى لم أكن محظوظا نظرا لأننى جئت لكى أكرمه بعد أن رحل عن الحياة. لقد قضيت عقودا فى عالم حزين لا أركز فيه إلا على الأشياء المادية دون تكوين رؤية حقيقية لأى شىء.

وقد كنت صغيرا جدا حين تعرفت على "آرثر" حتى أعمل بنصيحته لى بالاستمتاع بوقتى. لقد أخذت حياتى كلها كأمر مسلم به، ودائما ما كنت أعتقد أننى أستطيع قضاء بعض الوقت الممتع "لاحقا". لقد قضيت الكثير من الوقت فى الشركة، وغالبا ما كنت أغادر المنزل قبل استيقاظ أبنائى وأعود إليه بعد أن يخلدوا إلى النوم، فخلال ست وعشرين سنة من

العمـل فى وكالة جيه. والتر ثومبسـون للدعاية والإعلان لم آخذ إلا ثلاث أيام كإجازة مرضية.

أمـا "جيم دونوهيو" فهو صديـق آخر علمنى كيف أقدر كل لحظة من لحظـات الحياة، بطريقـة مختلفة جدا، وقد رحل "جيـم" هو الآخر عن الحياة قبل أن أتمكن من الإعراب عن شكرى له على الدرس الذى تعلمته. لقد فقدت صديقى فجأة ولم يكن لدىَّ الوقت لأودعه.

وقد اتصلت بى زوجته "باربرا" لتخبرنى قائلة: "لقد مات جيم".

فصرخت قائلا: "لا، ماذا حدث؟".

فقالت: "لقد كنا فى أديرونداك. وهبت علينا عاصفة".

فقلت لها: "سآتى إليك".

وفـى وقت مبكر مـن صبيحة اليوم التـالى، وصلـت إلى منزلهما، وكانت "باربـرا" وحدها فى المطبخ، وقد رأيت حـذاء التزلج الخاص بـ"جيم" بجوار المنضدة.

قالت "باربرا": "لقد كان يرتديهما".

فمررت لألتقط حذاء "جيم"، وكان الحذاء لا يزال مبتلا وثقيلا.

قالـت "باربرا": "لقـد ذهبنا فى نزهة مع بعضـ الأصدقاء، وكنا قد انتهينا للتو. ما السبب برأيك؟ لقد كان "جيم" يحب الطعام، وقد أخبره الطبيب بأن يلتزم بالحمية".

منذ شهور قليلة، اكتشف "جيم" أنه يعانى من مشاكل فى القلب، وهو مـا أخبرنى به حينما جاء إلى نورفولك، وقد ذهبنا إلى البحيرة من أجل ممارسـة لعبة القتال المائى، وهو شىء كنت أحب ممارسته مع أصدقائى القدامـى، وقد منحنى حجمى الزائد - الذى يشبه حجم مصارع السومو والـذى اكتسبتـه على مـدار السنين - ميـزة على رجال كانـوا رياضيين حقيقيين حين كنا فى المدرسة.

فحـين كنا فى المدرسة الثانوية وفى الكلية، كان "جيم" عداءً عظيمًا، بالإضافـة إلى أنه كان قوى البنية دائما، وفى ذلك اليوم وقفت على حافة المرسى وقلت لـ"جيم": "هيا، أرنى أقوى ضرباتك".

تحـرك "جيم" فى اتجاهى، محاولا بيديـه وذراعيه الضخام دفعى إلى الـوراء لأسقط فى المـاء، فأمسكت به وأدرته ثـم دفعت به بسهولة إلى البحـيرة. فى البداية، ظننت أنه ربما تركنـى أفوز على الرغم من أن هـذه ليست طبيعة "جيم"؛ فروحه التنافسية عالية، وحين خرج من المـاء وعـاد إلى المرسى، قال لى: "لقد أخبرنى طبيبـى بألا أبذل جهدا شاقًّا".

فرددت عليه قائلا: "ربما أنه لم يكن علينا القيام بالأمر برمته".

فقـال لى: "لا، لا. كل مـا علـىَّ هـو ألا أفرط فى الجهـد البدنى، وقد أخبرنـى أن اتباع حمية غذائيـة معتدلة وممارسة التمرينـات الرياضية سيأتيان بنتائج جيدة، وقد فقدت بالفعل ١٥ رطلا".

لقـد كان "جيم" يبدو بخير – أفضل حتـى من أى وقت مضى. وحين أرجـع بذاكرتى إلى الـوراء الآن، أرى أن حالة "جيـم" تشبه مأساة "تيم روسـيرت"، الذى أخـبره طبيبه أن حالتـه تتقدم بشكل رائـع، ولكن من الداخل، كانت شرايين قلبه مسدودة.

وفـى ذلـك اليـوم، كان "جيـم" قـد أتـى بابنـه الصغـير "مايكل" ليصاحبنـا. لم أكـن متيقنا مما إذا كان "جيم" قـد سمى ابنه "مايكل" علـى اسمى أم لا، ولكننى متأكد من أنـه كان يحبنى؛ فقد ضحى بالكثير جدا من أجل صداقتنا.

لقـد كانت صداقتـى بـ"جيم" بمثابـة درس لى لأكـون مخلصا لأهم الأشيـاء فى حياتـى، *وألا أتورط فـى الشعور بالبغض الـذى تزكيه بعض الأيدولوجيات القديمة.*

لقد كان "دونوهيو" والد "جيم" شخصًا كارهًا لأى شخص من خلفية ثقافية مختلفة عنه، أو أى شىء يبدى له أقل اختلاف معه فى الرأى. لقد ولـد والد "جيم" فقـيرا ولكنه نال وظيفة ناجحة فـى شارع وول ستريت. وقـد عمـل مع رجال من جميع الأديان، ولكنه فـى أعماق نفسه كان يشعر بالغضـب تجـاه كل من يختلف عن أصوله التى ترجـع إلى أيرلندا. إنه لم يستطع - على الرغم من واقعه الثرى الجديد - أن ينسى الماضى الملىء بالجراح، وقد كانت الكراهية هى أقوى عواطفه على الإطلاق.

وقـد رفض "جيـم"، وهو الابن الأكـبر، أن ينجـرف إلى هذه المعركة الأيدولوجيـة القديمة - على الرغم من المشاجرات التى نشبت بينه وبين والـده بسبب ذلك. لقـد تشاجرا معا بسبب إقامة جيـم معى فى السكن الطلابى فى جامعة يل، وذلك لأننى أنحدر من خلفية دينية مختلفة.

لقد وصل"جيم" إلى الغرفة التى أقمنا فيها معًا والعرق يتصبب منه، وكان يحمل معه الكثير من الحقائب، إلا أننى لم أر والديه أبدا.

وقـد أخبرنـى "جيم" بعد سنـوات ونحن فـى طريقنـا بالسيارة إلى نيـو هافـن، أن والـده حين سمـع أن "جيم" قـرر مشاركتى فـى الغرفة، أوقـف السيـارة وأجبر "جيم" علـى النزول بكل أمتعتـه عند نزل ميريت باركواى والذى يقع على بعد عشرة أميال على الأقل من حرم جامعة يل.

لقـد كان والد "جيم" ينظـر إلى باعتبارى جزءًا مـن العالم المختلف عنه والذى يبغضه.

وحـين توفى "جيم"، رفض والده حضـور الجنازة لأن "باربرا" قامت بدفنه فى غير المقابر المخصصة للمنتسبين لطائفتهم الدينية.

وحتى "باربرا" نفسها كانت من طائفة دينية مختلفة، وقد جعلنـى "جيم" مرافقه أثنـاء زواجه، وأذكر بروفة حفل عشاء الزواج وكل التوتر الذى كان ينتابـه. كنت أنا سأغنى أغنية أيرلندية ثم كان أخو "باربرا" سيغنى أغنية

إنجليزيـة. وقد كان الأفدح من كـون "باربرا" من طائفة دينية مختلفة، هو أن أبيها كان إنجليزيا. وقد كان ذلك كابوسا بالنسبة لوالد "جيم".

ولكننـى أنا أيضا كنـت العدو لأننـى ووالدى ووالدتى كنـا من طائفة دينية مختلفة.

لقـد صُدِمت حين علمـت أن والد "جيم" لا يريـد أن يحضر جنازته، لأنـه سيُدفـن فى غير المقابر المخصصة لهم؛ ففـى عائلتنا لم نكرِه أحدًا أبدا على شىء كهذا.

فقد علمنى كل من أبى وجدى بأنه لا يجب علينا أن ندع بغضاء الماضى ومظالمه تعيق قدرتنا على عيش حياة سعيدة فى المستقبل.

لقـد نشأ جدى "مايكل جيل" الأيرلندى الأمريكى، والذى سميت على اسمـه، فقيرا ونشأ فى وقت ومـكان كان الأيرلنديون فيهمـا أقلية وكانوا يعانون من التمييز ضدهم. وهكذا فقد كان لديه كل أسباب الكراهية تجاه هؤلاء الذين ظلموه - لقد كان لديه تاريخ غنى بالمظالم يمكن أن يتذكره.

إلا أن جـدى "جيـل" كان دائمـا ما يبـدو أن لديه ميـلا إيجابيا نحو العـالم، وهذا لا يعنـى أنه لا يتذكـر أى شىء عن تاريخـه البائس، *ولكنه كان يرغب فى أن يعى أحفاده أن الحالة الحالية من الرخاء الذى بناه لنا كانت نعمة نادرة.*

وفـى بعض الأحيان، فى غداء أيام عطـلات الأسبوع، كان يلقى علينا كلمـات من مرثـاة أيرلنديـة قديمة تعـود إلى المجاعة الكـبرى (لم يكن يرغـب فى أن يدع أحفاده البدنـاء يبدءون مأدبة وهم غير مدركين لقيمة وفرة طعامهم وثرائهم).

لقـد كان يلقى الكلمـات بصوت يعتبره صوت طفـل يرتعد: "أعطينى ثـلاث حبات فقط من الذرة يا أماه، ثلاث حبـات فقط تجعلنى أحيا إلى أن يأتى الصباح.

"ثـلاث حبات فقط من الذرة يا أماه. فقـط ثلاث حبات من الذرة!" يرتفع صوته هنا فى توسل شديد يشد انتباهنا، حيث إنه دائما ما يتحدث بصوت رقيق.

خلال وقت المجاعة فى أيرلندا، كان ملاك الأراضى الإنجليز يملكون مخـازن حبوب ضخمة مكدسة بالذرة التـى رفضوا توزيعها لأن ذلك كان سيخفضـ من سعرها عالميا، وكان جدى يريدنا أن نتذكر أنه منذ جيل أو جيلين مضيا ربما كان آل "جيل" يموتون جوعا ويشحذون حفنة من حبوب الذرة من أجل البقاء على قيد الحياة.

ومـع ذلـك، لم يكره جدى الإنجليـز، بل شق طريقـه بسرعة إلى قمة المؤسسـة الإنجليزيـة. ورغـم أنـه ولد معدمـا، فقد نجـح كطالب منحة دراسيـة فى جامعة ييل وحصل علـى شهادة الطب، ثم ذهب للدراسة فى لندن وأصبح جراحا ناجحا لدى عودته إلى هارتفورد.

والمثـير للدهشـة بالنسبـة لشخص أيرلنـدى فى ذلك الوقـت - أنه حين كانـت الصحف المحليـة تقول: "لا ينبغـى علـى الأيرلنديين التقدم لهـذه الوظيفة" أصبح جدى مديـرا لثلاث بنوك فى كونيكتيكت. لقد كان السـكان الشماليـون البيضـ فى كونيكتيكـت يدافعون عـن أموالهم على نحو غيور. لـذا فقد كانت البنوك هى حصونهـم الحقيقية. لقد أخبرنى أحدهـم أنه فى تلك الأيام لكى يتم تعيينك فى بنك كان لابد أن تكون من طائفـة دينيـة معينة وكان لهذه الطائفة الدينية مهمـة تعد بمثابة السبب الرئيسـى لوجودهم، ألا وهى تجريد طائفة أخرى معينة من سلطتها، ولم يكـن هناك شـىء أحب إلى هـذه الطائفة الأولى البخيلـة من رفض منح القروض للأيرلنديين الذين ينتمون إلى الطائفة الدينية التى يعادونها.

إلا أن جـدى كان يتمتـع بموهبة عظيمـة فى الحساب وجمـع الأموال لدرجة أن هؤلاء المصرفيين الصارمين الجشعين وجدوا أنه من المستحيل

أن يقاومـوه، وأصبح جدى مليونيرا وهو فى سن صغيرة وانتقل للعيش فى منــزل متسع فى شارع بروسبكت أفينيو، الذى تم اعتباره فيما بعد أفضل شـوارع هارتفورد. ومن خـلال عبقريته كجراح وموهبتـه فى جمع المال، شـق جدى طريقه إلى قمة العالم الـذى لا تزال تسيطر عليه طائفة دينية قديمة محددة.

وكان جـدى رجلا صالحا لدرجـة أنه لم يكن يطلب مالاً من رجل دين حـين يجرى عمليه جراحية له. وكذلك وجد أنه من الحكمة أن يرسل أبى للدراسـة فى "مدرسـة تابعة لطائفـة دينية معادية للطائفـة التى ينتمى إليها" دون أن يشعر بتأنيب الضمير. حيث إنه كان يعتقد أن هذه الطائفة كانت الأفضل فى ذلك الوقت.

بعبارة أخرى، لقد كان جدى قدوة أحتذى بها؛ حيث لم يكن مدافعا عن أيدولوجيـة بعينهـا ولم يكن كارها لأحد بأى معنـى نظرى. لقد حقق جدى نتائج إيجابية فى كل واقع عاش فيه ولم ينشغل بمظالم الماضى المنصرم.

وقـد درس أبى فى مدارسـ (نوا ويبستر) فى سنواتـه الأولى، ثم فى (كينجـز وود كانترى داى)، ثـم ذهب للدراسة فى جامعـة ييل. لذا كان من الطبيعى أن يكون كل أصدقاء أبى فى سنواته المبكرة من طائفة دينية مغايرة لطائفته.

وعلـى أية حال، لقد كان جـدى الأيرلندى وأبى - الذى كان يلقب نفسه بـ"الأيرلندى الأسـود" بسبب سمرته - مناصرين لإنجلترا. لقد كان جدى يحـب الاقتباسـ مـن شعراء العصـر الفيكتـورى المشهوريـن - ومعظمهم إنجليـز. وكان أبـى فى حياتـه اللاحقة يحـب الذهاب إلى لنـدن من أجل الظهور فى برامج المسابقات التى تذاع على محطة البى.بى.سى. لقد لاقت رؤية أبـى النقدية الودودة - لما كان يعتبره نظام الطبقات الكوميدى، وخفة ظله الشديدة، وهجومه العنيف على الغطرسة - نجاحا كبيرا فى إنجلترا.

لـذا فقد كان من الصعـب علىَّ كشخص ذى خلفيـة أيرلندية فخورة وهادئـة فى الوقـت ذاتـه أن أستوعب مستـوى الكراهية الـذى كان والد "جيـم" يشعر به تجاه الإنجليز وتجـاه المنتمين إلى طوائف دينية مختلفة لدرجة عدم حضور جنازة ابنه لأنه سيدفن فى "المقابر الخطأ".

ولم يكن "جيـم" ليرضخ لأوامر والده؛ فقد كان يرى أنه غير عقلانى بينما كان "جيم" نفسه رجلا عقلانيا.

والشـىء الرائع فى صداقتى لـ"جيم" هو ذوقـه العام العقلانى. فقد كنـا نتحدث لساعات متأخرة فى الليل، وقد قدم لى "جيم" رؤية واضحة للحقيقـة الفعلية. وعلى مـر العقود التى قضيناها معـا، كنت دائما أحب الجلوس مع "جيم" ومناقشته فى أحـوال العالم. ونظرا لنشأتى، لم تكن معرفتـى مكتملـة الجوانب، وحين كنت ألتقى بعمـلاء مهمين كان علىَّ أن أزيف معرفتى بالكيفية التى يسير بها العالم من حولنا. وبالتدريج، ابتكر زملائـى فى وكالة (جيه. دبليو. ثومبسون) شعـارا يرددونه على العملاء وهـو: "لا تسأل مايك عن المال". وذات مرة فـى لقاء عمل جديد، وعدت العميـل بأننا سنقوم بالدعاية مجانـا، وكنت أعنى ذلك فعلا. ومنذ ذلك الحين كان زملائى يقدموننى للآخرين قائلين: "إن كل المديرين البارعين يتسمون ببعض من الجنون، و "مايك" مدير تصميمات عظيم".

وهـذا التقديم البسيـط جعل العملاء يدركون أننـى لست محلا للثقة على أرض الواقع. وبصراحة، فإننى لا أزال أحاول جاهدا أن أصبح ماهرا فـى التفاوض عند ماكينة تسجيل النقود وفى كل التعاملات الأخرى التى تشكل تحديات فى عالم الواقع والبيع بالتجزئة التى أقطن فيه الآن.

لقد كان "جيم" يعرف كل شىء فيما يتعلق بالمال والحقائق الأساسية الأخـرى. لقد كانت جوانب المعرفة مكتملة لدى "جيم". لقد أحببه لحسه الواقعى، وكذلك لأنه كان سرعان ما يستمتع بما يمكن أن تعطيه له الحياة

الواقعية، ويمكننى أن أتخيله الآن وهو يحتسى مشروبًا ويستمع إلى الأوبرا بكل نشاط.

حين كنا فى المدرسة الثانوية، أتى ليزورنى فى إحدى الإجازات الصيفية فى نورفولك.

سألنى "جيم" وهو يسمع صوت موسيقى: "ما هذا؟".

فأجبت قائلا: "إنها أوبرا لا ترافياتا: فأمى تحب الأوبرا، وتقوم بعزف هذه الأوبرا طوال الوقت".

فقال "جيم": "إنها موسيقى رائعة".

لقد عرفنى على "أندريه سيجوفيا". فحين كان فى الجيش أخبرنى أن "أندريه سيجوفيا" كان يعزف مقطوعاته الموسيقية الرقيقة وكان يجد أنها طريقة رائعة لختام اليوم.

وكان "جيم" يحب أن يسابق ابنه الأكبر "بنيامين" فى سباقات كان يقيمها فى عطلات الأسبوع، وكان ابنه الثانى "مايكل" يصطحبه فى آخر مرة رأيته فيها فى الريف. لقد كان يحب أن يحاط بالأشخاص الذين يحبهم.

وفى كثير من الأحيان، كان يأخذ عائلته كلها، ابنيه وابنته "كلير"، للتزلج فى العطلات أو للقيام بمغامرات أخرى. وكان دائما ما يتطلع لهذه الأوقات، وقد كانت عطلة نهاية الأسبوع فى أديروداك أمرًا عاديًّا بالنسبة لروحه الأنيسة، وقد كان هو و"باربرا" مع مجموعة من الأصدقاء فى مكان يستمتعون بوجودهم فيه. إننى أتخيل كم المرح الذى كان "جيم" يشعر به فى مثل هذه الرحلات الخارجية الجميلة.

وأعتقد أن "باربرا"، الآن تفكر فى أن "جيم" قد تناول كمًّا كبيرًا من الطعام أو طعامًا غير مناسب مما سبب له الوفاة. لقد كانت تحاول أن تجد معنى لهذه المأساة البشعة. فحين تقع لنا مثل هذه الأحداث

الصادمـة، أعتقد أنه من الطبيعى أن نعود إلى الوراء فى أذهاننا ونبحث عن أية مفاتيح. إنها طبيعة البشر التى تحاول شرح ما لا يمكن شرحه!

وقد طرأت على ذهنى فكرة أنا أيضا فى ذات الوقت، ألا وهى أن قيام "ميريل لينتش" بفصلى فى العام السابق قد لعب دورا ما فى وفاة "جيم" المبكـرة، فأنـا أذكر كم كان الموقف صعبا حـين تم فصلى من العمل، وأنا متأكـد من أن "جيم"، باعتباره صديقًـا مخلصًا جدا، قد تأذت مشاعره بسبب هذا الشكل من عدم الإخلاص المؤسسى.

لقد كنـت أنا و"باربرا" نحـاول جاهدين إيجاد سبـب عقلانى لوفاة "جيم" المفاجئة. ربما كان السبب مزيجا من كل شىء: فصلى من العمل، وتناولـه قدرًا كبـيرًا من الطعام، وضعف قلبه، وارتـداء حذاء ثقيل، هذا بالإضافة إلى الصدمة المفاجئة للعاصفة غير المتوقعة.

قالت "باربرا": "لقد ركبنا قاربًا صغيرًا بعد النزهة، وكانت البحيرة تبدو هادئة جدا والشمس متلألئة".

كانـت "باربرا" تجلس فى المطبخ، فجلسـت معها ممسكا بيدها. لقد كانت "باربرا" شجاعة جدا، ولكن الأمر كان صعبا عليها.

وأردفـت: "ثم هبت العاصفـة - واحدة من تلـك العواصف الشديدة التى تعـرف بهـا "أديروندداكس"، وسرعـان ما ارتفعت الأمـواج بسرعة كبيرة، وانقلب القارب، وعلى الرغم من أنه يتعب من هذا الحذاء، إلا أنه أصر على دفع القارب تجاه الشاطئ البعيد".

وكان بإمكانى أن أرى الصورة واضحة: إن "جيم" يرفض الاستسلام، فيدفع القارب بكل قوته عبر الأمواج ووميض البرق والسحب المظلمة. لقد كان "جيم" رجلا قويا لا يزال فى شبابه، ولا يكف أبدا عن هذا النوع من التحدى البدنى. ألم يحمل كل أمتعته من ميريت باركواى حين أنزله والده من السيارة؟

ومثلما كان والد "جيم" يكره بعنف، كان "جيم" نفسه يحب الحياة بعنف وكانت عزيمته قوية جدا. يمكننى أن أتخيل "جيم" وهو يرفض أن يتوقف، وأعتقد أنه فى قرارة نفسه كان يريد أن يتأكد من أن "باربرا" قد وصلت إلى الشاطئ سالمة. لقد كان من ذلك النوع من الأشخاص الذى يتولى المسئولية عن الآخرين.

استمرت "باربرا" فى حديثها قائلة: "وقد وقع خطأ ما، حيث نظرت إلى الخلف، فوجدت أن "جيم" لم يعد يدفع القارب، فتركت القارب وسحبت "جيم" حتى الشاطئ، ولكنه كان ميتا".

كم كان ذلك الأمر صعبا على نفس "باربرا". هل يمكنك أن تتصور وجودك مع شخص نابض بالحياة تحبه، وتستمتعان معا بالحياة إلى أقصى مدى فى لحظة، ثم فى الثانية التالية تراه ميتا بجانبك، دون أن يكون لديك ما يمكنك القيام به؟

وقد طلبت منى "باربرا" أن أغنى أغنية Galway Bay فى جنازة "جيم". وقد كان هناك بيت رائع فى خاتمة هذه الأغنية الأيرلندية القديمة:

وإذا كانت هناك حياة أخرى

وأنا مؤمن أن ذلك أكيد

فأتمنى أن تشبه تلك الجنان

القابعة فى تلك الأرض البعيدة وراء البحر الأيرلندى

أعتقد أن هناك جنة، وأنا متأكد أن "جيم" يشجعنى وأنه ليس منشغلا بكونى لم أصل إلى الحقيقة التامة إلى الآن، ولكننى أفتقد حضوره الواثق الإيجابى المتأصل بقوة فى درس: استمتع بالحقيقة الحاضرة بدلا من التطفل على الضغائن والأيدولوجيات القديمة.

وبعد سنة واحدة من موت "جيم"، ماتت "باربرا" هى الآخرى. إنها لم تكن تحب إجراء الفحص السنوى كثيرا؛ ولم يصر طبيبها أبدا على إجراء أشعة على القولون، وحين أجرت هذه الأشعة، أخبرها الطبيب أن سرطان القولون قد وصل عندها إلى مرحلة متقدمة. وفى أيامها الأخيرة، أصرت على العودة إلى المنزل لتموت فيه. لقد أرادت أن تكون وسط أبنائها.

وقد ذهبت لرؤيتها، وكانت تجلس على الفراش الكبير مع أبنائها، فجلست أنا أيضا معهم على الفراش، وأطلنا النظر إلى بعضنا. لقد كان لدينا وقت للوداع، على عكس موت "جيم" المفاجئ، ولكن ذلك الوقت لم يكن كافيا. لقد كنا غارقين فى الأسى. فـ"كلير" و"مايكل" كانا سيدخلان إلى الكلية، أما "بنيامين" فقد دخل الكلية لتوه، وقد كانوا فى حاجة إلى والديهما. ولحسن الحظ، كان أخو "باربرا" خالا رائعا، كما كان إخوة "جيم" على اتصال معهم دائمًا.

ولكن، هل بوسعك أن تتخيل كيف يشعرون وقد فقدوا والديهم وهم يبدءون فى تكوين حياتهم الخاصة؟ لقد أصابنى تعاقب موت "جيم" و"باربرا" بصدمة.

إلا أننى فى بعض الأحيان أجد أنه من السهل أن أعود إلى عدم تقدير نعمة الحياة الخارقة.

حين كنت أعمل فى مساعدة قوات مشاة البحرية فى الإعلانات الخاصة بهم، علمت أنهم لم يقعوا أبدا فى ذلك الخطأ: إنهم لم يأخذوا الحياة أبدا على أنها من المسلمات، ويتجلى توجه قوات مشاة البحرية فى المثال التالى: حين كنت فى أواخر الثلاثينيات من عمرى، ومدير تصميمات فى حساب فيلق السلاح البحرى، قررت أن أشارك فى الماراثون الذى كان مقاما برعاية القوات البحرية فى واشنطن العاصمة، ولم يكن قد سبق

لى الجرى لمسافة مشابهة من قبل، وقد استغرقت أكثر من خمس ساعات لإنهاء أكثر من عشرين ميلا، وقد انتهى بى الحال فى النهاية إلى الترنح من الألم وليس الجرى، ولكننى أكملت السباق؛ حيث إن القوات البحرية قد أوضحت أن الخروج من السباق ليس خيارا مطروحا.

وفى اليوم التالى، كنت حاضرا فى مكتبى دون أى إجهاد واضح. وبالطبع، فقد كنت فى الثامنة والثلاثين فى ذلك الحين - أى مازلت شابا!

وقد كان هناك رقيب فى سلاح مشاة البحرية فى الحرب العالمية الأولى يسمى "دالاى". كان رجاله يواجهون المدافع الرشاشة الألمانية للمرة الأولى فى الخطوط الأمامية، وكان يبدو أنهم يشعرون بالتردد فى إطلاق الرصاص القاتل.

فصرخ قائلا: "هيا، هل تريدون أن تعيشوا إلى الأبد؟".

لقد ظللت لمعظم سنين عمرى فى حالة من الإنكار لحقيقة أننى سأموت فى يوم من الأيام. نعم، كنت أريد أن أعيش إلى الأبد!

وحين بدأت فى مساعدة مشاة البحرية فى إعلاناتهم لطلب مجندين (ألفنا سطرًا يقول: "إن القوات البحرية تبحث عن بضعة رجال صالحين")، زرت المقر الرئيسى وتحدثت مع الرجل الذى كان مسئولا عن ميزانية الإعلانات، ولم أستطع أن أمنع نفسى من ملاحظة أن المبنى كان يقع إلى جوار مقابر أرلينجتون.

فسألت الرجل دون تفكير: "ألا يشعرك ذلك بالتوتر؟".

فرد قائلا: "توتر؟ ربما أنتم أيها الرجال الذين تعملون فى الدعاية والإعلان لا تحبون الاعتراف بذلك الأمر، ولكننا جميعا سنموت فى يوم ما. إننا نحب أن نضع هذا المصير نصب أعيننا طوال الوقت. فما من أحد من قوات مشاة البحرية يعتبر أن حياته إلى الأبد أمر مسلم به أبدا!".

فقلت للجنرال "ماكميلان"، مدركا أننى قد ارتكبت خطأ فادحا: "نعم، سيدى!".

وفى الأعوام القليلة التالية من العمل مع مشاة البحرية، أدركت أن جنود مشاة البحرية لا يسعون للموت، ولكنهم مستعدون للموت من أجل حماية بقيتنا. إنهم يتطوعون من أجل هذا الواجب الخطير، لذا فإن سلاح مشاة البحرية متيقن من أنه حتى أقل الجنود خبرة يعى تماما أن وظيفته هى التعرض لخطر الموت من أجل أمريكا.

قال الجنرال "ماكميلان" مرة أخرى: "إن مقابر أرلينجتون هى أفضل موقع عقارى فى واشنطن. إننى لا أطيق صبرا لشغل مساحة ممتازة هناك".

إن جنود مشاة البحرية يعيشون كل يوم من حياتهم وهم مدركون تماما أنه قد يكون يومهم الأخير؛ حيث يشعرون أن هذا يزيد من إفراز الأدرينالين فى أجسامهم. ونظرا لمعرفتى بقوات مشاة البحرية لثلاثين عاما، يمكننى أن أقول: إننى لم ألتق قط بمجموعة من البشر أكثر منهم قدرة على الاستفادة من الحياة إلى أقصى مدى.

وحين تقدمت فى العمر. أصبحت أكثر ارتياحا للموت، فلم يعد الموت شيئا أخشاه.

ولا أعنى أننى أرغب فى أن أموت اليوم، ولكننى أصبحت أكثر ارتياحا لفكرة الموت أكثر مما سبق. فشعورى مشابه لما كان "روبرت فروست" يشعر به عند وصفه للاحتضار فى قصيدته Birches:

أرغب فى أن أرحل عن الأرض لفترة
ثم أعود إليها مرة أخرى لأبدأ من جديد
أرجو أن يُقَدِّر فهمى
وتمنحنى نصف ما أرغب وتلقينى بعيدًا

فلا أعود مرة أخرى. فالأرض هى الموطن الأنسب للحب

ولا أدرى إذا ما كان هناك مكان أنسب له

ومثل "روبرت فروست"، أنا أرغب فى القيام بالعديد من الأمور فى حياتى، ولا أزال أشعر بالذنب لإيذاء مشاعر أبنائى بسبب طلاقى من والدتهم، ولا أزال أشعر بالدناءة أمام فكرة شدة انحيازى لعيش حياتى وقلة اهتمامى بالآخرين، بمعنى أننى لم أنظر لهم بعين العطف الصادق. إلا أننى أوافق "فروست" فى قوله: "إن الأرض هى أنسب مكان للحب".

إننى لم أشعر قط من قبل بأننى أكثر حبا لحياتى أو للحياة نفسهامن الآن. ولكن، للمفارقة، فإن حبى هذا لكل حركة فانية زائلة قد جعلنى أكثر قربا إلى حب الله.

حين كنت فتى صغيرًا، كانت طباختنا "نانا" تقول لى: "سوف تكون رجل دين فى يوم ما".

لقد كانت تعتقد أننى أتمتع بموهبة روحية مميزة، وذلك لأننى أخبرتها بأن والدها قد دنا أجله وأن عليها أن تقوم برحلة إلى الجنوب لرؤيته. لم تقم "نانا" بالرحلة، ولكن والدها توفى على نحو غير متوقع. ومنذ ذلك الحين، اعتادت أن تقول لى: "أنت قادر على رؤية ما لا يراه الآخرون. سوف تصبح فى يوم من الأيام رجل دين!".

لقد كنت فى الرابعة أو الخامسة من عمرى فى ذلك الحين، ولكننى كنت أحب "نانا" وأصدقها، وكنت أشعر أننى قريب من الله فى ذلك الوقت. ربما أن ذلك الحضن الدافئ بين ذراعى "نانا"، والذى كانت تأخذنى فيه حين أدخل إلى المطبخ قد ساعد على منحى شعورا بالارتياح والإيمان. لقد كنت أشعر بأن الله معى - حتى وأنا صبى صغير وحيد، أو ربما كنت أشعر بذلك خاصة باعتبارى صبيًّا صغيرًا وحيدًا.

واليوم، أشعر بهذا القرب مرة أخرى، وهذا القرب ليس قربا شديدا، ولكنــه ببساطة يتمثـل فى الإيمان بأن هذا الحــب السرمدى هو جزء من انبساط الكون.

فــى مقهى ستاربكس الــذى أعمل فيه، وجدت أن هناك من لديه نفس إيمانــى واستعــدادى للحديــث عنه. حيث يبــدو أن هناك تغـيرًا قويًا فى أمريـكا فيما يتعلـق بالموضوعات المسمــوح بمناقشتها. ففــى حين أنه فى السنــوات الماضية، كان كل من "راى تشارلز" و"أوتيس ريدنج" و"فرانك سيناتــرا" يتغنون بأغــان عن الألم ومآســى الحياة الحقيقيــة، فإننى لم أسمع الزبائن قط يتحدثون عن مثل هذه الأشياء. فالزمن قد تغير. فمنذ بضعــة أيام وأنا أقوم بالكنس، تصادف أن لاحظت امرأة تقوم بالحياكة. ولم أكن قد رأيت شيئا كهذا من قبل فى المقهى.

فسألتها قائلا: "ماذا تفعلين؟".

فأجابت قائلة: "أحيك شالا للشفاء".

فسألتها قائلا: "وماذا يعنى هذا؟".

فقالت: "إن صديقتــى مريضة بالسرطان؛ وقد قمت بحياكة قبعة لها حين فقدت شعرها، وقــد أحبت ذلك، فحكت لها هذا الشال لتضعه حول كتفيها. فتشعر بالارتياح وتعرف أننى أحبها دائما".

"لقد ماتت زوجتــى فى ديسمبر الماضى"، قالها رجل كان يجلس على الطاولة المجاورة.

وقد أدهشنــى ذلك. ففى كثير من الأحيان، يستغرق زبائن ستاربكس فى أحاديث طويلة مع أصدقائهم. ولكن من النادر أن ينضم إليهم شخص يجلس على طاولة منفصلة، ولكن بدا أن المرأة كانت مرحبة بتعليقه.

فقالت: "يبدو أن هذا الأمر كان صعبا عليك".

فرد الرجل قائلا: "نعم، بالفعل، إننى لا أزال أبكى كل يوم".

فقالت السيدة التى تحيك الشال: "إن البكاء جيد من أجلك".

نادتنى "يامى" من المطبخ قائلة: "مايك، هل يمكنك أن تسدى لى معروفا وتفحص طاولة النكهات؟ فقد نكون فى حاجة إلى بعض الحليب الطازج".

فهممت إلى القيام بمهمتى. لقد كانت "يامى" تعرفنى جيدا وكانت تدرك أننى يمكننى ببساطة أن أقضى ورديتى فى الاندماج فى الحديث بدلا من التنظيف أو المساعدة، ولكن، بينما كنت أنظم نضد النكهات – حيث أحضرت الحليب الطازج، وملأت حاويات الأنواع الخمس المختلفة من السكر، وتأكدت من أن لدينا عددًا كافيا من المناديل – فكرت كم من المدهش أن يتحدث شخصان بهذه الصراحة حول مآسى الحياة. وكان من الواضح أن تبادلهم الحزن كان بمثابة لحظة شفاء لكل منهما.

وبالأمس، حين كنت فى إجازة من العمل (وهى متعة تختص بها الوظائف جزئية الدوام!)، ذهبت إلى المقهى للحصول على حصتى المجانية من القهوة. فإحدى "ميزات" العمل فى مقهى ستاربكس هى أن كل عامل فيه يحصل على رطل مجانى من القهوة فى الأسبوع، ووقفت أنتظر فى الطابور وراء زبونة أعرفها، فاستدارت ورأتنى، فقلت لها: "أين ابنتك الصغيرة؟".

لقد كانت إحدى أولئك الأمهات اللاتى أشعر بالسعادة لرؤيتهن، فقد كانت مهتمة بوضوح بكل لحظة من حياة ابنتها. فاغرورقت عيناها بالدموع.

قالت: "ألم تعرف؟".

فرددت قائلا: "إننى لم أكن هنا؟".

فقد كانت جولات الترويج لكتابى تعنى عدم تواجدى فى المقهى كثيرا مثلما كنت فيما مضى.

قالت المرأة: "لقد كانت شانون مريضة. فقد ارتفعت حرارتها إلى أكثر من ١٠٥ درجات. كانت ساخنة جدا! فنزلت إلى الطابق الأسفل من المنزل لأحضر لها بعض الدواء... وحين رجعت... كانت قد ماتت".

فقلت لها: "إنه لأمر عسير. لا أستطيع أن أصدق ذلك!".

فقالت: "ولا أنا أستطيع أن أصدق. إن بيتر سيُجَن".

"بيتر" هو زوجها. وقد رأيت العائلة كلها فى مطعم بيتزا يقع فى الحى، وكانوا يضحكون مع بعضهم وكان الوالدان يتحدثان مع ابنتهما ذات الأربع سنوات. والآن، فقد ماتت ورحلت عنهما.

فقلت لها: "وماذا حدث؟".

فردت قائلة: "لا أحد يعرف. لقد أقمنا مراسم دفنها منذ أسبوعين، ودفناها فى مكان قريب من هنا. لقد كانت كل عائلتى هنا".

وهنا، كانت تمسح دموعها، ولم تكن محرجة. فقد كانت تدع دموعها تنهمر ثم تمسحها وكأنها قد أصبحت جزءا من حياتها.

قالت: "لقد أخذناها إلى مستشفى لورانس هوسبيتال فى تلك الليلة على الفور، ولم يكن لديهم حتى طبيب أطفال، ولكن هذا الأمر كان متأخرا جدا على أية حال".

ثم ناولتنى صورة فوتوغرافية صغيرة.

وقالت: "يمكنك الاحتفاظ بهذه".

نظرت إلى الفتاة الشقراء الباسمة التى عرفتها على مدار السنوات الماضية.

وشعرت أن عينىَّ قد امتلأتا ببعض الدموع، فلم أكن أستطيع أن أصدق أن هذه الفتاة التى كانت كتلة من الطاقة البهيجة قد ماتت. ومع رحيل وجه "شانون" الباسم عن عالمنا، كان الأمر يبدو كما لو أن مساحة من العالم قد زالت، وقد احتفظت بتلك الصورة. إننى أدعو لها ولوالديها

كل يــوم، ولا أدرى ما إذا كان دعائى يفيدها، ولكنه يفيدنى على أية حال؛ فبثنائى عليهم ودعائى لهم أشعر ببعض السلوى إزاء هذه المأساة المفاجئة والمفجعة.

وفــى الواقع، حتى عندما أحيى الأشخاص عنــد آلة تسجيل النقد فى هــذه الأيــام، فإننــى أدعو لهم فى نفســى، ولا أقول هــذه الأدعية بصوت مرتفــع حتى لا أفزع هؤلاء الأشخاص، ولكننى لا أقاوم أن أقول فى صمت لنفسى، بينما يأتى هؤلاء إلى آلة تسجيل النقد التى أجلس وراءها أو وهم يخرجون من الباب: "فليباركِكم الله".

وفــى أيرلندا، لا يزال الناس هنــاك يقولون: "فليباركك الله" بصوت مرتفــع أثنــاء مغادرتك للمقهــى أو يقولــون: "أراك لاحقــا" فحسب بعد تبــادل الحديث فى الشارع. وكلمة "أراك لاحقا" تعنى – بالطبع – "الله معك".

وفــى كل صباح وأنــا أمارس بعض التمرينــات الرياضية، أقول بعض الأدعيــة التى تبدو وكأنها تتدفــق من فمى؛ فتلاوتى للأدعية ليست خيارًا متعمدًا، فأنا لا أنفك أشكر الله على كل شىء، وأطلب منه الغفران، وأدعو الله أن يمنحنــى القوة لأكون شخصا أقوى ولأتمكن من الخدمة على نحو أكبر.

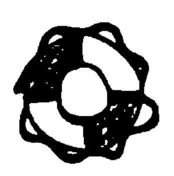
ثم أعد لنفسى قدحا ضخما من القهوة.

إننــى أشعر وكأننى أكثر قربا من الله هذه الأيــام. وأعتقد أن العديد مــن الأشخاصــ – على الأقل فــى المقهى الصغير الذى اعمــل فيه أو فى محيــط حياتى البسيطة – يشعــرون أنهم أقرب إلى الله فى هذه الأوقات العصيبة.

إننــا لم نعد نحيا فــى عالم ليس فيــه أبطال ســوى "دونالد ترامب". ولسنــا كذلك فى عالم يمثــل فيه فصل شخص من العمــل عملا بطوليا.

وربمـا أصبحنا ندرك أن مشاركـة الشعور بالفشل والحزن يمكن أن يكون شافيـا، وفى مثل هـذه الأوقات العصيبة نصبح أكـثر تقبلا لأن الموت هو الحقيقة الأساسية فى هذه الحياة.

إن العيش بشعور بالسكينة وتقبل فكرة أننى بشر فان قد جعلانى أركز علـى الاستفادة إلى أقصى مدى من الحاضر. لقد اعتدت أن آخذ الحياة علـى أنها من المسلمات وكنت أتصرف كما لـو أننى سأحيا إلى الأبد. أما الآن، فأنا فى حالة امتنان وسعادة مستمرين فقط لأننى حى.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

إن قبولـك لفكرة دنو أجلك والنهايـة المحتومة لحياتك، بغض النظر عن مدى شدة رغبتك فى نكران أو تجنب مواجهة ذلك القدر، من الممكن أن يقودك إلى الاقتراب أكثر من حقيقة رحلتك وسحرها. إن التعايش مع الحقيقـة المؤكـدة التى تتمثل فى أن الموت يمكن أن يضفى بهجة جديدة علـى حياتـك. تذكر الدروس القيمـة المستفادة من الأسـرة والأصدقاء الذيـن علمـوك أن الحـب أفضل مـن الكراهية، وأن من المهـم أن تعامل كل ثانيـة على أنها نعمـة عليك الشعور بالامتنان من أجلها والاستمتاع بها.

استمتع: فقد صار الأوان متأخرا أكثر مما تتخيل!

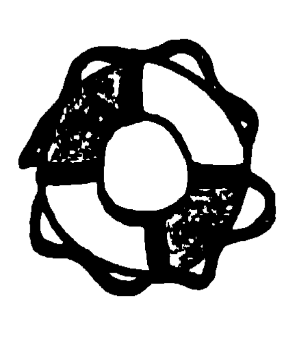


الدرس ١٣

المزدهرون متأخرا...
آخر العمر قد يكون أفضله

"اكبر معى
فالأفضل لم يأت بعد.
وآخر العمر
هو ما من أجله خلق أوله".

— *روبرت براونينج – من قصيدة Rabbi Ben Ezra*



أنـا لم أتوقع قـط أن آخر سنوات عمـرى ستكون أفضلها، ولكـن هـذا مـا أشعـر بـه الآن. لقـد حدثت لى فـى هذه السنـوات الأخيرة العديد من المفاجـآت السعيدة التى لم أكن لأتخيلها.

وبطريقـة مـا، أعتقد أن الله قد ادخر لى الأفضـل لأتمتع به فى آخر العمر.

أذكـر أن "وينستـون تشرشل" عندما أصبح رئيسـا للوزراء فى عقده الستين، قال: "ما كانت حياتى كلها إلا استعدادا لهذه الساعة".

وبمنتهـى البساطـة والتواضع، أشعـر أن حياتى كلها قـد قادتنى إلى هـذه النهاية السعيـدة، وحتى كل الأخطاء والعثرات قـد قادتنى إلى هذه اللحظة، حيث أشعر بالامتنان لكل شىء أراه وأفعله.

ربما كانت هناك بعض ينابيع المشاعر الإيجابية تتفجر بداخلك وأنت

تدنـو من منبع نهر الحياة فى آخـر حياتك. هل تعرف كيف تقفز أسماك السالمـون عائدة إلى النهر الذى ولدت فيه؟ توجد بداخلى بهجة تقفز إلى هذه الأيام الأخيرة من حياتى.

أنـت تعـرف كيف يتحدثون عـن الحصول على فترة التقـاط أنفاس، ولكننـى أشعـر بدفعة زائدة من الطاقـة بينما أدنو من خـط النهاية، ولا أعتقـد أن هذا الاندفاع الزائد نحو الحياة والمـرح قاصر علىّ؛ فقد رأيت ذلك فى الآخرين.

حـين دخلت "بـروك آستور" فـى التسعينيات من عمرهـا بدا أنها قـد اكتسبـت المزيد مـن الحيوية؛ ففى كثـير من الأحيـان، كانت آخر مـن يغادر حلبة الرقص فى الحفلات، وكذلك تحـول أبى فى سنواته الأخيرة من المشى السريع إلى الجرى الطائش عبر شوارع المدينة التى أحبها جدا.

لقـد أصبحت قدرتـى على الملاحظة فى هـذه الأيام كما لـو أننى قد اكتسبت وضوحًا خاصًّا. فحتى أصغر وأقل عشبة فى الحقل الصيفى تشع جمالا جديدا بينما تتراقص فى شمس نهاية وقت ما بعد الظهيرة.

أتعـرف كيـف يبـدو العالم فـى نهايـة اليوم وكأنـه يستضـىء بضوء مختلـف، بـل وفى بعض الأحيان يكون سحريـا؟ فالطيور تبـدأ فى غناء أغانيهـا الخاصة بقوة مميزة فى غسق الصيـف الطويل، أو ربما أننا فى نهاية اليوم نتمكن من سماعها على نحو أفضل.

هنـا، أفكر فى "ليوبولد بلوم"، بطل رواية *Ulysses* للروائى "جيمس جويس"، الذى يتوقف أثناء تجوله ليستمع إلى أغنية:

أغنية فى وقت الغسق

حين يخفت ضوء الشمس

وتبدأ الخيالات المرتعشة

فى الغدو والرواح

وعلى الرغم من تعب القلب

واليوم الحزين الطويل

ما زالت فى الغسق

تأتى إلينا الأغانى القديمة

تأتى إلينا أغانى الحب القديمة الجميلة

يزدهـر الحب بينما تغـرد الطيور وتسقـط الظلال فـى نهاية اليوم. استمع إلى هذه النغمات السحرية فى نشيد المساء التالى للأديب "سابين بارينج جولد":

والآن انتهى اليوم

والليل يأتى وشيكا

وظلال المساء

تسللت عبر السماء

لا ريب فى أن الحياة تتحسن بأشكال عدة حين تتقدم بنا السن؛ حيث إننـا نصير أكثر وعيا بالحياة ونتمتـع بالحكمة، وكذلك نصبح - بالأخذ فـى الاعتبار رؤيتنا الجديدة- قادرين علـى الإبداع بأية مواهب نكتسبها فى فجر حياتنا.

وفـى أوقـات الصيف الأخيرة مـن حياتنـا، لا نستحضر فـى داخلنا تقديـرا جديدا لتغريـد الطيور، ولكننا نصبح أكثر وعيـا وامتنانا لمواهب الآخرين كذلك- وكذلك لجمال كل كائن حى.

لقد ألـف أبى كتابا بعنـوان (*Late Bloomers* المزدهرون متأخرا) يشيـد فيه بهـؤلاء المشاهير الذين حققوا أعظـم أعمالهم وهم فى أعمار متقدمـة - علـى سبيل المثال، الجـدة "آنـا موسى"، "هـارى ترومان"،

"جوليا تشايلد". وقد أخذ أبى عنوان هذا الكتاب من مصطلح علم البستنة الذى يصف الزهور التى تتفتح فى آخر الفصل، وقد بدا أن هذا المصطلح ينطبق على الأشخاص كذلك.

وفى مقدمة الكتاب، يقول أبى عن هؤلاء الأشخاص المزدهرين متأخرا:

"... إن التأخر ليس مجرد عاقبة لرحلة السنين والعقود المحتومة، ولكنه يتعلق بهذه اللحظة من الوقت، والتى نكتشف فيها بعض وسائل إشباع أنفسنا، سواء كان ذلك من قبل أحداث فرضتها علينا قوى خارجية أو من خلال ما يبدو أنه رؤية تلقائية شخصية... فمن هم "المزدهرون متأخرا"؟"

إنهم هؤلاء الأشخاص الذين ينجحون فى إيجاد أنفسهم بأى ثمن وتحت أية ظروف.

إننى سعيد لالتحاقى بمجموعة الزهور التى تتفتح فى وقت متأخر من فصل الربيع.

ففى بعض الأحيان، يكون غروب الشمس أجمل من الشروق. والآن، بتُّ أحب الغروب؛ حيث إن العالم يتحرك فيه قليلا مع تنهيدة صامتة قصيرة، وشمس وسط النهار الساطعة الحارة تحل محلها أبعاد خفية عديدة، وبينما أنظر من نافذة شقتى الصغيرة، أرى ألوان المساء الآن تبدو منتشرة على نحو أوسع. اليوم، أشعر أننى أصبحت أكثر تقديرا لكل مشهد مشابه.

يتحدث أحد الفلاسفة الروحانيين عن "الصوت السماوى الخافت". ويبدو أن هذا الصوت يتجلى لى فى وقت الغسق الهادئ وليس فى ازدحام وسط النهار المفعم بالضجيج. إننى أستشعر ما يشبه العزلة المقدسة فى الكثير من أمسياتى الآن.

أتعـرف تلك النغمات الصامتـة التى تتخلل موسيقـى السيمفونيات؟ إننى أقدر هذا الهدوء الساكن أكثر وأكثر.

هؤلاء الذين ينتظرون عند باب الملك سيجددون قوتهم

سيصعدون بأجنحة النسور

وسيعدون ولن يتعبوا

وسيمشون ولن يضعفوا

تتحدث هذه الفقرة، المأخوذة مـن أحد الكتب الدينية، عن الانتظار. وهنــاك أيضا جملة تقول: "إنهم يخدمون فقط من يجلسون وينتظرون". إن الأمريكيين يخشون الحياة التى تخلو من النشاط. إننا نميل دائما إلى "النشاط والعمل"، ولكن من الممكن أن يؤدى الجلوس فى مكان هادئ إلى إنعاش الروح. إننى أرى أن الهدوء الساكن غذاء للروح.

إننــى لا أملك جهاز تليفزيـون؛ فأنا أعرف أننى لـو اقتنيت تليفزيونا فســوف أصبح مهووسا بكل تلك "الشخصيات التــى تطل على شاشته"، وســوف أشاهده باستمرار، وكنت سأفتحه حين أعود إلى المنزل فقط من أجل الرفقة. وأنا أعرف أنه بالنسبة لى من الممكن أن أدمن سماع أصوات أشخاص آخرين- حتى لو كانوا غرباء يصرخون فى وجه بعضهم داخل صندوق كبير.

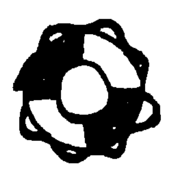
ويمكننــى رؤية نفســى ممسكا بجهــاز التحكم عن بعـد، وأتنقل عبر القنوات، باحثا عن الإثارة التــى أطلق عليها "تعليمًا". لقد رفضت شراء جهــاز تليفزيون وذلك لأننى لا أعتقـد أننى أستطيع مقاومته عندما أكون جالسا أمامه، وقد وجدت – وهو ما أدهشنى – أن الهدوء عند عودتى إلى بيتــى البسيط هو أفضل شئ بالنسبة لى. إننى أشعر بالامتنان والسعادة حين أتيح لنفسى تجربة العزلة.

لا مزيد من الأضواء الساطعة والسهرات فى المدينة الكبيرة؛ فأنا أحب أن أكون فى الفراش فى الثامنة مساء أو ما شابه، وأن أدخل فى النوم فى التاسعة وأنهض مع ضوء الفجر. تأمل قليلا فى هذا الوضع، إن أيامى الآن تشبه تلك الأيام التى عشناها جميعا قبل أن تحل الكهرباء محل شمس النهار والليل المظلم الذى ذهبت ظلمته بواسطة المصباح الكهربى الذى لا ينطفئ. والآن، فى أيامى الأخيرة، أتتبع ضوء الشمس، متنعما بأول ضوء للفجر وبأشعة المساء الأخيرة.

كما أننى وجدت مفاجأة أخرى سعيدة فى الشيخوخة: إنها البهجة الجديدة التى تستشعرها عند العودة إلى إيقاعات الحياة القديمة الأكثر بساطة وضوء مرحلة مبكرة من العمر. ينبغى علىَّ الاعتراف بأن هذه كانت أفضل سنوات حياتى بعدة أشكال رائعة، كما أنها لا تزال تزداد جمالا أكثر وأكثر.

لذا، فأنا بكل سعادة أدعوك إلى أن:

"تأتى معى، فالأفضل لم يأت بعد".



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

خض هذا الاختبار اليوم: أغلق التليفزيون. وانظر من النافذة، وشاهد غروب الشمس، واهتم بمشاهدة منظر الغروب هذا بدلا من مشاهدة وجوه الإعلاميين التى تطل عليك من شاشة التليفزيون. استمع إلى تغريد الطيور بدلا من المناقشات الغاضبة. امنح نفسك فى نهاية اليوم ساعة من السكينة.

انهض فـى اليوم التالى متيقنا تماما من أنك قـد أدركت – مهما كانت سنك وظروفك – كيفية الاستفادة إلى أقصى مدى من كل لحظة يقظة مـن حياتك. و أعد نفسك لأن تكون السنوات القادمة هى أجمل سنوات عمرك.

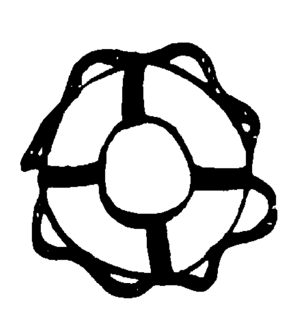


الدرس ١٤

الحياة البسيطة أفضل...
اخسر كل "مقتنياتك" مقابل الحرية

"ولدت لأخسر"

ـــ *راى تشارلز*



"لقـد فقدته فى القطار" - أتذكر أن أبى قال هذه الجملة ذات ليلـة حين عاد إلى المنزل بعد سنة تقريبا من انتقالنا إلى برونكسفيل.

فسألته أمى قائلة: "ماذا؟".

فـرد أبى قائلا: "مخطوط كتاب كان من المفترض أن أراجعه، والآن ضاع الكتاب إلى الأبد".

فقالـت أمى، محاولة تهدئتـه: "يمكنك أن تسأل عنـه غدا فى مكتب المفقودات؛ فربما يكون قد وصل إليهم هناك".

لم يعـثر أبـى علـى المخطـوط– لقـد فقـد الكثـير مـن المخطوطات عـبر السنـين– ولكننـى كنـت مهتمـا باعتبـارى طفـلاً صغـيرًا بفكرة "المفقودات".

ولكن، ومما يثير الدهشة، هذا ما حدث لى: لقد فقدت الكثير، واليوم أشعر وكأننى وجدت أشياء أكثر.

والمفارقة هـى أنه ربما أننا جميعا ولدنا لنخسر، ولكننى– بالتأكيد–

ولـدت مـن جديد بعدة أشـكال حين فقـدت منزلتـى الوطيدة فـى أعلى مستويات المؤسسة الأمريكية. لقد شعرت بالفزع.

لقـد كنت مفزوعا، وبـدا أننى أفقـد بسرعة كل شـىء عملت جاهدا لأحصـل عليـه. أولا، وظيفتى، ثم منـزلى الكبير. إننى لم أخـتر أبدا أن أخسر كل أمـوالى: راتبى المكون من ستة أرقام، وبيتى الكبير، وإحساسى بالاستحقاق. ثم، فقدت عائلتى بالطلاق. وأخيرا، خسرت صحتى.

ولقد تحولت من الشعور بأننى فائز إلى الشعور بأننى ضحية.

وتبنيت شعورا بأن حياتى ما هى إلا مأساة بشعة. وشعرت أن قليلين هم من فقدوا مثل ما فقدته. وحين أنظر إلى الوراء، أرى الآن أننى قد تقبلت إحساسى بقدرى المفزع، وقلت، مثلما تقول إحدى الأغنيات القديمة:

"لا أحد يدرك المشكلات التى مررت بها/ لا أحد يعلم إلا الله".

وفى حياتى السابقة، كنـت أحب الذهاب إلى دار العبادة فى الأعياد؛ ولكننـى كنت أشعر بالانزعاج عند سماع المآسى التى مر بها رجال الدين الصالحـون. إننى أتساءل: "لماذا لم يُجنب هؤلاء الرجال الصالحون مثل هذه الآلام؟".

وإننـى أنا لم أتجاهل حقيقة تعذيب هـؤلاء الرجال الصالحين، ولكنه جانب من قصصهم كنت أجد صعوبة فى دمجه فى حياتى.

كنـت أحـب الذهـاب إلى دار العبادة فـى ماديسون أفينيـو، وكنت أسمع مقولة: "إن المعاناة التى مر بها الصالحون من قبلنا قد صقلت تجاربنا نحن".

بعبارة أخرى، إننا لسنا مضطرين إلى أن نعانى لأن الرجال الصالحين مـن قبلنا قـد عانوا بالفعل بما يكفى لكى نمضى فى حياتنا دون معاناة أو اختبـار. ولكن، هذه الرؤية الوردية للحياة ليس لها أساس فى أى تعاليم دينيـة. فرغم أن هؤلاء الرجال الصالحين قد عانوا حتى نكون نحن قوما صالحين، فهم لا يستطيعون أن يحمونا من أخطائنا.

أنا لا أدعى أننى قد تعرضت لأية خسارة بمحض إرادتى؛ فأنا لست مثل رجل الدين "فرانسيس"، الذى كان والده تاجرا ثريا. وفى شبابه - كما يقول التاريخ - كان ذلك الرجل يسعد بارتداء ملابس أنيقة ولعب دور الفارس الشجاع. وكان واضحا أنه يحب صحبة النساء، ولم يكن ينفر على الإطلاق من التباهى بالمعارك الحربية التى كان يظن أنه يستطيع بسهولة أن ينتصر فيها، ولكنه فجأة طرح هذه الملذات الزائلة؛ فكان يرتدى أية ملابس وأصبح مكرسا نفسه لعبادة الله، وهو ما جعل الناس يطلقون عليه فى إحدى المرات "الأحمق الذى باع كل شىء من أجل مبادئه".

ولكن حماقة "فرانسيس" لم تكن فى الواقع إلا حكمة عميقة؛ حيث يقول أحد الكتب الدينية: "لا تضع كنزك فوق الأرض، وإلا سيفسده العفن والصدأ".

لقد علمتنى الخبرة أنه لا أمان فى امتلاك سندات مالية فى وول ستريت أو فى الولاء لـ"شركة" بدلا من عقيدة.

كان يقال: إن الفيلسوف "بوذا" قد ترك منزله الفخم ليجد الشعور بالسكينة. أنا لست "بوذا"؛ فأنا لم أكن لأترك الدخل الكبير الذى يوفره لى عملى أو أترك منزلى الكبير لو لم أجبر على ذلك.

ولكننى أشعر أن ما حدث لى كان نعمة سماوية دخلت إلى حياتى لتعطينى فرصة لخسارة حياتى المادية لكى أتمكن من العثور على طريقة أكثر سعادة وإشباعا للعيش. وأضيف أننى لا أعتبر نفسى من الصالحين ولا أعتبر نفسى أفضل من أى شخص لا يزال يجتهد من أجل إيجاد طريقه، وأشعر أننى حسن الحظ لأن الفرصة أتيحت لى لرؤية الحقيقة السرمدية: خسارة الكثير فى الحياة يمكن أن يمنحك حياة أفضل.

ودعنى أوضح لك: إن هذه الرؤية ليست مقصورة علىَّ، فقد عبر عنها كل معلم فى كل حضارة وعاشها عبر العصور. وفى الواقع، إننى

الآن أرى كم كنت أحمق حين اعتبرت أن الخسارة التى تعرضت لها كانت مأساوية على نحو واضح وأننى ضحية مواقف غير رحيمة وليس متلقيا للحقائق النهائية.

ولقد كنت أحمق كذلك لأننى اعتقدت أن تجربتى - التى تمثلت فى خسارة مادية أدت إلى حياة أكثر سعادة - هى حدث استثنائى. فـ"بيلى"، وهو أحد زبائنى المفضلين، دائما ما أجد على وجهه ابتسامة، ولديه طاقة إيجابية يشترك فيها مع الآخرين.

سألته ذات يوم: "لم أنت سعيد جدا هكذا؟".

فرد قائلا: "لأننى - مثلك - كنت أحيا فى الماضى حياة رغدة ثم فقدتها. كنت أحصل على آلاف الدولارات يوميا، ولكننى خسرت كل هذا المال. والآن، وجدت وظيفة مستشار للأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب. إننى أكثر سعادة فى وظيفتى الجديدة مما كنت قبل ذلك وأنا منغمس فى الملذات ومطارد للنساء. لقد أنفقت الملايين من أجل قضاء وقت سعيد" - وهنا ابتسم "بيلى" - "ولكن، بعد أن خسرت كل مالى وجدت أن مساعدة الآخرين - بأفضل ما فى وسعى - أمر أكثر إرضاءً بكثير من محاولة صرف كل دولار من أجل الحصول على السعادة".

لقد كنت أستمتع بالفعل بالعديد من ممتلكاتى المادية وبشعورى بمنزلتى المتميزة. واليوم لا يمكننى أن أنكر أننى أشعر بالامتنان لما خسرته بسبب السعادة الجديدة التى وجدتها.

لقد أجبرت على أن أصبح أكثر تواضعا وأن أحيا فى عالم واقعى لا يأبه فيه أحد إلى المدرسة التى درست فيها وإلى شخص والدىّ. كما أننى أصبحت كل يوم أواجه حقيقة أننى حسن الحظ لأننى ما زلت حيا وأن الفرصة تسنح لى للتواصل مع أشخاص من كل الخلفيات والمجالات.

إن خسارة الممتلكات المادية يمكن أن تؤدى، فى كثير من الأحيان، إلى

سعادة جديدة للروح؛ فمن خلال خسارتى لكل مقاييسى للنجاح المادى والظاهرى فقط تمكنت من اكتشاف الحقيقة.

حين قال "ميس فان دير روه": "كلما كانت الأشياء أبسط، كان ذلك أفضل"، فإنه كان يتحدث عن الهندسة المعمارية، ولكن فكرته كانت تنطبق على الحياة كذلك.

إننا جميعا نأتى إلى هذه الحياة دون متاع؛ ولكن ما إن وصلت إلى الخمسينيات من عمرى، كنت مثل هؤلاء المسافرين الذين تراهم يصارعون على نحو هستيرى عبر المطار، محملين بالكثير من الحقائب الزائدة الممتلئة بالأشياء التى اشتروها خلال رحلتهم، ويترنحون محاولين الحفاظ على توازنهم وألا يسقطوا شيئا وهم يهرعون للحاق بالطائرة.

لقد أمضيت معظم حياتى أعمل جاهدا لمراكمة الممتلكات المادية، ولم أدرك أننى مع كل رغبة شديدة فى الشراء كنت أضيف حملا على العالم الذى أحمله على عاتقى.

إن "الممتلكات الشخصية" لها طريقة خاصة فى شغل ليس فقط عقلك، ولكن قلبك وروحك كذلك. ودائما لا يمكنك التوقف عن التفكير فى ممتلكاتك حين تتطلع إلى الحصول عليها ثم بعد ذلك تخشى خسارتها. وفى كثير من الأحيان تقع فى غرام ممتلكاتك الشخصية إلى درجة أنك لا تطيق أن تتخلص من دمية صغيرة تكون قد اشتريتها منذ سنوات وأنت فى رحلة بالكاد تذكرها.

وأخيرا، تتخلى عن روحك وتعقد صفقات مع الشيطان لتحافظ على وظيفة تكرهها حتى يمكنك الاحتفاظ بكل ممتلكاتك الشخصية. إن الانشغال بشأن الحفاظ على الممتلكات الشخصية يضيف شعورا دائما بالقلق إلى حياتك. إن الأمر يشبه الحمى الخفيفة: فأنت لا تشفى أبدا من الخوف من خسارة الممتلكات الشخصية التى عملت جاهدا من أجل الحصول عليها.

وأذكـر هنا أن أول مدير لى فى وكالــة جيه. والتر ثومبسون، "دوايت دافيس"، قد أسدى إلىَّ نصيحة عندما حصلت على أول علاوة لى قائلا: "تهانينــا، مايـك، ولكن، علىَّ أن أحذرك: كلمــا زدت غنى، زاد قلقك من أن تصبح فقيرا".

لقد قال "وايت" الحقيقة: كلما ازدادت أموالى، زاد إنفاقى، وأصبحت أعيش فى حالة متلهفة لمحاولة جمع المزيد من المال على نحو دائم.

لقـد عرفـت مليارديـرات كانوا يستيقظـون كل صباح وهـم فى حالة بارانويـا هيسترية: كانوا يخشون من نفاد ثرواتهم. فلا أمان مع المال، بل خوف كبير من أنه قد يختفى يوما ما بشكل من الأشكال.

فكلمــا زاد مالــك، زاد مــا ســوف تخســره، وبالتــالى يــزداد الخوف الرهيب.

لقـد أخرج "فرانك كابـرا" فيلما رائعا بعنوان *You Can't Take It with You* خـلال فترة الكســاد العظيم. ومع ذلك، فقـد أنفق الكثيرون حياتهـم فى بناء ثروات كمــا لو أن هذا الجهد سوف يمنحهم بعض الأمل فى الحياة إلى الأبد.

إن المال هو أكـثر الأشياء فى الحضارة المادية التى يمكنك أن تصاب بالهوسـ بها بمنتهى السهولة، كما أن المنزل الفخم شىء لا يقاوم. ولكن، مــا إن تملك متجرًا ضخمًا، يكون عليك أن تضمن أن لديك وظيفة براتب كبــير لتدفع الرهن العقارى. وما إن تملــك المنزل الضخم والوظيفة ذات الراتــب الكبير، فإنك لا تخشــى خسارتهما فحسب، بـل وتظل مستيقظا طيلــة الليل متسائلا عمــا إذا كان بإمكانك أن تظل على قيد الحياة بدون هذا الزخرف الذى نلته.

اكتب قائمة بكل الأشياء التى ضحيت من أجل الحصول عليها بالكثير من وقتك وحياتك، ثم اسرد الأشياء التى تحتاج إليها حقا من أجل البقاء

على قيد الحياة - الضرورات المجردة؛ فبذلك سوف تكتشف أنك لا تحتاج إلى معظم الأشياء التى تملكها، ويمكنك العيش بسهولة دون هذه الأشياء (وفى كثير من الأحيان ستكون فى حال أفضل).

فنحن كبشر، نحتاج إلى طعام على المائدة وسقف فوق رؤوسنا، ولكننا كذلك نحتاج إلى العائلة والحب. إننا فى حاجة إلى تقدير العالم الذى نعيش فيه واحترام الأشخاص الذين يحيطون بنا، ولا نحتاج إلى ملابس فاخرة، أو أدوات زينة من الفضة تناسبها، أو أسرع سيارة، أو أحدث الأشياء. إن هناك ميلاً حتميًا ومؤسفًا إلى أن نصبح مشغوفين بممتلكاتنا.

وقد اكتشفت السبيل الوحيد المؤكد لتجنب هذا القدر: لا تشتر المزيد من الأشياء! وتخلص من كل الأشياء التى يمكنك التخلص منها.

وبينما نحن تواقون إلى أن نملأ حياتنا إلى أن تفيض، أدركت أن أى أحمق يمكنه أن يجعل حياته معقدة.

فتبسيط الحياة يحتاج إلى شخص عبقرى

وأفضل طريقة للتبسيط هى: تحرير نفسك من الممتلكات الشخصية!

ففى حين أن العديد من الممتلكات يمكن أن تجلب لنا الراحة المؤقتة، فإنها حتمًا تجلب لنا أعباء كذلك- أعباء سداد أسعارها والحفاظ عليها ووقوفها فى طريق أفكارنا ووقتنا.

إن الممتلكات تعرقل حياتنا مثلما يعرقل الكوليسترول حركة الدم فى الشرايين. والممتلكات كذلك تثقلنا عاطفيا وذهنيا بطرق لا يمكننا أن ندركها. لقد اعتدت أن أجد نفسى مجهدا نفسى، وساعيا ما وسعنى السعى دون أن أدرك حقا أن جزءًا كبيرًا من جهدى كان فقط من أجل حمل أشياء لا أحتاج إليها.

واليوم، وبينما أصعد الدرج إلى شقتى الصغيرة، أتطلع إلى ما نطلق عليه فى الدعاية والإعلان "المساحة البيضاء": حين أفتح باب شقتى

أرى حوائط بيضاء وأثاث رحلات بلاستيكى أبيض - هناك المزيد من المساحات البيضاء السارة.

لقد جاءتنى صحفية لتجرى معى مقابلة بشأن حياتى. أولا، سرنا إلى المنزل الذى نشأت فيه: وهو قصر ذو خمس وعشرين غرفة مبنى على طراز فخم يبدو مناسبا لملك. ثم أتينا إلى شقتى الصغيرة التى تفتقر إلى الأثاث الفخم والكثير من الأشياء الأخرى.

قالت لى الصحفية مقطبة وجهها: "ينبغى أن أقول شيئا، ولكن ليس بصفتى صحفية. ما سأقوله لك لا يتعلق بالتقرير الإخبارى الخاص بالصحيفة، ولكنه خاص بالطريقة التى تعيش بها".

فقلت لها: "حسنا"، مهيئا نفسى إلى سماع ملاحظة عميقة بشأن حياتى.

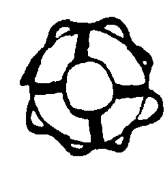
فقالت: "من اللازم أن تشترى أريكة!".

لا، ليس من اللازم أن أشترى أريكة؛ فقد علمتنى حياتى درسا يتمثل فى أن خسارة المقتنيات يمكن أن يجلب شعورا جديدا بالحرية. إننى أشعر بشعور جديد تماما بالتحرر من الخوف من فقدان الممتلكات.

كما أننى أشعر أيضا بالتحرر من ثقل حمل الكثير من المقتنيات بالمعنى الحرفى والمجازى. لقد اكتشفت قدر المرح الذى يمكن أن تشعر به وأنت تسافر عبر الحياة دون الكثير من المتاع!

فى السنوات الأخيرة، جعلنا الحلم الأمريكى - إلى حد ما - يصبح مرادفا للطموح فى الامتلاك. إن الحياة والحرية والبحث عن السعادة لا تعنى الرغبة الجشعة فى الحصول على المزيد من الممتلكات.

والآن، فى الليل، لم يعد نومى مثقلا بالخوف من فقدان ممتلكاتى. وحين أستيقظ أسير متحررا من عبء كل تلك الممتلكات.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

حين تتعرض للخسارة، هيئ نفسك إلى إيجاد شىء جديد. هناك حقيقة أساسية فى كل التعاليم عبر آلاف السنين: فقدان الممتلكات المادية يمكن فى كثير من الأحيان أن يؤدى إلى سعادة الروح.

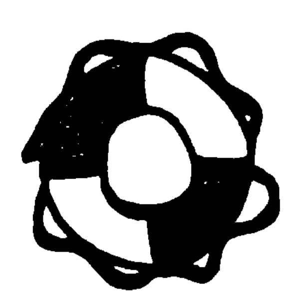
انظر إلى الأشياء المادية باعتبارها أشياء عليك التخلص منها، وليس باعتبارها أشياء عليك الحفاظ عليها، واعلم أن إعلان الاستقلال الأمريكى، حين وصف البحث عن السعادة، لم يكن يعنى الاقتناء. يمكنك أن تحصل على الحرية والاستقلال فى هذه اللحظة بأن تجد لنفسك طريقة للعيش دون الكثير من المقتنيات.



الدرس ١٥

أحب... الرحلة
ودع نورك يتألق

"وسوف أجعل مصباحى الخافت
لامع البريق"
— *اغنية روحانية*



بعــد أن انتهيــت من إلقــاء ندوة فــى إحــدى المكتبات فى كولورادو الشهر الماضى، قامت امرأة برفع يدها رغبة فى طرح سؤال.

فأومــأت برأسى لها. فنهضت عــن مقعدها، وكان من الواضح أنها رياضية جدا ومفعمة بالطاقة التى تتحكم فيها بالكاد.

فسألتنى قائلة: "هل سبق لك التجديف فى منحدر النهر؟".

فتمتمت قائلا: "لا"، حيث إن هذا السؤال لم يوجه إلىَّ من قبل.

كمــا رمقهــا باقى الحاضريــن بنظــرات مندهشة. فالســؤال لم يكن اعتياديا.

فقالت المــرأة: "إن كتابك يذكرنى بالتجديف فــى منحدر النهر. لقد بــدأت فى نهر هادئ... ثــم وصلت إلى منحدر النهر. فــى بعض الأحيان تفقــد القدرة علــى السيطرة ولا يكون أمامك ســوى الانجراف معه. وفى بعض الأحيــان، تغيــر اتجاهك. لقد بدا لى تقريبا أنك كنت تشعر وكأنك

تغـرق، ثم قاومت وتعلمـت السباحة مع التيار حقا. وفـى النهاية، وجدت نهرًا هادئًا تشعر فيه بالسعادة على نحو أكثر من أى وقت مضى".

فقلـت لها: "إن مـا تتحدثين عنه يشبـه قصتى بحـق"، وهنا ضحك الآخـرون لأن الاستعـارة التـى استخدمتهـا قـد صورت أحـداث قصتى بطريقـة جديدة. لقد كانت لدى المرأة فكرة تريد أن توضحها. لقد ولدت فى نهر يفيض بالحـظ الحسن، وحين تغير التيار وفوجئت بمنحدر النهر أمامى، لم أعرف ما علىَّ القيام به.

واليـوم، أدرك أن الحياة مليئة باللحظات الهادئة. حسنًا، يبدو أن كل شـىء يسير على نحو جيـد، ولكنها من الممكن أن تتخـذ منعطفا مفاجئا بسرعة، حيث تجد أنك مصطدم بشلال. إن الحزن والصدمة والفرح فى هذه الحياة ممتزجة امتزاجا معقدا على نحو يستحيل معه الفصل بينها. والمعانـاة، بعبارة أخرى، جزء ضرورى من مغامرة الحياة، فلا يمكنك أن تحظى بأحدها دون الآخر.

إن الحيـاة مليئة بالشكوك وهـى حقيقة تمثل تحديا وإثارة فى الوقت ذاته. وقبول هذه الحقيقـة الحياتية الأساسية يساعد على تحول الرحلة المضطربـة فـى نهر الحيـاة المندفع من رحلـة يكتنفها الفـزع إلى رحلة يكتنفهـا السـرور والمهابة. لـذا واسِ نفسـك بـإدراك أن الرحلة ستكون مدهشة.

إنها رحلة مدهشة!

ولكن هذه هى الحياة. فأنت لا تستطيع العيش فى هذه الحياة دون المرور بلحظات رائعة هادئة وأوقات أخرى صعبة حين يبدو كل شىء وكأنه يفسد وأنـك من الممكن أن تنهزم بسهولة. فـى نهاية معظم مغامرات التجديف فـى منحدرات الأنهار، تخرج مـرة أخرى إلى رقعـة فسيحة مشمسة من المياه تنتظر للترحيب بك، أو هذا ما سمعته وأحبذ تصديقه!

إننى متأكد تماما من أنك لا تستطيع الاختفاء على شاطئ فى هذه الحياة؛ فنحن جميعا فى النهر، والخيار الوحيد أمامنا هو أن نحب الرحلة وألا نقضى حياتنا كلها صارخين من قسوة الأقدار.

لا تحسب أن مغامرات التجديف عند منحدرات الأنهار مثالية فكلها لحظات غير متوقعة من الإثارة والخوف. وليس هناك حياة مثالية أو حتى شخص مثالى. إننا جميعا خلقنا بعيوب، وأعتقد أن جزءًا من معجزات حياتنا هى أننا نشارك فى محاولة تحسين أنفسنا. فالله قادر على أن يخلقنا بلا عيوب، ولكن الفرصة قد أتيحت لنا للعب دور فى تشكيل حياتنا.

وحتى الأشخاص الذين نعتبرهم مثاليين أو "محظوظين" يناضلون أيضا من أجل الحصول على السعادة. وقد تعلمت من خبرتى أن الأثرياء والمشاهير رغم مظهرهم الذى يوحى بالمثالية والتمتع بحسن الحظ من بعيد، فإنك حين تقترب من حياتهم تجد أنها على الأقل مليئة بآلام وعذابات وصراعات شخصية مثل حياة كل فرد منا؛ فليس هناك من ينجو من منحدر النهر وليس هناك من يُقذف به من فوق الشلالات فى أية حياة.

لقد توقفت عن محاولة التمسك بأى أحجار معينة على طول الشاطئ أو بناء حصن يحمينى من التيار. منذ عقود، كنت جاثما يعصف بى الخوف على الشاطئ، ولكنى الآن أقفز، وداخلى إيمان مرح، يبعدنى إلى منتصف التيار. ويرفرف قلبى مع ارتفاع النهر.

إننى لا أتوقع أننى سأتجنب منحدرات الأنهار مرة أخرى، ولكنى أعرف فى قرارة نفسى أننى سأقول، حتى لو كنت منزعجا: يا لها من رحلة مدهشة!

إن مفتاح السعادة هو أن تتعلم حب الرحلة - التى هى حياتك الفريدة - وأن تتعلم تقدير حقيقة أن كل شخص لديه قصة ليرويها.

وحيث إننى ألتقى آلاف الأشخاص فى كل المدن المختلفة عبر أمريكا على مدار السنتين الأخيرتين، فإننى كثيرا ما أندهش بالقدر الكبير من القصص الرائعة القابعة فى نفس كل شخص ألتقى به.

فقصة كل شخص فريدة من نوعها. وآمل فى أن يسمح كل شخص لصوته الفريد بأن يُسمع، ولكن الكثير من الأشخاص يترددون فى الحديث من قلوبهم وكشف هوياتهم الحقيقية.

وقد أخبرنى العديد من القراء بمدى امتنانهم لشجاعتى فى سرد قصتى؛ فلم يكن هذا الأمر باليسير على نفسى.

لقد أخبرتنى "جيليان ماكنزى"، وكيلتى ومحفزتى المبتكرة، حين تناولنا اللاتيه معا للمرة الأولى: "سوف أساعدك على نشر قصتك. ولكننى لا أريد أن أنشر كتابا عن ستاربكس فحسب، بل أريد كتابا عنك وعن حياتك المدهشة، ولكن فقط إذا كنت تنوى قول الحقيقة".

وباعتبارى رجل دعاية وإعلان سابق، لم يكن بالطبيعى بالنسبة لى أن أقول الحقيقة، ولكن ما إن بدأت فى محاولة سرد قصة صادقة، وجدت أننى أشعر بالارتياح. لقد كان بداخلى مشاعر كثيرة متراكمة لم أكن قد عبرت عنها من قبل - ولا حتى مع نفسى. فحين تم فصلى من العمل، تظاهرت أمام العائلة والأصدقاء بأن كل شىء على ما يرام. وحتى حين بدأت عملى فى ستاربكس حاولت أن أخبئ عن شركائى مدى رعبى من احتمال فشلى فى هذه الفرصة الجديدة.

فى وقت الأسئلة الذى يتبع كل ندوة، دائما ما أُسأل السؤال التالى: "كيف ألفت كتابك؟".

لقد ساعدنى على قول الحقيقة فى سرد قصتى أننى كنت أحتفظ بمفكرة يومية. فحين كنت أمر بذلك الوقت العصيب من حياتى، اقترحت على ابنتى "آنى" أن أدون بضع جمل عما أشعر به قبل أن أذهب إلى الفراش كل ليلة.

وبعد حوالى سنة من العمل فى ستاربكس، أعدت قراءة هذه المفكرة. قرأت وصفى لمدى حالة اليأس والإحباط والخوف التى كنت عليها فى البداية، ثم، وبعد عـام واحد، مدى السعادة التى أصبحت عليهـا. وقد اعتقدت أن قصة تحولى هذه والنهاية السعيدة لأوقاتى العصيبة كانت جديرة بأن تحكى.

لقـد سمعـت أن قصتى هـذه كانت مفيدة للكثيرين ممـن فُصلوا من أعمالهـم، أو فقـدوا منازلهم، أو اكتشفوا إصابتهـم بمرض خطير وليس لديهـم تأمـين صحى؛ فـكل الأشخاصـ فى أنحـاء أمريكا وحـول العالم يواجهون تحديات لا تتحدث عنها معظم الكتب.

إن قصتـى تتحدى هذه الحقائق، كما أننى أقدم لكم نبأً سعيدًا يتمثل فـى أن هنـاك حياة - بل وحياة أفضل - بعد خسـارة كل معايير النجاح الظاهريـة، حيث يمكننـى أن أشعر من الأشخاص الذيـن أتحدث معهم بأنهم اطمأنوا، بل وتحفزوا، بفعل قصتى المدهشة حول بهجة العثور على حياتى الجديدة البسيطة.

بعد ذلـك أتحـول إلى الجمهور طالبا منهـم أن يسـردوا قصصهم، ودائمـا ما نجد أن الاستماع إلى بعض هـذه القصص يكون رائعا، فأقول لكل شخص: "أخبرنا بقصتك. ويمكنك أن تتيقن من أن قصتك بالتأكيد ستكون مختلفة عن أية قصة أخرى".

إن لـكل منا قصة فريـدة وقوية التأثير ليرويهـا، والتى من الممكن أن تساعد الآخرين على إدارة حياتهم. وليس من الضرورى أن تكون قصتك مأساويـة جدا: ففى بعضـ الأحيان، فـى ثقافة العنـف والخيال الحسى النابضـ. يشعر بعض الكتاب بأنهم لا بـد أن يتعاملوا مع الحياة بطريقة مثيرة للاشمئزاز من أجل لفت الانتباه إلى أنفسهم.

ومـن الممكـن أن تـدور القصص العظيمـة حول حيـوات بسيطة جدا وجميلة؛ فإحدى الهدايا الرائعة التى منحتنى الحياة إياها هى الأشخاص

الرائعين الذين يرشحون لى قراءة كتب ذات قصص ربما أننى قد غفلت عنها.

أخبرنى "نورمان هولمز بيرسون" - والذى كان أستاذى فى الكلية ثم أصبح صديقى كذلك - بأنه ينبغى علىَّ قراءة كتاب بعنوان *The Country Of The Pointed Firs*، ومؤلفة هذا الكتاب تدعى "سارة أورن جويت".

فى ذلك الوقت من حياتى، كنت أميل أكثر للمؤلف "هرمان ميلفيل" وكتابه *Moby Dick* - وهو قصة درامية تحكى عن الأخطار والمغامرات.

ولم أكن قد سمعت بهذا الكتاب أو بالمرأة التى ألفته. إنه بالتأكيد لم يكن الكتاب الذى أفضل قراءته. ولكن، نظرا لأننى لم أكن أستطيع مقاومة كتاب فقد عثرت على نسخة وبدأت فى قراءته. وقد أسرتنى الكاتبة من الصفحة الأولى.

فنبرة "سارة أورن جويت" المليئة بالشغف لقرى الصيد القديمة الواقعة على طول ساحل ماين أسرتنى بقوة مثيرة للدهشة. ومن خلال حديثها الشفاف - الذى بدا وكأنه يتلألأ مثل شمس ماين القوية - خلقت الكاتبة قصة حية حتى لعينى الشابتين. فالصيادون والسيدات العجائز أصبحوا نابضين بالحياة إلى جانب عنصر التشويق القوى، فلم أستطع ترك الكتاب إلا بعد الانتهاء منه.

وقد كان كبار الصيادين لدى "جويت" مختلفين جدا عنهم لدى "ميلفيل". فكبار الصيادين لدى "جويت" كانوا يبدون فى حالة سلام مع البحر والعالم الطبيعى الذى يقطنون فيه؛ فى حين أن كبير الصيادين لدى "ميلفيل"، "إهاب" قد حارب بهوس شديد ضد قدره.

وقد أخبرنى شخصان آخران بقصص مختلفة عما يمكن أن تشعر

بـه عندما تقضى حياتك على البحر، وحتى البحر نفسه يمكن أن يوصف بأشكال عدة بقدر ما يوجد من كتب.

تصف "فيرجينيا وولف" صـوت وموسيقى الأمواج فى كتابها المسمى بذلك الاسم:

" توقفـت الأمواج، ثم امتدت مرة أخرى، متنهـدة كالنائم الذى تغدو أنفاسه وتروح بلا وعى" .

كمـا ينهى "إف سكـوت فيتزجيرالد" روايتـه *The Great Gatsby* بإغرائه الشهير:

" وهكذا، نبحـر على متون قوارب ضد التيـار، عائدين باستمرار إلى الماضى" .

وأنا متأكد من أن "سارة أورن جويت" و"هيرمان ميلفيل" و"فيرجينيا وولـف" و"إف. سكـوت فيتزجيرالد" قد وجـدوا شيئًا يقدرونـه فى رؤى الآخريـن المتفردة والمبتكرة للعـالم، ومتيقن كذلك مـن أن كلاً منهم قد رأى البحر على نحو مختلف تماما.

لا يوجـد كاتبـان - بل شخصـان- يريـان ويصفـان تجربتيهما على نفس النحو بالضبـط؛ فلكل منا قصته الخاصة. وقد خلقنا جميعا لنكون مبدعين. وكلنا، بهذا المعنى، فنانون مبدعون نشكل حياتنا الخاصة.

إن كل كاتـب وشاعر ليـس له قصته الفريدة التـى يرويها فحسب، ولكنه كذلـك يرويها علـى نحو فريد. ومن خـلال مشاركة كل منا لـرؤى الآخر ومشاعـره وقصصه الأصيلة يمكننا أن نبنى حضـارة نستطيع جميعا أن نستمتع بها فى المستقبل.

إننـى مـدرك الآن أنه ليـس هناك حياتـان متشابهتـان. وكل أبوين يعرفـان أن كل طفل هو هديـة ذات شخصية ومواهب فريدة تبرق بنوره الخاص.

كما أن الدافع وراء رغبة كل منا فى سرد قصته على نحو متفرد يقبع فـى أعماق طبيعتنا. ومنذ سنوات مضـت، ذهبت لزيارة كهوف إسكوفى فرنسا. إنهـا مليئة بالغموض، ولكن لا غموض يكتنف سبب قيام أجدادنا القدماء منـذ آلاف السنين بملء حوائط هذه الكهوف بالرسوم. وحوائط هذه الكهوف نابضة بصور فنية تصور الصيد أو موت الصياد. ومثل هذا النوع من الفن لا ينبغى أن يفاجئنا؛ فنحن جميعا خلقنا برغبة فى داخلنا للاحتفـاء بالعالم مـن حولنا من خـلال الرسوم والـرؤى الفنية الأخرى المصورة على كل وسيط ممكن.

وكل طفـل يولـد ولديه قـدرة على الارتبـاط بالعالم بطريقتـه الفنية الخاصــة. فالأطفال الصغار يغنون ويرسمـون ويرقصون تلقائيا. أليست الثلاجات فى البيوت الأمريكية مزينة بالأعمال الفنية للعباقرة الصغار؟ وهنـاك ضرب من العبقرية فى هـذه الجهود الفنية للصغار؛ حيث إن كل الفنـون العظيمـة تنبع من نفس المصدر الأساسى كالرغبـة فى مشاركة المرء لرؤيته الشخصية مع العالم، كما أن كل الفنانين العظماء يستطيعون الرسم نظـرا لأن كل حياتهم تقوم على هذا النشاط الإبداعى الأساسى، فلا ينفكون يظهرون موهبة طفولية للتعبير عن أنفسهم بطريقة تساعدنا على رؤية العالم نابضا كل يوم، مثل "بيكاسو" فى مرحلة التسعينيات من عمره التى اتسمت بالإنتاجية.

إننـى أحتفظ بالعديد من اللوحـات والرسومات التـى رسمها أبنائى على حوائط شقتـى. وكل طفل يرسم ويغنى ويسرد القصص ليس بسبب رغبة فى أن يكـون غنيا أو مشهورا، ولكن نزعة أكثر عمقا وروعة لإضفاء معنـى علـى الحياة. *وكل طفل يرغـب فى أن تلقى جهـوده الفنية التقدير والإعجاب.*

ومؤخـرا، طلب منى إلقاء ندوة فى شركة جوجل، وقد أخبرتهم بأنهم

كانـوا أحد آخـر أساليب التعبير عـن الحاجة الإنسانيـة الشغوفة لإيجاد طرق جديدة وأكثر إبداعـا للتواصل. وبدءا من الرسم على الحجارة إلى الصحافـة المطبوعة إلى الإنترنت، يمثل تاريخنـا الإنسانى ملحمة طويلة للرغبة فى التواصل بأفضل الطرق الممكنة وبأكثر قدر ممكن.

وبعـد ذلك، أخذنى مستضيفى من شركـة جوجل باتجاه "كافيتريا"، وانتظـر بعض الطهاة فـى "الكافيتريـا" ليخيرونـى بين ستـة أنواع من السلطات وثلاثة أنواع من الأسماك ونوعين من اللحوم. ولكننى كنت أكثر اندهاشـا بفعـل ما رأيته فـى طريقنا إلى هذه الدعوة علـى الطعام. فقد مررنا على المرافق الترفيهية داخل أرض الشركة – المعتادة بالنسبة لوادى السليكـون – مثل ملاعب الكرة الطائرة الرملية وحمامات السباحة. كما مررنا على حاويات صلبة.

فسألـت قائلا: "مـا هذا؟". فقد كانت تبدو شـاذة عن أرض الشركة الجميلـة بشكلهـا غير الملائـم والقديم إلى حد ما والضخـم- بما لا يليق بطراز شركة جوجل الرائع الأنيق.

فقالـت "مارسيـا": "مـا عليك سـوى أن تسقـط ملابسـك المتسخة فـى الحاوية ثـم تشير لها وأنت مـار، وستحصل على ملابسـك بعد أربع وعشرين ساعة نظيفة ومكوية".

وهنالـك، كنـت مبهورا حقـا! فالحصول علـى غسيل نظيـف هو أمر يهمنـى بحق. ثـم تذكرت أنه بالإضافـة إلى رطل مجانى مـن القهوة كل أسبـوع، يقوم ستاربكس بتنظيف مئزرتى الخضراء كذلك بعد كل وردية. إنهـا لا تكـون متسخة بدرجة كبـيرة. والأكثر إثارة للإعجـاب من خدمة الغسيـل المجانـى التى تقدمها شركـة جوجل كان مظهـر التواصل المرئى الضخـم الـذى مررت به بعد ذلـك - كان عبارة عن كـرة أرضية ضخمة تهتـز بالملايين من المصابيح الدقيقة. إن كوكب الأرض كله كان يضاء فى

وقـت واحد بكل نقرة على موقع جوجـل؛ فالملايين والملايين من المصابيح كانت تنطلق مرة واحدة فى أجزاء من الثانية.

هـل يوجد مظهر أقوى مـن ذلك على رغبتنا فـى الاتصال *والتواصل مع بعضنا – لمشاركة أضوائنا؟* إن كل هذه الملايين من الأضواء الشديدة التـى تلمع باستمـرار بشدة جنونية ما هى إلا رمـز نابض ومرئى لقدرتنا على وحبنا للتواصل.

لقـد قال "روبـرت فروست" ذات مـرة: "حين يتحـد كل من الحاجة والحب/ من الممكن أن يحدث شىء/ من أجل السماء ومن أجل المستقبل". إن التواصل هو أكبر احتياج وأعظم حب بالنسبة لنا، ونحن لم نتوقف أبدا عن رغبتنا فى إيجاد المزيد من الطرق لتحقيق هذا السحر.

ولذلك استخدمـت العديد من الحضارات القديمـة الفن والقصص لتوصيـل وإضافـة المعنـى وحتـى الجمـال إلى الحياة. ففـى الحضارات القبليـة، كان الراقصون يلتفـون حول النيران مرتديـن بحرص قناعات لوحوشـ أو حيوانات يحتاجون إلى بقائها على قيد الحياة، وآخرون يغنون أغنيات لمعارك وقعت ومعارك لم تقع بعد.

لقد تمت أخيرا ترجمة كتابات حضارة المايا – وهى مليئة بالتفاصيل وقصص الحركـة المحفزة التى تصـور مقدار ما كان لديهـم من أبطال أقوياء. والإنكا حضارة أخرى تحدثت على الحجارة عن النهضة الملحوظة لإمبراطوريـة كبـيرة. والمقابـر المصريـة تتحدث عـن أشخاص كرسوا أنفسهـم لتشكيـل جداريات ثرية تعبر عـن الجوانب المختلفـة لحياتهم. وأبسـط النقوش المستردة من أقـدم المواقع فى العالم القـديم بها بعض الخدوش التى يبدو أنها توضح جانبًا من الجهد الواضح المبذول من أجل فهم العالم أكثر، وذلك عبر التواصل مع بعضها.

إن الدافـع وراء تأليـف القصص وإدراك الأمـور كان مرتبطا كذلك

بالرغبــة فى التعبير عن أعمق أحاسيسنا ـ مـن التوق للطعام إلى التوق للحب.

إن قصيــدة Song of Solomon هــى إحدى قصائد الحب المفضلة لدى:

تكلـم حبيبى وقال لى، هيا . انهضى، يا حبيبتـى، وسيدتى الجميلة، وتعالى معى
انظرى، ها قد مر الشتاء وتوقفت الأمطار وولت
وتفتحت الورود على الأرض، وحان وقت تغريد
الطيور، وعلا صوت السلحفاة فى أرضنا،
وشجرة التين قد طرحت تينها، وكرمات
العنــب الطازج تفوح منها رائحة ذكية. هيــا انهضى، يا حبيبتى، يا سيدتى الجميلة. وتعالى معى

لقد خلقنا لنرقص ونغنى معا. لقد خلقنا لنحتفل ونحب بعضنا ونحب الحياة.

ولنفعل ذلك، علينا أن ننسى الماضى، أو الخجل الذى نتعلمه فى بعض الأحيــان كبالغين حين نفقد ما نسميه الثقة الطفولية الفنية. وحتى ونحن بالغون، بل وشيوخ، ينبغى علينا أن نجد وسيلة نجعل بها بريقنا يلمع، مع العلم بأننا قد خلقنا للقيام بذلك.

قرب نهاية حياته، يقول الشاعر الأيرلندى "ويليام باتلر ييتس":

حين أنبذ ذلك الشعور بتأنيب الضمير
تسرى فى صدرى عذوبة رائعة
علينا أن نضحك. علينا أن نغنى،

إننا مبارَكون فى كل شىء،

وكل شىء ننظر إليه مبارَك

إن الرقص والغناء هما حقنا بالميلاد! إنهما نعمتان علينا الاستمتاع بهما. وينبغى علينا أن نحتضن حقنا فى مشاركة قصصنا الخاصة الفريدة من خلال الغناء أو الرقص أو الرسم أو الكتابة - كل يوم. ولا ينبغى علينا أبدا أن نخجل من جعل بريقنا لامعا.

ولا ينبغى علينا أن نتوقع أن رؤيتنا تشبه رؤى الآخرين.

لقد اكتشفت أن هناك ثلاثة أشخاص بالغين يحملون نفس اسمى، ولكننا مختلفون. فقد عدت إلى أيرلندا لأبحث فى جذورى، وذهبت إلى مدينة صغيرة تسمى "درامسنا" تقع على ضفتى نهر الشانون؛ فعائلة "جيل" قد هاجرت من نهر فى أيرلندا إلى نهر فى كونيكتيكت. قدت سيارتى عبر "درامسنا" مرتين قبل أن أجدها. والمدينة ليس بها إلا مرآب صغير ودار عبادة، وصف صغير من المنازل و - **بالطبع** - **مقهى**.

زرت المقهى فى وقت مبكر من بعد الظهيرة.

أكد لى نادل الحانة قائلا: "بالتأكيد، لن يكون هناك أحد فى هذه الساعة، ولكن عاود المجىء فى وقت لاحق".

فأخبرته بأننى أبحث عن أى فرد من عائلتى.

فسأل الرجل قائلا: "وما اسمك؟".

فردت قائلا: "مايكل جيل".

إن هناك الكثير من أفراد عائلة "جيل" هنا - يمكنك أن تلتقى بثلاث رجال يسمون "مايكل جيل" هذا المساء إذا ما صبرت وانتظرت قليلا".

فانتظرت عن طيب خاطر، وتمشيت طويلا على طول نهر الشانون الجميل وعدت إلى الحانة فى وقت لاحق من المساء. وقابلت، بالفعل، الرجال الثلاثة الذين يحملون اسم "مايكل جيل".

كان أحدهم طالبا فى الجامعة، والآخر مزارعًا، أما الثالث، فقد كان رجلا عجوزا، وأخبرنى قائلا: "سوف أغنى لك Danny Boy باللغة السلتية مقابل خمسة جنيهات"، فلم أقبل عرضه.

وفى الواقع، شعرت بالخوف من "مايكل جيل" العجوز. أهذه هى نهايتى ... أتعهد بغناء أغنية لبعض الأقارب البعيدين... مقابل المال؟ ولكن المزارع الكهل ذا اليدين القاسيتين والحذاء المطاطى ذى الرقبة كان النسخة الأفضل من اسمى. أما الطالب الجامعى، الذى كان يزيح شعره عن عينيه بنشاط، والذى فرح لمقابلة قريب له من أمريكا، فقد كان نسختى المفضلة.

ولم أقض تلك الليلة فى "درامسنا". فلم يكن هناك فنادق، ورغم أن "مايكل جيل" المزارع الكهل دعانى إلى المكوث فى مزرعته، إلا أننى شعرت أننى قد اكتفيت من سر الحياة فيما يتعلق بالوراثة والأسماء. فربما أننا نحمل بعضًا من الجينات نفسها بالإضافة إلى أسمائنا. ولكن انظر إلى مدى الاختلاف بيننا!

ويتمثل بعض هذا الاختلاف فى الطبيعة مقابل النشأة؛ فالأشخاص الثلاثة الذين يحملون اسمى نفسه قد نشأوا فى أيرلندا بينما نشأت أنا فى أمريكا، ولكن، لا يخفى أبدا مدى اختلافهم عنى وعن بعضهم أيضا. ليس هناك نمط مقولب لـ"مايكل جيل" تماما مثلما أنه لا توجد نسخة طبق الأصل من أى شخص منا. تماما، مثلما تنظر إلى قطع الجليد تحت المجهر وتجد أن كل قطعة لها تصميم خاص بها، فإننا كذلك مخلوقون لنكون متفردين.

هناك عبارة كثيرا ما نسمعها فى الجنازات ألا وهى: "لقد خرج عن النمط" حين فعل كذا وكذا. إن شعورى الآن أنه ليس بالأمر الكبير أن يتم الخروج عن النمط، ولكنه لا يوجد نمط لأى شىء. إن الخلق عمل مبدع

يعمل باستمرار على جلب شيء جديد وناضر إلى الحياة. فإذا كانت قطع الجليد مختلفة، فما وجه الدهشة إذن في أن لكل منا حياته المتفردة ونوره الذى يتشاركه مع الآخرين؟

أحد أكثر القصص المؤسفة التى قرأتها فى أحد الكتب الدينية هى قصة رجل دفن مواهبه. لقد رغب فى المحافظة على مواهبه سليمة، ففقدها جميعا بسبب قلة استخدامها. لقد مُنحنا جميعا مواهب رائعة بالميلاد: فقد خلقنا الله جميعا بمواهبنا المميزة. لذلك، فإننى فى نهاية كل ندوة أشجع كل فرد على أن يروى قصته، ويجعل بريقه يلمع.

وهكذا سوف يصبح العالم كله مكانا أفضل وأسطع.



كيف يمكنك أن تستفيد من هذا الدرس؟

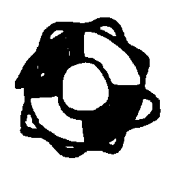
يمكنك أن تتعلم أن تستمتع بالحياة باعتبارها مغامرة ناضرة وجديدة دائما إذا ما تركت نفسك تذهب أينما يأخذك النهر. اعلم أنك فريد؛ فلديك قصتك المميزة لترويها، حيث إن اتجاه تيار النهر فى تغير دائما، وكل شخص يحيا حياة مختلفة على نحو كبير.

إذا كنت تقرأ هذا الكتاب، فربما ترغب فى الكتابة. لذا فابدأ فى الاحتفاظ بمفكرة يومية. وفى كل ليلة قبل أن تنام، اكتب جملة أو جملتين حول يومك أو أى شيء يحدث لك. وبعد بضعة شهور ألق نظرة على تلك الصفحات. ثم يمكنك أن تقرر أن لديك قصة تستحق أن تتشاركها مع الآخرين.

وأيا كانت موهبتك، وأيا كان الشىء الذى تحب القيام به وتُميز به، فقم بـه علـى الفور! اكتب أو تحـدث أو اعزف أو غنِّ - تواصل بأى وسيط تريد، وبقدر ما تريد، وشارك بضيائك الفريد!



أمنية واحدة أخيرة



حين انفجرت فقاعة التميز التى كنت أحيا بداخلها، شعرت بالفزع.

ولكن اتضح أن خروجى من فقاعتى هو أفضل شىء حدث لى فى حياتى.

لقد حررنى لأكون نفسى.

وبمساعدة الكثيرين، شققت طريقى إلى عالم جديد أكثر روعة إلى حد كبير من أى عالم آخر مررت به داخل فقاعتى المحصنة.

وهذا العالم الجديد الذى اكتشفته هو عالم راق ملىء بالحب والفهم العميق لمعجزة الحياة الرائعة نفسها.

والآن أشعر بإحساس دائم بالبهجة والامتنان. فحين انفجرت فقاعتى، اضطررت لخلق طريقة جديدة للعيش جلبت لى بدورها بعدا جديدا للسعادة، ويمكننى أن أقول بحق: إننى أكثر سعادة فى حياتى من أى وقت مضى.

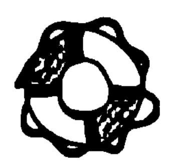
أتمنى أن تساعدك دروس الحياة التى تعلمتها بعد عناء على التقدم واكتشاف طريقة جديدة لجلب مستوى أعمق من السعادة فى حياتك.

حين أوقِّع على كتابى لشخص ما بعد رواية قصتى، دائما ما أكتب له أعظم أمنياتى له. وهى أيضا أمنيتى القلبية لك:

" أمنياتى لك بحياة تحبها!"



شكر وتقدير



هنـــاك رجل واحد هو المسئول عن فكرة هـــذا الكتاب؛ ألا وهو بيل شينكر، الذى قال لى: "إننى أحب نشر الكتب التى تفيد الآخرين". لقد كان يعتقد أن نشـــر كتـــاب يمكنه أن يفيد النـاس بشكل فورى فـــى هذه الأوقات المليئة بالتحديـــات هو جهد يستحق أن يُبذَل. كما أننى أشكر والدة بيل على أنها أنجبـــت مثل هـــذا الابن الرائع. إن بيـــل ناشر عظيم، ولكنـــه أصبح أيضًا صديقـــا قديـــرا، إنه من ذلـــك النوع الذى يحـــارب من أجلـــك أقوى مما تحارب أنت من أجل نفسك.

واختـــار بيـــل جيسيـــكا سيندلر لتكـــون محررتى. فأنا ممـــتن لموهبتها النـــادرة لإضافة الوضوح وتدفق السرد الإيجابى لعملى. إن لجيسيكا لمسة رائعة والعمل معها مصدر للسرور.

إن جيليـــان ماكنزى، وكيلتى وصديقتى، عامل محفـــز مبتكر بالنسبة لى، وهـــى واحدة من تلك الأرواح القديرة التى تضفى بريقا وحسا دراميا على صنعة سرد القصص.

وكيلى المتميز فى هوليوود هو شارى سمايل الذكى المفعم بالحيوية من وكالـــة الفنانين المبدعين. وقد أخبرنى شـــارى أن توم هانكس وجاس فان

سانت وجون أورلوف يعملون جاهدين لتحويل قصتى إلى فيلم. وأنا سعيد جدا لوجودى مع ما أعتقد أنه "الفريق المتميز".

وحيث إننا نتحدث عن الفرق، قامت ليز جونسون ببناء فريق دعاية رائع يبذل ما فى وسعه لنشر الكلمة. فبيث باركر على سبيل المثال، نجمة حقيقية فى ضمان أن يخرج كل ظهور لى فى وسائل الإعلام على نحو جيد. إن بيث محفزة جدا لدرجة أنك تشعر وكأنك قد تناولت قدحًا رائعًا من القهوة بعد الحديث معها. أدنايك أولانريواجو هى الأخرى فرد ممتاز من فريق الدعاية، والتى يتمكن حضورها الهادئ من إحداث الأشياء الجيدة.

كما أعرب عن تقديرى لكل العاملين فى جوثام/بينجوين الذين بذلوا جهدًا مفرطًا من أجلى.

وشكرى لأبنائى يتجاوز كل الكلمات. لقد كانوا داعمين وودودين ومتفهمين جدا. وأشعر بالسعادة لأن معى مثل هذه المجموعة التى ترفع من روحى المعنوية. وأعرب عن تحياتى الكبيرة لـ بريدا والسى، ولكل إخوتى وأبناء وبنات إخوتى وأبناء عموتى وأبناء أخوالى - الذين كنت قادرا على الاتصال بالعديد منهم خلال السنة الماضية. وقد اكتشفت أنه لشىء مرح أن أكون جزءًا من قبيلة يبدو أنها متواجدة حقا فى كل مكان فى العالم!

وأتقدم بشكر خاص لمحاسبى ذى القلب الكبير. أعرف أن وجود محاسب بقلب كبير أمر غير مرجح، ولكن، لورانس بست قد وقف إلى جانبى فى معظم الأوقات العصيبة. لقد قبل لارى بطاقات ستاربكس لأبنائه عند السداد له حين لم يكن لدى كثير مما يمكننى تقديمه. لم يتخل عنى لارى أو زوجته آنى لحظة. وحين حقق كتابى أكثر مبيعات، وكانت هناك أنباء عن تحويله إلى فيلم، اتصل بى لارى ونصحنى قائلا:

"لا تتخل عن وظيفتك الأساسية!". لقد ساعدنى لارى على أن أصبح أكثر وعيا بسر المال.

وبمناسبة التحدث عن المال، وعلى الرغم من الصعوبات المستمرة فى فهم كيفية التعامل مع الحقيقة المالية، كان حظى حسنًا جدا لمقابلة مارجريت كامينجس إيكرون، وهى موظفة مجتهدة فى مصلحة ضريبة الدخل، فرع نيويورك. وعلى الرغم من أنها مشغولة جدا، إلا أنها عاملتنى بلطف واحترام. وبمساعدتها الطيبة، تمكنت من دفع كل ضرائبى حتى وقتنا هذا.

يقال: إن الموت والضرائب شيئان لا يمكن تجنبهما، وأنا أود أن أستغل هذه اللحظة فى التعبير عن شكرى للأطباء العظام الذين ساعدونى على تأجيل رحيلى عن هذه الحياة، وساعدونى كذلك – فى الواقع - على جعل حياتى الحالية أكثر صحة وسعادة، بما فى ذلك الأطباء لورانس كوهن وباتريك كيلى وتوم رولاند وبارستو وبيلو.

أصدقائى العظام الذين أحبهم والذين بقوا بإخلاص إلى جانبى وهم لاتون ونانسى ماكرتنى، هيلين تاكر، فيليس ساميتز كوهن، كينت بيرويك، جانيت روس، كيت وينر، لوسى دانزجر، إلينا كرولاس، فيليب كوتسيس، ريتا وآلان شتاينكامب، بنيامين وباربرا زوكر، دون واريكا روبرتسون، ، جو وأليسون فوكس، بيل وباربرا نوردهاوس، لارى جوين، بيتر وآن بيكيت، جوناثان روز وعائلته؛ ديك موزر، ستيف جونز، هانك هويت، لى مارش، باتريك رولان ميلر، بيل ولوسى هاملتون، مولى ودايف بورين، تيم أوكونيل، جيسى كلاى، تشارلى وبيتى فرانك، هارى دافيسون، كويت ليليس، ستار وميشيل تشايلدس، جون ويلبور، جيم وسوزان بروستر، ستيوارت وكريستوفر وبيستى ليتل، كارولين وديك أندروس، هانك هيكدون، ديف ماويك، سوزان وكورتس راند، إيرون وساشا تشايلدز،

ماثيو برنان، كونور ماكرثـى، شيلا باترسون، ديليس إيفانس، روبو، باول جورمـان، روبـرت جروسمان، مايك وتينـا سيبلى، وعائلـة ميلر، وعائلة برنـارد، بما فى ذلك أبناء عمومتى إيتون وهنرى برنارد، سانتياجو ليون، جـون شـو، تونى ثومبسون، مايـكل هيلمى دى أفلون، فـان فيتشن برجر، فريدى باتلر، إدوارد ناسبوم، تيد واجنر، جودى وتومى جيل.

كل يـوم يكون لدى الكثير لأشكـر شركائى وزبائنى عليـه، وأتمنى أن أكرمهـم بسـرد أسمائهم الأولى (فنحـن نركز على الأسمـاء الأولى فى ستاربكس):

هاوارد

زيتا

مارتن

تاشا

مايك

مات

آن

آيا

تامار

جيم

لارى

ماجدالينا

جورج

مارجريت آن

ياميليث

دونتى

ميغان

تشلو

جوردان

جوناثان

كاميلا

راشيل

إيمى

مارى لويس

جانى

بوب

لو

كيت

جورجى

سارة

بيلى

دان

مالدون

ماريا

آمى

ستيف

مارتن

ديبى

إليزابيث

فينى

بلايز

دونالد

ليزا

كريستوفر

نانسى

آلما

كارميلا

نيك

مولى

إدوين

جلوريا

مالكوم

باولا

وكل العاملين القادمين إلينا فيما بعد!

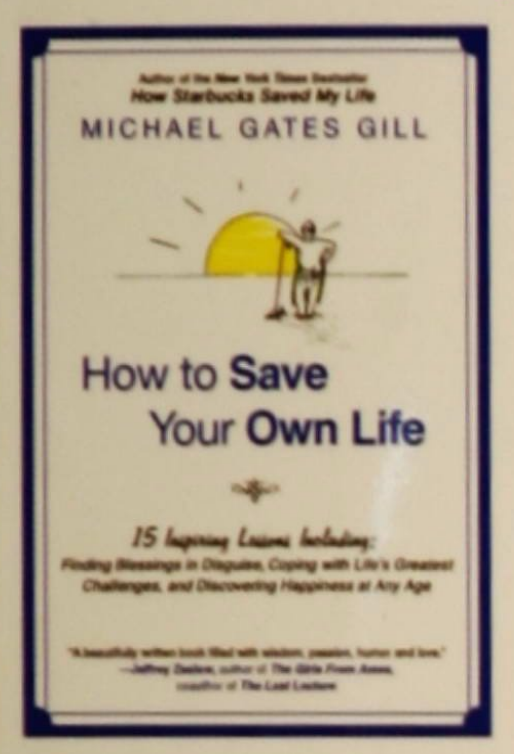
تخلص من ... ساعة يدك (وهاتفك النقال، ومساعدك الرقمى الشخصى!) – إن الكثير منا بالفعل لا يتوقفون عن العمل، وفحص المساعد الرقمى الشخصى من أجل رسائل البريد الإلكترونى والتنقل عبر مواقع الإنترنت لمعرفة الأخبار التى تؤثر على أعمالنا طوال أوقات اليوم. اهدأ! إن وقتنا على الأرض محدود ونحتاج إلى إيجاد التوازن.

يبين مايكل للقراء الكيفية التى اكتشف بها السعادة الحقيقية والكيفية التى يمكنهم بها فعل الأمر نفسه. إن الأمر يقوم على إيجاد القوة لمد يد المساعدة للآخرين وبدء حياتنا من جديد.



مايكل جيتس جيل مؤلف كتاب *How Starbucks Saved My Life* وابن برندان جيل – الكاتب فى صحيفة نيويوركر. وهو مدير تصميم فنى سابق فى وكالة جيه. والتر ثومبسون للدعاية والإعلان. ويعمل الآن فى مقهى ستاربكس. ولا ينتوى التقاعد. ويقيم فى نيويورك.

www.michaelgatesgill.com



إشادات بهذا الكتاب

"إننا جميعا محظوظون لأن ستاربكس أنقذ حياة جيتس جيل فقد مكنه ذلك من العودة لنا بكتاب رائع ممتلئ بالحكمة والشغف والفكاهة والحب".

- "جيفرى زاسلو"، مؤلف *The Girls from Ames*،

والمؤلف المشارك لكتاب *المحاضرة الأخيرة*

إشادات بكتاب *How Starbucks Saved My Life*

"فى عرف نيويوركر، فإن *How Starbucks Saved My Life* كتاب عظيم".

- وول ستريت جورنال

"يروى جيتس قصته بدقة... إنه كتاب محرك للمشاعر لأن الكاتب يرفض أن يكون عاطفيا أو أن يشعر بالشفقة على نفسه، كما أنه مؤثر لأن شعوره هذا بالامتنان الذى اكتسبه بعد شقاء يبرق فى كل صفحة". - **نيويورك بوست**

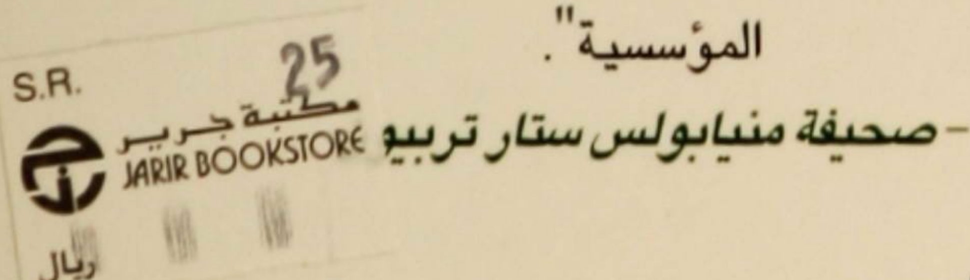
"نظرة مثيرة فى أعماق أحد أشهر الأسماء التجارية العالمية".

- صحيفة كريستيان ساينس مونيتور

"سوف تدفئ رواية مايكل جيتس جيل أقداح اللاتيه الذين تطأ أقدامهم مقهى ستاربكس المحلى". *- صحيفة نيويورك ديلى نيوز*

"يعد كتاب *How Starbucks Saved My Life* بمثابة مذكرات مثيرة للاهتمام خاصة بتغير الإنسان. ولكنه يعد كذلك بمثابة نداء يقظة لأمريكا المؤسسية".

- صحيفة منيابولس ستار تربيو








روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية
www.ibtesama.com